

إقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف الحزب الحادي

والعشرين من القرآن الكريم

(سورة التوبة ، الآيات: 93-129 ، سورة يونس ، الآيات: 1-25)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification

Student's name:

اسم الطالبة: أسماء محمد سعيد حسونة

Signature:

التوقيع:

Date:

التاريخ: 2014/9/24



الجامعة الإسلامية بغزة
عمادة الدراسات العليا
كلية أصول الدين
قسم التفسير وعلوم القرآن

الدراسة التحليلية

لمقاصد وأهداف الحزب الحادي والعشرين من القرآن الكريم

(سورة التوبة الآيات: 93 - 129، وسورة يونس الآيات: 1 - 25)

The analytical study

The purposes and objectives of the party and the twenty-first of the Quran
(Surat of Al- Tawbah verses: 93 - 129, and Surat Younis verses: 1 - 25)

إعداد الطالبة

أسماء محمد حسونة

إشراف الأستاذ الدكتور

عصام العبد زهد

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن.

1435هـ - 2014م



نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحثة/ أسماء محمد سعيد حسونة لنيل درجة الماجستير في كلية أصول الدين / قسم التفسير وعلوم القرآن وموضوعها:

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف الحزب الحادي والعشرين من القرآن الكريم

سورة التوبة الآيات: 93 - 129، وسورة يونس الآيات: 1 - 25

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الثلاثاء 10 رمضان 1435هـ، الموافق 2014/07/08م الساعة التاسعة والنصف صباحاً بمبنى اللحيان، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د. عصام العبد زهد	مشرفاً ورئيساً	أ.د.
د. رياض محمود قاسم	مناقشاً داخلياً
د. سامي محمود أحمد	مناقشاً خارجياً

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحثة درجة الماجستير في كلية أصول الدين / قسم التفسير وعلوم القرآن.

واللجنة إذ تمنحها هذه الدرجة فإنها توصيها بتقوى الله و لزوم طاعته وأن تسخر علمها في خدمة دينها ووطنها.

والله ولي التوفيق ،،،

مساعد نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. فؤاد علي العاجز



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾

﴿وَمَرْسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

(سورة التوبة، آية: 105)

صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ،

الإهداء



- ◀ إلى من بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة إلى نبي الرحمة، ونور العالمين، سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه وسلم.
- ◀ إلى أرواح علماء وشهداء الإسلام - عبر التاريخ - الذين حملوا كتاب الله ﷻ، وأوصلوه لنا من غير تحريف ولا تبديل، والذين كتبوا التاريخ بأحرف من دماء.
- ◀ إلى الخالدين من الشهداء، والذين فدوا بأرواحهم أرضنا الحبيبة فلسطين.
- ◀ إلى من كلله الله بالهيبة والوقار، إلى من علمني العطاء دون انتظار، إلى من أحمل اسمه بكل افتخار أرجو من الله أن يمد في عمره: (والدي العزيز).
- ◀ إلى من كان دُعاؤها سر نجاحي، وحنانها بلسم جراحي، والغالية على قلبي: (أمي العزيزة).
- ◀ إلى من حبهم يجري في عروقي، ويلهج بذكرهم فؤادي إلى إخوتي وأخواتي - رعاهم الله -.
- ◀ إلى كلِّ طالب علم، خاصة التفسير وعلوم القرآن الكريم.
- ◀ إلى كلِّ من حمل حرفاً وكلمةً وآيةً وسورةً من القرآن الكريم، بكل تقانٍ وأمانةٍ وإخلاصٍ لخدمة ونشر دين الله ﷻ.

إليهم جميعاً أهدي نختي هذا

شكرتقديري

الحمد لله الذي أسيع علينا نعمه قبل سؤالها، وحصننا على الشكر حذراً من زوالها، وانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْرِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [الأحقاف: 15]، ومن قول رسول الله ﷺ: "مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ"⁽¹⁾، أحمد الله ﷻ حمداً يليق بجلاله وجماله، وأثني عليه ثناءً يكافئ عطاءه الواسع؛ أن يسر لي جميع السبل لإتمام هذه الرسالة، وأصلي وأسلم على معلّمنا الأوّل، وشفيعنا محمد بن عبد الله ﷺ، وبعد:

اعترافاً بفضل أهل الفضل والعرفان من العلماء الأجلاء، واعترافاً بالجميل والامتنان، فإنه ليسرني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى فضيلة الأستاذ الدكتور: **عصام العبد زهد** - حفظه الله - لقبوله الإشراف على الرسالة، وعلى ما تكرم به من جهودٍ وتوجيهاتٍ قيّمةٍ، ونصائحٍ وإرشاداتٍ مفيدةٍ جعلت البحث يخرج بهذا الشكل، فأدعو الله ﷻ أن يجزيه خير الجزاء.

وأقدم عظيم شكري لعضوي لجنة المناقشة، لتلطّفهما بقبول مناقشة هذه الرسالة، وهما:

حفظه الله

الدكتور/ رياض محمود قاسم

حفظه الله

الدكتور/ سامي محمود أحمد

ولما سيبدلانه من جهودٍ لإبداء التعديلات التي تزيدها حسناً، وليثريها بملاحظاتهما القيّمة، وتوجيهاتهما السديدة؛ لتتنقيح الرسالة؛ حتى تخرج بإذن الله ﷻ بأفضل ما يكون، فجزاهم الله عني وعن المسلمين خير الجزاء.

والشكر موصولاً لجامعتي الغراء، الجامعة الإسلامية محضن العلماء ومنازة العلم بكافة دوائرها ومعلميها، وأخص بالذكر أساتذتي في كلية أصول الدين وخاصة قسم التفسير، والشكر أيضاً لعمادة الدراسات العليا بجميع كوادرها، ولكل من علمني منذ الصغر.

كما وأقدم شكري وامتناني لأهلي الذين كان لهم الدور في توفير الجو الملائم للدراسة وتشجيعهم الدائم، وأتقدم بخالص الشكر لأخي حسام، وزوج أختي: إيهاب شحادة لما بذلاه من جهود مباركة، وشكري موصول لكل من مد يد العون لي أو نصحني أو أعانني أو أسدى لي معروفاً، ولكل من ساهم في إخراج هذه الرسالة إلى حيّز النور، فجزاهم الله عني جميعاً خير الجزاء.

وأخيراً أسأل الله ﷻ أن يجعل هذا العمل مقبولاً، وأن ينفع به.

(1) سنن الترمذي 339/4، أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، حديث رقم: 1954،

[حكم الألباني: صحيح لغيره].

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وصلوات ربي وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين.

فإنَّ القرآن الكريم معجزة الله الخالدة، ورسالته الباقية للبشر، وهو أشرف كتاب، ومستودع الأسرار الإلهية، والإشارات الربانية، لذا عكف العلماء على خدمته ببيان علومه وتفسيره، وكل علم يتعلق بكتاب الله ﷺ يُعد من أجل العلوم، وأشرفها قدراً، وأعلاها منزلةً، وأسامها مكانةً، وما من حرف ولا لفظ في القرآن الكريم إلا لوجوده معنى، ولذلك يجب على طلاب العلم البحث والتحقيق والنهل من هذا البحر العظيم.

وما من حرف ولا لفظ في القرآن الكريم إلا لوجوده معنى، ولكل سورة من سوره أهداف ومقاصد، وهذا بدوره يدل على أن القرآن الكريم كلام الله المعجز، الذي أعجز العرب والعجم، ومن هنا أظهرت جهود العلماء عجز أهل الفصاحة والبلاغة عن محاكاة القرآن أو مضاهاته.

فجزى الله علماءنا الأفاضل خير الجزاء، واستكمالاً لجهودهم السابقة في إظهار هذه الجوانب الإعجازية والوقفات فقد وفقني الله لكتابة رسالتي بعنوان:

"الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف الحزب الحادي والعشرين من القرآن الكريم"

(سورة التوبة الآيات: 93 - 129، وسورة يونس الآيات: 1 - 25)

أولاً: أسباب اختيار البحث:

1. كتبت في هذا الموضوع؛ كونه ضمن الموسوعة التي أقرأها قسم التفسير وعلوم القرآن في كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية.
2. القرآن الكريم له دور كبير في حياتنا حيث إنه يهذب نفوسنا ويزكيها ويطهرها من الذنوب والخطايا، ويدفعنا نحو الفضائل ومحامد الأخلاق، فحين نفهم القرآن ونتعلمه ونعرف أحكامه ورسالته نكون أسعد الناس وأفضلهم، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: 24]
3. لأن القرآن يقوي الصلة بالله ﷻ، ويمنح الفوز برضاه.
4. خدمة الإسلام والمسلمين.

5. تشجيع أساتذتي في قسم التفسير وعلوم القرآن على البحث في هذا الموضوع وخوض غماره.

ثانياً: أهمية البحث :

تكمن أهمية هذا البحث في النقاط التالية :

1. تعلق موضوع هذه الدراسة بأشرف العلوم وأرفعها، وأجلّ الكتب وأكرمها، وهو القرآن الكريم.
2. يستمد هذا الموضوع أهميته كونه يبحث في التفسير التحليلي لمقاصد وأهداف الحزب الحادي والعشرين من القرآن الكريم من آية (93من سورة التوبة إلى الآية 25 من سورة يونس).
3. تتحدث سورة التوبة عن المنافقين وحكم الجهاد، والمسلمون عامة بأمس الحاجة لمعرفة مثل هذه الموضوعات وخاصة في فلسطين.

ثالثاً: أهداف البحث:

1. ابتغاء الأجر والثواب من الله ﷻ في الدنيا والآخرة، وذلك من أجل خدمة كتابه الكريم.
2. بيان أهمية التفسير التحليلي، وبيان المقاصد والأهداف الأساسية لسورة التوبة الآية (93-129)، وسورة يونس من أولها إلى الآية (25).
3. إثراء المكتبة الإسلامية بدراسة علمية محكمة تتناول موضوعاً جديداً تفنر إليه.
4. بيان الحكمة من ترتيب السور والآيات على الوجه الذي هو عليه، والاهتمام باستخراج المعاني والحكم ولطائف الفوائد التي لا يتوصل إليها إلا بالتماس الدراسة التحليلية.
5. صقل الخبرة الذاتية للباحثة بالدراسة التحليلية المعمقة الدقيقة لآيات الدراسة.

رابعاً: الدراسات السابقة:

بعد البحث والاستقصاء في مكتبة الجامعة الإسلامية، وعدد من المكتبات تبين أن موضوع بحثي في سورة التوبة من الآية (93 - 129) قد كُتب فيه رسالة ماجستير بعنوان: "مقاصد وأهداف سورة التوبة"، للباحث حسن الخطيب بالجامعة الإسلامية، ولكنها غير مرتبطة بالواقع ولم تتناول الجزئيات التي سأتناولها في دراسة وتحليل مقاصد وأهداف السورة، أما بالنسبة لسورة يونس فلم أقف على رسالة علمية تتناولها بالدراسة التحليلية.

خامساً: منهج الباحث:

اتبعت الباحثة المنهج التحليلي، والموضوعي في التفسير وكان العمل في البحث على النحو التالي:

1. تقسيم آيات الحزب الحادي والعشرين من سورتي التوبة ويونس إلى مباحث متنوعة في ثلاثة فصول جاعلة لكل مبحث آياته المناسبة له حسب موضوع آيات المبحث نفسه.
2. اعتمدت الباحثة المنهج التحليلي والموضوعي في التفسير، وذلك بوضع مقدمة لسورتي التوبة، ويونس، تبيين اسم السورة، ومكان وزمان نزولها، ومحورها الرئيس، وجو نزولها، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها.
3. تحديد واستتباط ما تحويه آيات كل مبحث من مقاصد وأهداف، وتحليلها وفق المنهج الموضوعي التحليلي، بما فيه من أدوات متعددة تخدم هذا المنهج: من علوم قرآن، وعلوم اللغة، وإعجاز القرآن، والسنة المطهرة وغيرها.
4. ربط هذه المقاصد والأهداف بواقع الأمة وحالتها، بقدر المستطاع بما يساهم في حل مشاكلها التي تعاني منها.
5. كتابة الآيات مُشكلة، وطبقاً للرسم العثماني برواية حفص عن عاصم، على مدار البحث مع عزوها إلى سورها، بذكر اسم السورة، ورقم الآية، وذلك كله في متن الدراسة، وليس في حواشي الصفحات؛ وذلك بهدف تخفيف الحواشي.
6. تخريج الأحاديث التي وردت في الرسالة تخريجاً علمياً، مع ذكر حكم العلماء عليها إن لم تكن في الصحيحين.
7. عمل تراجم للشخصيات والأعلام المغمورة الذين وردوا في الرسالة.
8. عزوت الأقوال المقتبسة لأصحابها بما يحقق الأمانة العلمية، مع توثيقها حسب الأصول، وإذا كنت استخلصت المعنى العام من الأقوال فأكتفي في الهامش بقول (يُنظر)، ثم ذكرت المراجع التي استفدت منها، ورجعت إليها.
9. اكتفيت في التوثيق بذكر اسم الكتاب، والمؤلف، ورقم المجلد إن وجد، أو الجزء والصفحة، وتركت مواصفات المرجع لقائمة المراجع، وذلك تخفيفاً للهاشية.
10. الرجوع إلى المراجع الأصلية من كتب التفسير بالمأثور والدرابية.
11. الرجوع إلى المعاجم اللغوية لبيان معاني المفردات الغريبة.
12. عمل الفهارس اللازمة للوصول إلى المعلومة بأسهل الطرق وأقربها.

13. ترتيب المصادر والمراجع على حسب الحروف الهجائية.

سادساً: خطة البحث:

وتحقيقاً للأهداف السابقة جاءت الخطة مكونة من: مقدمة، وفصل تمهيدي، وثلاثة فصول، وخاتمة:

المقدمة: تشتمل على العناصر الآتية:

أولاً: أسباب اختيار موضوع البحث.

ثانياً: أهمية موضوع البحث.

ثالثاً: أهداف البحث.

رابعاً: الدراسات السابقة.

خامساً: منهجية الباحث في بحثه.

سادساً: خطة البحث.

التمهيد:

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بالدراسة التحليلية والمقاصد والأهداف

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الدراسة التحليلية، وبيان متطلباتها.

أولاً: المقصود بالدراسة التحليلية.

ثانياً: متطلبات الدراسة التحليلية.

المطلب الثاني: تعريف المقاصد والأهداف، وبيان أهميتها.

أولاً: تعريف مقاصد وأهداف السور والآيات.

ثانياً: أهمية معرفة مقاصد وأهداف السور والآيات.

المطلب الثالث: طرق معرفة مقاصد السور، وأهم مصنفاتها.

أولاً: طرق معرفة مقاصد السور والآيات.

ثانياً: أهم المصنفات في مقاصد وأهداف السور والآيات.

المبحث الثاني: تعريف عام بسورتي التوبة، ويونس

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف عام بسورة التوبة:

أولاً: اسم السورة، وعدد آياتها، ومكان، وزمان نزولها.

ثانياً: جو نزول السورة.

ثالثاً: محور السورة وخطوطها الرئيسية.

رابعاً: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.

المطلب الثاني: تعريف عام بسورة يونس:

أولاً: اسم السورة، وعدد آياتها، ومكان، وزمان نزولها.

ثانياً: جو نزول السورة.

ثالثاً: محور السورة وخطوطها الرئيسية.

رابعاً: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.

الفصل الأول

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة التوبة من الآية (93 - 110)

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية (93 - 99)

المتخلفون عن غزوة تبوك من المنافقين والأعراب، وموقف الإسلام منهم

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: مؤاخذه المتخلفين الأغنياء عن الغزوة بغير عذر.

المطلب الثاني: اعتذار المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك.

المطلب الثالث: حلف المتخلفين عن غزوة تبوك الأيمان الكاذبة.

المطلب الرابع: موقف المسلمين من المنافقين المتخلفين عن الغزوة.

المطلب الخامس: كفر بعض الأعراب ونفاقهم.

المطلب السادس: حقيقة إيمان الأعراب.

المبحث الثاني: المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية (100 - 106)

الفئات الإيمانية المختلفة في المدينة

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: الطبقات الإيمانية في المجتمع المدني.

المطلب الثاني: جزاء المنافقين في المدينة ومن حولها.

المطلب الثالث: ندم بعض من تخلف عن الغزوة.

المطلب الرابع: حكم أخذ الصدقة.

المطلب الخامس: قبول التوبة والأمر بالعمل الصالح.

المطلب السادس: الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

المبحث الثالث: المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية (107 - 110)

مسجد الضرار ومسجد التقوى وموقف الرسول ﷺ منهن

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مسجد الضرار (المنافقين).

المطلب الثاني: مسجد التقوى (قباء).

المطلب الثالث: موقف الرسول ﷺ من مسجد الضرار، ورد فعل المنافقين.

الفصل الثاني

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة التوبة من الآية (111 - 129)

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية (111 - 119)

الولاء والبراء

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: صفات المؤمنين الصادقين.

المطلب الثاني: الولاء للمؤمنين، والبراء من المشركين.

المطلب الثالث: شروط المؤاخذة (العقاب) على الذنب.

المطلب الرابع: التوبة العامة وشروطها.

المطلب الخامس: التوبة الخاصة على الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك.

المبحث الثاني: المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية (120 - 123).

الجهاد في سبيل الله ﷻ

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: فريضة الجهاد على أهل المدينة والأعراب، وجزاؤه.

المطلب الثاني: الجهاد فرض كفاية، وطلب العلم فريضة.

المطلب الثالث: السياسة الحربية في قتال الكفار.

المبحث الثالث: المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية (124 - 129).

نزول القرآن على أمين الأنام

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تثبت قلوب المؤمنين عند نزول القرآن الكريم.

المطلب الثاني: موقف المنافقين من نزول السور القرآنية.

المطلب الثالث: صفات الرسول ﷺ ذات الصلة بأتمته.

الفصل الثالث

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة يونس من الآية (1 - 25)

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المقاصد والأهداف لسورة يونس من الآية (1 - 10)

القدرة الإلهية

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: الحروف المقطعة.

المطلب الثاني: إنكار العرب مهمة الرسول ﷺ.

المطلب الثالث: العبادة لخالق السموات والأرض.

المطلب الرابع: وعد الله حق.

المطلب الخامس: إثبات القدرة الإلهية في السنن الكونية.

المطلب السادس: المؤمن والكافر وعاقبة كل منهما.

المبحث الثاني: المقاصد والأهداف لسورة يونس من الآية (11 - 18)

سنن الله في الاستخلاف وموقف الناس منه

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: استعجال الإنسان الخير دائماً.

المطلب الثاني: أحوال البشر في الدعاء إذا مسهم الضرر.

المطلب الثالث: سنة الله في إهلاك الأمم الظالمة والكافرة، واستخلاف خلائف بعدهم.

المطلب الرابع: مطالبة المشركين الرسول ﷺ بقرآن آخر أو تبديل بعض آياته.

المطلب الخامس: عبادة المشركين للأصنام وادعاء شفاعتها.

المبحث الثالث: المقاصد والأهداف لسورة يونس من الآية (19 - 25)

حال المكذبين مع عدل رب العالمين

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: فطرة الله الناس على الدين الحق.

المطلب الثاني: مطالبة المشركين نزول آية كونية من رب العالمين.

المطلب الثالث: إنكار الفضل، وزوال الأجر.

المطلب الرابع: عادة الكفار المكر واللجاج، وعدم الإنصاف عند الإفراج.

المطلب الخامس: المثل البليغ للحياة الدنيا.

المطلب السادس: دعوة الله إلى دار السلامة، والهداية إلى طريق الاستقامة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات، متبعة بخمسة من الفهارس على النحو التالي:

1. فهرس الآيات القرآنية.

2. فهرس أطراف الأحاديث النبوية.

3. فهرس الأعلام المترجم لهم.

4. فهرس المصادر والمراجع.

5. فهرس المحتويات.

التمهيد

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بالدراسة التحليلية
والمقاصد والأهداف

المبحث الثاني: تعريف عام بسورتي التوبة،
ويونس

المبحث الأول

التعريف بالدراسة التحليلية

والمقاصد والأهداف

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الدراسة التحليلية، وبيان ومتطلباتها.

المطلب الثاني: تعريف المقاصد والأهداف، وبيان أهميتها.

المطلب الثالث: طرق معرفة مقاصد السور، وأهم مصنفاتها.

المطلب الأول

تعريف الدراسة التحليلية، وبيان ومتطلباتها

إذا نظرنا إلى هذا المصطلح نجد أنه مركبٌ يتكون من لفظين [الدراسة التحليلية]، لذا نرى واجباً علينا أن نُعرّف هذا المصطلح أولاً بصورته المنفردة ثم بصورته المركبة:

أولاً: المقصود بالدراسة التحليلية:

1. تعريف الدراسة لغةً:

هي مصدر الفعل (دَرَسَ)، ودُرِسَ الكتاب ونحوه أي قرأته لحفظه وفهمه، ودارست فلانا كتاباً لكي أحفظ، ودرس العلم على فلان أي تلقاه عنه وتتلّمذ على يديه، وأصل الدراسة الرياضة والتعهد للشيء⁽¹⁾، ودرستهُ الرياح أي عفته ومحته، ودرسه القوم: عفوا أثره.⁽²⁾

2. تعريف التحليلية لغةً:

مصدر من الفعل (حَلَّلَ)، وتقول: "حللت العقدة أحلّها حلاًّ إذا فتحتها فانحلت"⁽³⁾، والشّيء رجعه إلى عناصره يُقال حلّ الدّم، ويُقال حلّ نفسية فلان درسها لكشف خباياها.⁽⁴⁾ التحليل: مفرد وهو عملية تقسيم الكلّ إلى أجزائه وردّ الشّيء إلى عناصره.

وبحثٌ تحليليّ: "يتخذ التحليل أساساً"، وتحليل الجملة: "بيان أجزائها ووظيفة كلّ منها".⁽⁵⁾

3. تعريف الدراسة التحليلية اصطلاحاً:

تعريف الدراسة التحليلية القرآنية من وجهة نظر الباحثة أنها: عبارة عن تفكيك الآية إلى أجزاء، وتحليل كل ما صعب فهمه، والتعمق في أسرارها للوصول للهدف المنشود، ومعرفة المراد منه.

(1) ينظر: العين، الفراهيدي 7 / 227، ومعجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ص: 1227، وتحفة الأريب، أبو حيان ص: 127.

(2) ينظر: تاج العروس، مرتضى الزبيدي 16 / 64، ولسان العرب، ابن منظور 6 / 79.

(3) العين 3 / 27، والصاحح تاج اللغة، الفراهيدي 4 / 1672، ومعجم اللغة العربية المعاصرة 1 / 550.

(4) ينظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة 1 / 194، ومعجم اللغة العربية المعاصرة 1 / 550.

(5) معجم اللغة العربية المعاصرة 1 / 550.

ثانياً: متطلبات الدراسة التحليلية:

"البحث العلمي النزيه أساس المعرفة الحقة التي تعود على طلابها بالنفع، وثمرته من أشهى الأكل لغذاء الفكر وتنمية العقل، ولذلك فإن تهيؤ أسبابه لأي باحث أمر له اعتباره في نضج ثماره ودنو قطوفه، والبحث في العلوم الشرعية عامة وفي التفسير خاصة من أهم ما يجب الاعتناء به والتعرف على شروطه وآدابه، حتى يصفو مشربه، ويحفظ روعة الوحي وجلاله".⁽¹⁾

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف القرآن الكريم تتناول كلام الله ﷻ لبيان مراده، والغاية منه؛ لذلك يتعين على أي باحثٍ أو عاملٍ يخوض في غمار هذا المجال ويعيش معه أن تتوفر فيه متطلبات هذه الدراسة؛ لخدمة كتاب الله ﷻ.

وحتى تخرج هذه الدراسة كاملة ومتكاملة، تؤدي دورها ورسالتها، فإنها يجب أن تركز على عدة أمور منها:

1. متطلبات ذاتية مطلوبة في صاحب الدراسة:

أ. أن يكون صحيح العقيدة؛ لأن صحة العقيدة وسلامتها لها أثر كبير في نفس صاحبها، وما يحمله من أفكارٍ ومعتقداتٍ تظهر في كلامه منطوقاً ومكتوباً، ولا بد أن تؤثر على دراسته وأهدافه التي يستخلصها أثناء بحثه.

ب. التجرد من الهوى؛ لأنّ الأهواء تدفع أصحابها إلى نصرة مذاهبهم، وإثبات صحتها، والتعصب لها، ولو كانت على غير حق، فيغرون الناس بليين الكلام ولحن البيان.

ج. أن يكون سليم المقصد لينال التسديد، ويكون تقياً، مقبلاً على الطاعات، وقاطعاً لعلاقته مع المنكرات والمعاصي، ليحظى بتوفيق الله ﷻ، ويفتح عليه من بركاته، فهو يعمل في أجلّ المجالات وأعظمها.

د. حسن الخلق والتواضع ولين الجانب، فالتكبر يحول بين العالم والانتفاع بعلمه، فلو كان علمه نافعاً لنفعه.

هـ. تحري الصدق والضبط في النقل: فلا يتكلم أو يكتب إلا عن تثبت لما يروييه حتى يكون في مأمن من التصحيف واللحن.

(1) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص: 340.

و. أن يتحلى بالتأني والروية، فعليه أن يتأنى حتى يحسن في دراسته ويقويها، ولم بكل نافع مفيد، أيضاً ليحذر أن يسرد كلامه سرداً سريعاً لا يفهمه القارئ والمتلقي، بل عليه أن يفصل الكلام ويبينه ويوضحه فيكون مفهوماً.⁽¹⁾

2. متطلبات علمية مطلوبة في صاحب الدراسة:

- أ. العلم باللغة العربية وفروعها؛ فإن القرآن نزل بلسان عربي، ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، والمعاني التي تختلف باختلاف الإعراب، ومعرفة علوم البلاغة، إذ لا بد للمفسر من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يُدرك الإعجاز بهذه العلوم.
- ب. العلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن، فإن لها عظيم الأثر في هذه الدراسة والوصول بها إلى الأهداف المنشودة كعلم القراءات، وعلم التوحيد، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والمكي والمدني إلى غير ذلك.
- ج. علم الفقه لمعرفة الأحكام الشرعية العملية فيه وبيانها في محالها، وآراء المجتهدين فيه، والأخذ بما هو أقوى دليلاً والأحوط عنده.
- د. دقة الفهم التي تمكن المفسر من ترجيح معنى على آخر، أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة.
- هـ. أن يبدأ أولاً بتفسير القرآن بالقرآن، فما أجمل منه في موضع فإنه قد فصل في موضع آخر، وما اختصر منه في مكان فإنه قد بسط في مكان آخر.
- و. أن يطلب التفسير من السنة فإنها شارحة للقرآن موضحة له، وقد ذكر القرآن أن أحكام رسول الله ﷺ إنما تصدر منه عن طريق الله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتَكَ اللَّهُ ﴾ [النساء: 105]، وقال رسول الله ﷺ: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"⁽²⁾، المقصود به السنة، والأمثلة على أن السنة موضحة للقرآن كثيرة منها: تفسير (الظلم) بالشرك، وتفسير (الحساب اليسير) بالعرض.
- ز. إذا لم يجد التفسير من السنة رجع إلى أقوال الصحابة الذين شاهدوا النبي وعاشوه، وشاهدوا الأحوال التي نزلت فيها الآيات، فإذا لم يجد فيرجع إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وسعيد بن المسيب، وغيرهم من التابعين، الذين لقوا أصحاب النبي وتلقوا منهم.⁽³⁾

(1) ينظر: مباحث في علوم القرآن ص: 340-343.

(2) مسند الإمام أحمد بن حنبل 410/28، مسند الشاميين، باب: حديث المقداد بن معد يكرب الكندي، حديث رقم:

17174، [حكم الألباني: حديث مشهور صحيح].

(3) ينظر: مباحث في علوم القرآن ص: 340-342.

المطلب الثاني

تعريف بالمقاصد والأهداف وبيان أهميتها

أولاً: تعريف مقاصد وأهداف السور والآيات:

1. المقصد لغةً:

- أ. استقامة الطريقة: وَقَصَدَ يَقْصِدُ قَصْدًا فهو قاصد، وقوله ﷺ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: 9]؛ أي على الله تبيين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة.⁽¹⁾
- ب. العدل والوسط بين الطرفين: والقصد في الشيء يكون ضد الإفراط وهو ما بين الإسراف والتقتير، والقصد في المعيشة هي أن لا يسرف ولا يقتّر، يقال: فلان مقتصد في النفقة وقد اقتصد، واقتصد فلان في أمره أي استقام، وقصد في الأمر لم: يتجاوز فيه الحد، ورضي بالتوسط.⁽²⁾
- ج. الاعتماد والام، وإتيان شيء وأمه والتوجه والنهوض: تقول قصده يقصده قصداً وقصد له وأقصدني إليه الأمر⁽³⁾، وفي سر الصناعة لابن جني⁽⁴⁾: "أصل (ق ص د)، ومواقعها في كلام العرب: الاعتزام والتوجه والنهوض نحو الشيء، على اعتدال كان ذلك أو جور".⁽⁵⁾
- د. غاية وهدف: يقول أحمد مختار عمر في كتابه: "مَقْصِدٌ مفرد مقاصدٌ، وهو اسم مكان من قَصَدَ، قَصَدَ إِلَى، قَصَدَ فِي، قَصَدَ ل: "مَقْصِدِي مَكَّة"، وأيضاً بمعنى غاية، فحوى "مَقْصِدِي من فعل كذا مساعدته، ومقاصد الشريعة: الأهداف التي وضعت لها، ومقاصد الكلام: ما وراء السطور أو ما بينها".⁽⁶⁾

(1) ينظر: تاج العروس 9/ 35-36، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص: 310، والمعجم الوسيط 2/ 738، ولسان العرب 3/ 353، والعين 5/ 54.

(2) ينظر: لسان العرب 3/ 354، العين 5/ 55، وتاج العروس 9/ 36، والقاموس المحيط ص: 310.

(3) ينظر: تاج العروس 9/ 36، ولسان العرب 3/ 353، والقاموس المحيط ص: 310.

(4) عثمان بن جني الموصلي: أبو الفتح: من أئمة الأدب والنحو، وله شعر، ولد بالموصل وتوفي ببغداد عام (392 هـ - 1002 م)، عن نحو 65 عاماً، وكان أبوه مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي، من تصانيفه: رسالة في "

من نسب إلى أمه من الشعراء، وشرح ديوان المتنبّي، والمبهبج، والمحتسب. [ينظر: الأعلام، الزركلي 4/ 204].

(5) تاج العروس 9/ 36.

(6) معجم اللغة العربية المعاصرة ص: 2495.

2. المقصد اصطلاحاً:

للمقاصد عدة تعريفات اصطلاحية ذكرت في كتب العلماء المعاصرين وأبحاثهم، أما السابقين فلم يحددوا تعريفاً جامعاً مانعاً، ومن هذه التعريفات:

عرفها الإمام الشاطبي⁽¹⁾: "إنها كل المعاني الصلحية المقصودة من شرع الأحكام والمعاني الدلالية المقصودة من الخطاب التي تترتب عن تحقيق امتثال المكلف لأوامر الشريعة"⁽²⁾، وعرفها علّال الفارسي⁽³⁾: "الغاية والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من الأحكام"⁽⁴⁾.

تعريف ابن عاشور⁽⁵⁾: "المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة"⁽⁶⁾.

من خلال التعاريف السابقة لمقاصد الشريعة، يمكن تعريف مقاصد القرآن الكريم بأنها: معرفة المعاني المقصودة من كلام الله ﷻ، وكشف أسرار كتابه والغاية المقصودة منه.

3. الأهداف لغّة:

جمع هدف من أهدفت ودنوت منك، والاستقبال، والانتصاب من انتصب الأمر أي استوى واعتدل، ويقال: أهدف لي الشيء، وأهدف القوم، أي قربوا، فهو مُسْتَهْدَفٌ، والهدف: كل شيء عريض مرتفع وكل بناء مرتفع مشرف، وأهدف الشيء إذ انتصب، ومنه سُمي الغرض هدفاً، والهدف من الرجال الجسيم الطويل العنق العريض الألواح، وأهدف على النمل أي أشرق وأسرع،

(1) الشاطبي: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي: أصولي حافظ، من أهل غرناطة، كان من أئمة المالكية، من كتبه: "الموافقات في أصول الفقه"، "الاتفاق في علم الاشتقاق"، "أصول النحو"، الاعتصام في أصول الفقه"، توفي سنة 790هـ. [ينظر: الأعلام 1/75].

(2) نظرية المقاصد عند ابن عاشور، اسماعيل الحسني ص 115.

(3) علّال الفارسي: هو علّال أو - محمد علّال - بن عبد الواحد بن عبد السلام بن علّال بن عبد الله بن المجذوب الفاسي الفهري، زعيم وطني، من كبار الخطباء العلماء في المغرب، ولد بفاس سنة 1326هـ، وتعلم بالقرويين، وتولى وزارة الدولة للشؤون الإسلامية، ودرّس في كلية الحقوق، وصدرت له كتب منها: "دفاع عن الشريعة" و"مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها" وتوفي سنة 1394هـ. [ينظر: الأعلام 4/246-247].

(4) مقاصد الشريعة الإسلامية، علاء الفاسي ص: 7.

(5) محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، ولد وتوفي ودرس بها، عُين عام 1932 شيخاً للإسلام مالكي المذهب، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة، من أشهرها: مقاصد الشريعة الإسلامية، والتحرير والتنوير في تفسير القرآن. [ينظر: الأعلام 6/174].

(6) مقاصد الشريعة الإسلامية ص: 51.

وأهدف إليه لجا، والهدف ما يلجأ إليه⁽¹⁾، هدف إلى الأمر: جعله هدفاً وغرضاً يسعى إليه، هدف إلى مساعدة الفقراء، وتأتي بمعنى القصد.⁽²⁾

4. الأهداف اصطلاحاً:

يوجد تعريفات متعددة للأهداف اصطلاحاً، ونحن في هذه الدراسة لسنا بصدد الحديث عن تعريف الأهداف من الناحية التعليمية، فيوجد لكل تخصص من مجالات العلم المختلفة أهدافه الخاصة به، وبناءً عليه يتم تعريف الأهداف، ونحن بصدد الحديث عن الأهداف من ناحية التربية الدينية، ومن خلال البحث وجدت أقرب التعاريف هي: "الأهداف التي شرعت الأحكام لتحقيقها وتنفيذها، وأهداف الشارع هي المصالح التي تعود إلى العباد في دنياهم وآخرتهم، سواء كان تحصيلها عن طريق جلب المصالح أو درء المفسد".⁽³⁾

ثانياً: أهمية معرفة مقاصد وأهداف السور والآيات:

أنزل الله ﷻ القرآن لهداية الناس، وإرشادهم إلى الطريق المستقيم، هذه الهداية لا تتحقق إلا بالتأمل الدقيق في نصوصه، ومن هنا يأتي علم مقاصد وأهداف السور، فهو علم عظيم الصلة بالقرآن الكريم الذي يعتبر أول مصدر من مصادر التشريع، وأساس الأحكام.

هذا العلم يراد منه الوقوف على الأغراض والمعاني والموضوعات الرئيسية التي تدور عليها السور والآيات، فلذلك تبرز أهمية هذا العلم فيما يلي:

1. علم مقاصد السور راجعٌ إلى بيان المقصد من إنزال القرآن كله، وهو التدبير والهداية كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص:29]، فالله ﷻ أمرنا بالتدبر والتمعن لمعرفة مراده تعالى من كلامه ثم العمل بمقتضاه، قال الإمام الشاطبي: " فإن كل عاقل يعلم أن مقصود الخطاب ليس هو التفقه في العبارة، وإنما التفقه في معرفة المراد به، وهذا لا يرتاب فيه عاقل"⁽⁴⁾، فمقاصد السور تعين على فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً، والتبهر في آياته ودلالاته.

(1) ينظر: معجم مقاييس اللغة، الرازي 39/6، والمعجم الوسيط 977/2، لسان العرب 4633/6 - 4634.

(2) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة 3/2333.

(3) المقاصد العامة للشريعة، يوسف حامد العلم ص: 79.

(4) الموافقات، الشاطبي 4/262.

2. بها تنتظم آيات السورة، وتظهر المناسبات بين آياتها، فتكون لحمَةً واحدةً يجمعها معنى واحد" أن من عرف المراد من اسم السور عرف مقصودها، ومن حقق المقصود منها، عرف تناسب آيها، وقصصها، وجميع أجزائها".⁽¹⁾
3. علم المقاصد يبرز إعجاز القرآن وبلاغته، فإن السور في وحدة بنائها وتناسقها في قمة الإعجاز والبلاغة؛ لذلك تحدى الله ﷻ العرب بأن يأتوا بسورة من مثله، "فالقرآن الكريم تقرأه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال ... يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة، وعقد فريد يأخذ بالأبصار".⁽²⁾
4. أن مقصد السورة هو أصل معانيها التي ترجع إليه، فهو أصلٌ في فهم معاني كلام الله تعالى.
5. معرفة مقاصد السور سبيل للسلامة من الخطأ أو تفسير كلام الله تعالى على غير مراده.
6. تفسير القرآن باعتبار مقاصد السور يجعل كلام الله ﷻ مؤتلفاً منتظماً على نحو كمال نظمه ومعانيه، وتكون السورة معه كالبناء المرصوص، وكالعقد المتناسق.
7. أن هذا العلم يرسخ الإيمان، ويُنير القلب، وتقرُّ به العين.
8. ربط الآيات بالواقع يتحقق بمعرفة علم مقاصد السور، والتدبر في مقصد السورة والتعمق يزيد من تفاعل المفسر والدارس، ويساعده على التطبيق.
9. إدراك المقاصد يساعد الدعاة والباحثين على الفهم الصحيح لغايات كلام رب العالمين وتحقيق أهدافهم، فلا ينشغلون بالمظاهر الفارغة الجوفاء، ويحفظهم من الزلل والاعوجاج.⁽³⁾

(1) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي 1/ 149.

(2) الأساس في التفسير، لسعيد حوى 1/ 25.

(3) ينظر: علم مقاصد السور، محمد عبد الله ربيعة ص 11- 13.

المطلب الثالث

طرق معرفة مقاصد السور، وأهم مصنفاتها

أولاً: طرق معرفة مقاصد السور والآيات:

أمرنا الله ﷻ بالتدبر في آيات كتابه العزيز، وذلك لهدف عظيم، يغفل عنه كثير من الناس، وهو أن نفهم أهداف القرآن الكريم، والسبب الذي أنزل لأجله، وأن ندرك مقاصده وأن نفهم مراده، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والتنبيه على مقاصد الشريعة وما فيها من إخلاص الدين لله ﷻ وعبادته وحده لا شريك له وما سدته من الذريعة إلى الشرك دقّه وجلّه فإن هذا هو أصل الدين وحقيقة دين المرسلين وتوحيد رب العالمين".⁽¹⁾

نستطيع أن نتعرف على مقاصد السور والآيات وأن نستكشف دلائلها من عدة مصادر:

أ. القرآن الكريم:

هو المصدر الأول لمعرفة مقاصد وأهداف السور والآيات، فهو الطريق السريع الذي يوصلنا لذلك، فمقاصد الشرع تعرف أولاً بكتاب الله ﷻ، قال الشاطبي: "نصوص الشارع مفهومة لمقاصده؛ بل هي أول ما يتلقى منه فهم المقاصد الشرعية"⁽²⁾، وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة تبين لنا أنه المرشد الأول في معرفة المقاصد والأهداف نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

- وضح القرآن الكريم الحكمة والمقصد من إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، والحكمة من إنزال الكتب السماوية فقال الله ﷻ: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165].
- ذكّر القرآن الحكمة والغاية من خلق الإنسان، وهي تحقيق العبودية لله ﷻ، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].
- عندما أمرنا الله ﷻ بالصلاة بيّن لنا المقصد والحكمة من ذلك فقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45].
- ذكر الله ﷻ المقصد من فرضية الصيام فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلِكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183].

(1) تهذيب اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية 385/2.

(2) الموافقات: 125/3.

الأمثلة التي ذكرت في القرآن الكريم كثيرة ومتعددة، ويتبين لنا أن القرآن الكريم المصدر الأول في مراعاة الشريعة للمقاصد ومصالح العباد.

ب. السنة النبوية الشريفة:

تعتبر المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ونجد أن النبي ﷺ له بعض الأقوال والآثار الواردة في فضائل السور والآيات بما يؤكد على أن عظم فضل هذه السور والآيات منبثق من عظم مقاصدها وأهدافها، فعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة".⁽¹⁾

يتبين من هذا الحديث أن هناك مقصداً عظيماً من تلاوة سورة البقرة بأنها حرز من الشيطان، وخاصة في بيوتنا التي تشكو من عدم الاستقرار، وقلوبنا التي يسكن فيها القلق والاضطراب وعدم الاطمئنان، فتأتي هذه السورة بمثابة علاج ووقاية للبيوت والقلوب.

من الملاحظ أن النبي ﷺ عندما يبين فضل السورة ومكانتها، إنما يدل ذلك على عظيم مقصدها، وأن أفضلية هذه السورة إنما بما تحققه من مقاصد وغايات.

والأمثلة على ذلك في السنة النبوية كثيرة يصعب حصرها.

ج. الآثار الواردة عن السلف:

مما يستعان به على معرفة مقاصد وأهداف السور والآيات ما ورد عن سلفنا الصالح من التعبير عن السورة باسم أو وصف أو غرض يبين مقصودها، ومن أمثلة ذلك: أن سورة "التوبة" والتي سأقوم بدراستها خلال رسالتي تسمى بعدة أسماء منها: "الفاضحة"؛ وسميت بذلك لأنها كشفت خبايا المنافقين، يقول ابن عاشور في حديثه عن سورة التوبة "ولهذه السورة أسماء أخر، وقعت في كلام السلف، من الصحابة والتابعين، فروي عن ابن عمر، وابن عباس ؓ: كنا ندعوها-سورة براءة- (المقشقة)، من قشقه إذا أبراه من المرض، وكان هذا لقباً لها ولسورة "الكافرون"؛ لأنهما تخلصان من آمن بما فيهما من النفاق والشرك، لما فيهما من الدعاء إلى الإخلاص، ولما فيهما من وصف أحوال المنافقين"⁽²⁾، فجاء الوصف لهذه السورة

(1) صحيح مسلم 539/1، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته، حديث رقم: 780.

(2) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور 95/10.

من خلال مقصودها وهو الحديث عن المناقنين وكشف خباياهم وتوضيح وبيان أوصافهم وكثرة ما ورد فيها من نشر فضائهم.

ثانياً: أهم المصنفات في مقاصد وأهداف السور والآيات:

كتب كثيرٌ من العلماء والمفسرين في علم المقاصد، ولكن منهم من أشار إليه من غير تصريحٍ بلفظ الغرض أو المقصد، وهذا الصنف ظهر في المتقدمين من المفسرين، وبعد ذلك بدأ التصريح بذكر مقصد السورة من بعض المفسرون والعلماء الذين عنوا بهذا العلم وسلكوا به منهجاً، وبناءً على ذلك يمكن تقسيم المفسرين في العناية بهذا العلم إلى الآتي:

1. المفسرون والعلماء الذين صرحوا بمقصد السورة، وكان لهم عناية في هذا العلم، من غير أن يكون لهم تصريح محدد في ذلك من هؤلاء:

أ. الزمخشري: "الكشاف عن حقائق التنزيل"

ب. الشاطبي: في كتاب "الموافقات"

2. المفسرون والعلماء الذين عنوا بعلم مقاصد السور وسلكوا فيه منهجاً في تفاسيرهم، ومن هؤلاء:

أ. الفيروز أبادي: في كتابه "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز".

ب. البقاعي: في كتابه: "مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور"، و"نظم الدرر في تناسب الآيات والسور".

ج. ابن عاشور: كتابه "التحرير والتنوير".

د. سيد قطب: في كتابه "في ظلال القرآن".

هـ. وهبة الزحيلي: في كتابه "التفسير المنير".

و. تفسير الشيخ أحمد مصطفى المراغي.

ز. الشيخ صالح آل الشيخ: "مقاصد السور وأثر ذلك في فهم التفسير".

ح. محمد متولي الشعراوي في خواطره.

المبحث الثاني

تعريف عام بسورتي التوبة ويونس

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف عام بسورة التوبة

المطلب الثاني: تعريف عام بسورة يونس

المطلب الأول

تعريف عام بسورة التوبة

وفيه النقاط التالية:

أولاً: اسم السورة، وترتيبها، وعدد آياتها:

1. اسم السورة:

سورة التوبة، وسميت بذلك لأن فيها التوبة على المؤمنين، وسورة براءة لأنها بدأت بالبراءة من المشركين.

ولها أسماء كثيرة وعديدة، منها:

- الفاضحة: لما تضمنته من ذكر أسرار المنافقين وأنبأهم، وما في قلوبهم من الكفر وسوء النيات، حتى كادت أن لا تدع أحداً، وعن ابن عباس رضي الله عنه في هذه السورة قال: "إنها الفاضحة ما زالت تنزل فيهم، وتنال منهم، حتى خشينا ألا تدع أحداً".⁽¹⁾
- المخزية: لكونها أخزت المنافقين.
- المدممة: لأنها تدمم عليهم.⁽²⁾
- البحوث: لأنها تبحث عن أسرار المنافقين.
- المبعثرة، والبعثرة: تبعثر عن أسرار المنافقين تبحث وتحفر عنها وتثيرها.
- المُقشقة: لكونها تقشقش من النفاق، أي تبرئ منه.
- الحافرة: لكونها تحفر عن قلوب أهل النفاق.
- المُنكِّلة: لما فيها من التكيل لهم.⁽³⁾
- العذاب: لأن فيها التوبة على المؤمنين، والبراءة من النفاق.⁽⁴⁾

(1) ينظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي 91 / 10، وتفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته 9 / 1798-1799، والجواهر المضية، النجدي ص: 13.

(2) ينظر: فتح القدير، الشوكاني 2 / 378، وتفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي 10 / 50، والتفسير المنير 10 / 91.

(3) ينظر: وفتح القدير 2 / 378، والتفسير المنير 10 / 91،

(4) ينظر: وإرشاد العقل السليم، أبو السعود 39/4، والكشاف، الزمخشري 2 / 241، وفي رحاب التفسير، عبد الحميد كشك 2 / 1510.

- المؤثرة: لأنها أثارت مخازي المناققين، ولكونها تثير أسرارهم.⁽¹⁾
- المهلكة.

- المُشْرِدة: عظيمة المناسبة مع ذلك لما أشارت إليه في سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿فَشَرِدَ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأنفال: 57].⁽²⁾

وهكذا ترى الباحثة أن كثرة الأسماء لسورة التوبة تدل على أهمية ما تضمنته السورة من مواضيع كثيرة، فهي تعالج قضايا عديدة حصلت في المجتمع المدني.

2. ترتيب السورة في المصحف:

"هي السورة التاسعة في ترتيب المصحف الشريف".⁽³⁾

3. عدد آياتها:

لقد اختلف المفسرون في عدد آيات سورة التوبة على قولين، كالتالي:

أولاً: أن عدد آيات سورة التوبة ثلاثون ومائة.⁽⁴⁾

ثانياً: أن عدد آيات السورة تسع وعشرون ومائة.⁽⁵⁾

ثانياً: مكان، وزمان نزولها:

1. مكان نزولها:

اختلف العلماء: هل كل آيات السورة مدنية، أم أن بعضها مكّي، كالتالي:

أ. نزلت سورة التوبة بالمدينة، وقال القرطبي: "مدنية باتفاق".⁽⁶⁾

(1) ينظر: فتح القدير 2 / 378، والجواهر المضوية ص: 13، زاد المسير، الجوزي 2/230، ودرج الدرر، الجرجاني 2 / 857.

(2) ينظر: نظم الدرر، البقاعي 3 / 255.

(3) تفسير القرآن الكريم 9 / 1800.

(4) ينظر: نظم الدرر 3 / 255، وروح البيان، أبو الفداء 3/381، وتفسير المراغي 10 / 50، وأيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري 2 / 335،

(5) ينظر: فتح القدير 2 / 378، وفي ظلال القرآن، السيد قطب 3 / 1564، والتفسير الواضح، الحجازي 1/850، والكشاف 2/241، وزهرة التفاسير، أبي زهرة 6 / 3211، والتسهيل لعلوم التنزيل، الغرناطي 1/331.

(6) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 8 / 61، وأيسر التفاسير 2 / 335، وبحر العلوم، السمرقندي 2 / 37، وروح البيان 3/381.

ب. أن سورة التوبة مدنية إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان.⁽¹⁾

الراجح: يقول الدكتور فضل عباس: "أن سورة التوبة مدنية بدليل سياق الآيات التي وردت فيها"⁽²⁾، وهذا ما ارتأته الباحثة، وذلك لأنها تميزت بالحديث عن المنافقين، وهذه الشريحة لم تكن موجودة في مكة، ولكنها تواجدت بشكل كبير وانتشرت في المدينة، وكذلك تناولها لأحكام القتال في سبيل الله ﷻ، وهذا من خصائص السور المدنية.

2. زمان نزولها:

"أول السورة نزل سنة تسع بعد فتح مكة، فأرسل النبي ﷺ علياً ﷺ ليقراها على المشركين في موسم الحج".⁽³⁾

عن البراء بن عازب ﷺ قال: " آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: 176]، وآخر سورة نزلت براءة".⁽⁴⁾

بعد ذلك نزل معظم سورة التوبة بعد غزوة تبوك، وهي آخر غزوات النبي ﷺ، وهذا في السنة التاسعة من الهجرة أيضاً.⁽⁵⁾

ما تراه الباحثة وما أجمع عليه معظم العلماء أن آخر ما نزل من القرآن الكريم ما ورد في سور البقرة قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281]

ثالثاً: جو نزول السورة:

كان الاستعداد لغزوة تبوك وقت القيظ زمن العسرة، وفي أثنائها ظهر من علامات نفاق المنافقين ما كان خفياً من قبل، والسورة من آخر ما نزل من القرآن الكريم، وفي آخر غزوات الرسول ﷺ، حيث إنه خرج فيها لغزو الروم، والحر شديد، وحينها طابت الثمار، فكانت ابتلاء لإيمان المؤمنين، واقتضاحاً لنفاق المنافقين.⁽⁶⁾

(1) ينظر: الكشف 2/ 241، وزهرة التفاسير 6/ 3211، والموسوعة القرآنية، الأبياري 1/ 338، التسهيل لعلوم التنزيل 331/1.

(2) إتيان البرهان، فضل حسن عباس 1/ 383.

(3) تفسير المراغي 10/ 50.

(4) صحيح البخاري 6/ 64، كتاب، تفسير القرآن، باب: بَابُ قَوْلِهِ: ﴿بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: 1]، حديث رقم: 4654.

(5) ينظر: تفسير المراغي 10/ 50، والتفسير المنير 10/ 93.

(6) ينظر: التفسير المنير 10/ 93.

رابعاً: محور السورة وخطوطها الرئيسية:

1. بيان القانون الأساسي الذي تشاد عليه دولة الإسلام، بالتمييز النهائي بين المسلمين والمشركين العرب؛ وذلك لتحديد علاقة المسلمين بأعدائهم في آخر عهد النبوة، ونبذ عهود الذين لم يوفوا بعهودهم بإلغاء معاهدتهم، ومنعهم الحج، وتأكيد قطع الولاية بينهم وبين المسلمين، وبوضع الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في جزيرة العرب، وإباحة التعامل معهم.⁽¹⁾
2. إظهار ما كانت عليه نفوس أتباع الرسول ﷺ حينما استنفرهم، ودعاهم إلى غزو الروم.
3. تناولت السورة (الطابور الخامس) المندس بين صفوف المسلمين ألا وهم (المنافقين) الذين هم أشد خطراً من المشركين، فضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيهم، التي كانوا عليها، وظلّت تقذفهم الحمم حتى لم تُبق منهم دياراً، فقد وصل الكيد في التآمر على الإسلام، أن يتخذوا بيوت الله ﷻ أوكاراً للتخريب والتدمير، وإلقاء الفتنة بين صفوف المسلمين.⁽²⁾

خامساً: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها:

1. مناسبة السورة لما قبلها:

يوجد تناسب بين سورة التوبة والسورة السابقة لها سورة الأنفال، فإنه أظهر من التناسب بين سائر السور بعضها مع بعض، فهي كالمتممة لسورة الأنفال في معظم ما فيها من أصول الدين وفروعه، والسنن الإلهية والتشريع وجعله في أحكام القتال، وما يتعلق به من الاستعداد له، وأسباب النصر فيه، وغير ذلك من الأمور الروحية والمالية، وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضي له، وأحكام الولاية في الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض، والكافرين بعضهم مع بعض، كذا أحوال المؤمنين الصادقين والكفار والمذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب، فما بدأ به في الأولى أتم في الثانية، ولولا أن أمر القرآن الكريم في سوره ومقاديرها موقوف على النص لكان الذي ذكرناه مؤيداً من جهة المعاني لمن قال إنهما سورة واحدة، كما يؤيده من ناحية ترتيب السور بحسب طولها وقصرها، وتوالي السبع الطوال منها، ويليهما المئون والأنفال دونها.⁽³⁾

(1) ينظر: تفسير القرآن الكريم 9/ 1800، والموسوعة القرآنية 3/ 237.

(2) ينظر: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني 1/ 518.

(3) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد 10/ 132، وتفسير المراغي 10/ 50.

من الأمثلة على الترابط والمناسبة بين السورتين ما يأتي:

- أ. أن العهود ذكرت في سورة الأنفال، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها، ولا سيما نبذها الذي قيد في الأولى بخوف خيانة الأعداء.
 - ب. تفصيل الكلام في قتال المشركين، وأهل الكتاب في كل منهما.
 - ج. ذكر في الأولى صد المشركين عن المسجد الحرام، وأنهم ليسوا بأوليائه.
 - د. ذكر في الأولى الترغيب في إنفاق المال في سبيل الله ﷻ، وجاء مثل هذا الترغيب بأبلغ من ذلك وأوسع في الثانية، وذكرت في الأولى مصارف الغنائم، وفي الثانية مصارف الصدقات.⁽¹⁾
 - هـ. ورد ذكر المنافقين والذين في قلوبهم مرض في الأولى في آية واحدة، وفصل في الثانية أوسع تفصيل، حتى كانت أجدر بأن تسمى سورة (المنافقون) لو كانت تسمية السور بالرأي.⁽²⁾
 - و. ذكر في أول الأولى صفات المؤمنين الكاملين، وذكر بعد ذلك بعض صفات الكافرين، ثم ذكر في آخرها حكم الولاية بين كل من الفريقين كما تقدم، وجاء في الثانية مثل هذا في مواضع أيضاً.⁽³⁾
 - ز. سورة الأنفال تحكي جهاد المسلمين في غزوة بدر، وسورة التوبة تصف جهاد المسلمين في معركة تبوك.⁽⁴⁾
 - ح. بالرغم من هذا الشبه الموضوعي بين السورتين، وأنهما تُدعيان القرينتين، وأنهما نزلتا في القتال، فإنهما في الأصح سورتان مستقلتان، فليست براءة جزءاً من الأنفال، بدليل كثرة أسمائها المميزة لها، وفصلها عما سبقها، واستقر على ذلك ترتيب السور والآيات، وتناقل المسلمون هذا الفصل في المصحف من عهد الصحابة ﷺ لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان ﷺ.⁽⁵⁾
- قال عثمان ﷺ: "قبض رسول الله ﷺ، ولم يبين لنا أنها منها"، وفي قوله هذا دليل على أن السور كلها انتظمت بقوله وتبينه، وأن براءة وحدها ضمت إلى الأنفال من غير عهد من النبي ﷺ لما عاجله من الحمام قبل تبينه ذلك، وكاننا تدعيان القرينتين، فوجب أن تجمعاً، وتضم إحداهما إلى الأخرى للوصف الذي لزمهما من الاقتران، ورسول الله ﷺ حي".⁽⁶⁾

(1) ينظر: الكشاف 2/241، وتفسير المراغي 10/51، وتفسير المنار 10/133.

(2) ينظر: تفسير المراغي 10/51، وتفسير المنار 10/133.

(3) ينظر: تفسير المنار 10/133.

(4) تفسير القرآن الكريم 9/1799.

(5) التفسير المنير 10/93.

(6) ينظر: تفسير القرطبي 8/63.

2. مناسبة السورة لما بعدها:

وجه مناسبة السورة لما بعدها وهي سورة يونس عليه السلام أن سورة التوبة ختمت بذكر رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وأُفتتحت بها سورة يونس عليه السلام، وأنَّ جَلَّ تلك في أحوال المنافقين، وما كانوا يقولونه، ويفعلونه حين نزول القرآن الكريم، وهذه في أحوال الكفار، وما كانوا يقولونه في القرآن.⁽¹⁾

(1) ينظر: تفسير المراغي 11 / 58.

المطلب الثاني تعريف عام بسورة يونس

وفيه النقاط التالية:

أولاً: اسم السورة، وترتيب السورة في المصحف، وعدد آياتها، وهو كالتالي:

1. اسم السورة:

سميت سورة يونس عليه السلام في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة النبوية الشريفة بهذا الاسم بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعرف لها اسم آخر. (1)

وجه تسميتها بهذا الاسم - سورة يونس - لأنها انفردت بذكر قصة نبي الله يونس عليه السلام فيها، وهي قصة مثيرة، سواء بالنسبة لشخصه الذي تعرض للانتقام الحوت له، أو بالنسبة لما اختص به قومه من بين سائر الأمم، يرفع الله تعالى العذاب عنهم حين آمنوا وتابوا بصدق (2)، وذلك بعد أن كاد أن يحل بهم البلاء والعذاب، وهذا من الخصائص التي خص الله تعالى بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم. (3)

2. ترتيب السورة في المصحف:

سورة يونس هي السورة الحادية والخمسون في ترتيب نزول سور القرآن الكريم، نزلت بعد سورة بني إسرائيل وقبل سورة هود (4)، وهي السورة العاشرة في ترتيب سور القرآن الكريم في المصحف الشريف.

3. عدد آياتها:

عدد آيات سورة يونس مائة وتسع آيات. (5)

يقول الشيخ كشك في كتابه: " بأن عدد آيات سورة يونس عليه السلام مائة وعشر عند الشاميين، وتسع عند الباقيين".

(1) ينظر: التفسير المنير 93 / 11.

(2) ينظر: في رحاب التفسير مج2 / 1628، وتفسير القرآن الكريم 2022/11، والموسوعة القرآنية 4 / 3.

(3) ينظر: صفوة التفاسير 572/1.

(4) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي 41 / 1، والبرهان في علوم القرآن، الزركشي 193 / 1.

(5) ينظر: بحر العلوم 102 / 2، والكشف والبيان، أبو إسحاق 116 / 5، وأنوار التنزيل، البيضاوي 104 / 3، التفسير المنير

ثانياً: مكان وزمان نزول السورة:

1. مكان نزولها:

اختلف العلماء في تحديد مكية سورة يونس أو مدنيتهما على قولين:

أ. سورة يونس عليه السلام مكية⁽¹⁾، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "نزلت سورة يونس بمكة".⁽²⁾

ب. يوجد بعض الأقوال بأن سورة يونس عليه السلام مكية إلا ثلاث آيات مدنية من قوله تعالى:

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: 94]، إلى آخرهن.⁽³⁾

سورة يونس عليه السلام مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر.

قال مقاتل⁽⁴⁾: إلا آيتين وهي قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ﴾ نزلت بالمدينة.

قالت فرقة: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة، وباقيها بالمدينة.⁽⁵⁾

الراجح: أن سورة يونس عليه السلام مكية بدليل سياق الآيات التي وردت فيها⁽⁶⁾ حيث إنها تميزت بالحديث عن الأهداف الكبرى والسامية للقرآن الكريم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وهي إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والبعث والميعاد، وهدم الشرك وأهله، والدعوة للإيمان بالله صلى الله عليه وسلم، وبالرسالات السماوية السابقة، وهذه من خصائص وسمات السور المكية.

(1) ينظر: التفسير المنير 11/ 93، وبحر العلوم 2/ 102، وصفوة التفاسير 1/ 572، والكشف والبيان 5/ 116، وأنوار التنزيل 3/ 104.

(2) فتح القدير 2/ 479.

(3) ينظر: معالم التنزيل، البغوي 2/ 409.

(4) **مقاتل بن حيان:** إمام عالم محدث الثقة، كنيته أبو إسحاق النبطي، البلخي، كان خرازاً، له حديث في (صحيح مسلم)، وكان من العلماء العاملين، ذا نسك وفضل، يروي عن قتادة وشهر بن حوشب والعراقيين، وروى عنه علقمة بن مرثد ويكير بن معروف، هرب من خراسان أيام أبي مسلم الخراساني صاحب الدولة، إلى بلاد كابل، فدعاهم إلى الله، فأسلم على يده خلق ووفد على عمر بن عبد العزيز، توفي بكابل في حدود الخمسين ومائة. [ينظر: الثقات، ابن حبان 7/ 508، مختصر تاريخ دمشق، ابن عساكر 25/ 195، طبقات الحفاظ، السيوطي 83].

(5) ينظر: تفسير القرطبي 8/ 304.

(6) ينظر: إتيان البرهان 1/ 384.

2. زمان نزولها:

نزلت السورة بين رحلة الإسراء والمعراج والهجرة النبوية الشريفة، وكان الإسراء قبل الهجرة بثلاث سنوات، وهي آخر ما نزل من القرآن الكريم بمكة المكرمة.⁽¹⁾

ثالثاً: جو نزول السورة:

نزلت سورة يونس عليه السلام بعد سورة الإسراء، حينما حمى الجدل من المشركين حول صدق الوحي، وحول القرآن الكريم، وما يواجههم به من تسفيه لعقائدهم، ومن تنديد بجاهليتهم، ومن كشف لما في كيانهما من تناقض واضح بين ما يعتقدونه من أن الله ﷻ هو الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر المتصرف في كل شيء، القادر على كل شيء، وبين ما يدعونه الله ﷻ من الولد، حيث كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله ﷻ، ويتخذونهم شفعاء عند الله ﷻ، ويعبدون تماثيلهم من الأصنام على هذا الاعتبار! ثم ما ينشأ عن هذا الاضطراب العقدي من آثار في حياتهم وفي أوله ما كان يزاوله الكهان والرؤساء فيهم من تحريم وتحليل في الثمار والأنعام وجعل نصيباً منها لله ﷻ، ونصيباً لآلهتهم المدعاة!، وعندئذ كانوا يواجهون حملة القرآن على عقائدهم المهلهلة وجاهليتهم المتناقضة، بأن يكذبوا رسول الله ﷺ في نبوته، والوحي إليه من ربه، ويزعمون أنه ساحر! وأن يطلبوا منه أن يأتيهم بخارقة تدل على أن الله ﷻ أوحى إليه ويفتتون في طلب هذه الخوارق على ما ورد من ذلك في سورة يونس مما حكاها القرآن الكريم عنهم في قوله تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [يونس: 20].

كذلك كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بقرآن غير هذا، لا يتعرض لآلهتهم وعقائدهم وجاهليتهم كي يستجيبوا له ويؤمنوا به!، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُمَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِشْرَاءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس: 15].⁽²⁾

رابعاً: محور السورة وخطوطها الرئيسية:

يقول جعفر شرف الدين: " موضوعات هذه السورة هي موضوعات السور المكيّة الغالبة، وهي الجدل حول مسائل العقيدة والتوجيه إلى آيات الله الكونية، وسنن الله في الأرض، والعظة بالقرون الخوالي ومصائرهما، وعرض بعض القصص من هذا الجانب الذي تبرز فيه العظة

(1) ينظر: تفسير القرآن الكريم 2022 / 11، والموسوعة القرآنية خصائص السور، جعفر شرف الدين 3 / 4.

(2) ينظر: في ظلال القرآن 3 / 1751 - 1752.

واللمسات الوجدانية، التي تنتقل بالإنسان من آيات الله في الكون إلى آياته في النفس، إلى مشاهد القيامة المؤثرة، إلى قصص الماضين ومصائرهم، كأنها جميعاً حاضرة معروضة للأنتظار".

ويقول: "إنَّ هذه السورة تتضمن شيئاً من هذا كله، وينتقل السياق فيها من غرض إلى غرض، بمناسبات ظاهرة أو خفية بين مقاطعها، ولكن جوهرها كلّها هو هذا الجوّ، حتّى ليصعب الفصل بين مقطع ومقطع فيها، في أغلب الأحيان".⁽¹⁾

كذلك هدم الشرك، وإثبات النبوة والبعث والمعاد، والدعوة للإيمان بالرسالات السماوية وخاتمتها القرآن العظيم، وهي موضوعات السور المكية عادة.⁽²⁾

خامساً: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها:

1. مناسبتها لما قبلها:

سورة التوبة ختمت بذكر رسالة النبي ﷺ، واختتمت بها سورة يونس، وبدئت هذه السورة بتبديد الشكوك والأوهام نحو إنزال الوحي على الرسول ﷺ، للتبشير والإنذار، وكانت أغلبية آيات السورة المتقدمة في أحوال المنافقين وموقفهم من القرآن الكريم، وهذه في أحوال الكفار والمشركين وقولهم في القرآن، فالإتصال بالسورة المتقدمة واضح، فقد ذكرت أوصاف الرسول ﷺ التي تستدعي الإيمان به، ثم ذكر هنا الكتاب الذي أنزل، والنبي الذي أرسل، وأن شأن الضالين التكذيب بالكتب الإلهية.⁽³⁾

يلاحظ أنه بوجود تناسب واضح بين السور وبين الآيات ضمن السورة الواحدة، فقد تتعدد الأغراض والانتقال من العقيدة إلى العبادة إلى الأخلاق والأمثال والقصص وأحكام السلوك والمعاملات، والحكمة في الفصل بين التناسب في المعاني، أنه أسلوب خاص بالقرآن الكريم وذلك لاجتذاب الأنفس وتنشيطها حين التلاوة، والبعد عن السأم والملل، وأدعى إلى التدبر، وشد انتباه القارئ والسامع، من خلال المفاجآت والاستطرادات وتحليل بعض القضايا الجانبية.

وهناك تناسب بين السور، كسور الطواسين وحواميم وسورتي المرسلات والنبأ، وقد يوجد فاصل بينهما كسورتي الهمزة والذهب مع أن موضوعهما واحد.⁽⁴⁾

(1) الموسوعة القرآنية خصائص السور 4 / 3.

(2) ينظر: التفسير المنير 11 / 93، وفي ظلال القرآن 3 / 1753، والموسوعة القرآنية خصائص السور 4 / 3.

(3) ينظر: التفسير المنير 11 / 93 - 94.

(4) ينظر: التفسير المنير 11 / 93 - 94، وفي رحاب التفسير 2 / 1631.

2. مناسبتها لما بعدها:

لقد فُصل في سورة هود ما أُجمل في سورة يونس عليه السلام من قصص الرسل عليهم السلام وهي مناسبة لها في فاتحتها وخاتمتها وتفصيل الدعوة في أثنائها، فقد افتتحتا بذكر القرآن بعد (الر) وذكر رسالة النبي المبلغ عن ربه، وبيان أن وظيفة الرسول عليه السلام إنما هي التبشير والإنذار وفي أثنائهما ذكر التحدي بالقرآن والرد على الذين زعموا أن الرسول عليه السلام قد افتراه، ومحاجة المشركين في أصول الدين، وخُتمتا بخطاب الناس بالدعوة إلى ما جاء به الرسول عليه السلام، ثم أمر الرسول عليه السلام في الأولى سورة يونس عليه السلام بالصبر حتى يحكم الله بينه وبين الكافرين، وفي الثانية سورة هود بانتظار هذا الحكم منه تعالى مع الاستقامة على عبادته والتوكل عليه.⁽¹⁾

لما ختمت سورة يونس عليه السلام بالحث على اتباع الكتاب الكريم ولزومه، والصبر على ما يتعقب ذلك من المرائر والشدائد المؤدية إلى الفوز بالخير اعتماداً على المتصف بالجلال والكبرياء والكمال، ابتدأت سورة هود بوصف ما يرغب فيه، والإشارة إلى إعادة القرع بالتحدي على ما سلف.⁽²⁾

لقد أُجمل في كلا السورتين ما فصل في الأخرى من فوائد انفردت بها كل منهما، فقد اتفقتا موضوعاً في الأكثر واختلفتا نظماً وأسلوباً مما لا مجال للشك في أنهما من كلام الرحمن الرحيم، الذي علم الإنسان البيان، وعلمه ما لم يكن يعلم.⁽³⁾

(1) ينظر: تفسير المراغي 11/ 167، والتفسير الواضح 2/ 97.

(2) ينظر: نظم الدرر 9/ 224.

(3) ينظر: تفسير المراغي 11/ 167، والتفسير الواضح 2/ 97.

الفصل الأول

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة التوبة، الآيات (93-110)

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المقاصد والأهداف من الآية (93 – 99)

المتخلفون عن غزوة تبوك من المنافقين
والأعراب وموقف الإسلام منهم

المبحث الثاني: المقاصد والأهداف من الآية (100 – 106)

الفئات الإيمانية المختلفة في المدينة

المبحث الثالث: المقاصد والأهداف من الآية (107 – 110)

مسجد الضرار ومسجد التقوى وموقف الرسول
ﷺ منهما

المبحث الأول

مقاصد وأهداف سورة التوبة من الآية (93 – 99)
المتخلفون عن غزوة تبوك من المنافقين والأعراب
وموقف الإسلام منهم

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: مؤاخذة المتخلفين الأغنياء عن الغزوة بغير
عذر.

المطلب الثاني: اعتذار المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك.

المطلب الثالث: حلف المتخلفين عن غزوة تبوك الأيمان
الكاذبة.

المطلب الرابع: موقف المسلمين من المنافقين المتخلفين عن
الغزوة.

المطلب الخامس: كفر الأعراب ونفاقهم.

المطلب السادس: حقيقة إيمان الأعراب.

المطلب الأول

مؤاخظة المتخلفين الأغنياء عن الغزوة بغير عذر

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 93].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

لما كان آخر الآيات السابقة التي بينت ذوي الأعذار أنهم لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم، وأنهم لا يجدون ما يحملهم من إبل أو خيل، ولا يجدون من يمكنهم من الركوب بإعارة أو تبرع أو نحو ذلك، وهم الذين لا سبيل عليهم في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 91]، فكان المناسب أن يذكر المقابل لهم: إنما السبيل الواضح السوي، والموصل إلى المؤاخظة والمعاقبة بالحق على الذين يستأذنونك وهم أغنياء الذين يجدون النفقة، ويجادون ما يحملهم، ومع ذلك يعتذرون عن الخروج بمعاذير كاذبة، وهم الذين عليهم السبيل كما هو مذكور في الآية الكريمة.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

السَّبِيلُ: الإنكار، أو المأثم⁽²⁾، وتأتي بمعنى الطريق إلى المعاقبة.⁽³⁾

الْخَوَالِفِ: اختلف في معنى الخوالف على النحو الآتي:

أ. الذراري من النساء والصبيان لتخلفهم وعجزهم عن تكاليف الجهاد، ويعبر عنهم بربات الخدور.⁽⁴⁾

ب. الخوالف هم العجزة والمرضى.⁽⁵⁾

(1) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي 16/ 123، وزهرة التفاسير 7/ 3414، ونظم الدرر 8/ 574، ومعالم التنزيل 10/

184، والتحرير والتنوير 11/ 5، والتفسير المنير 11/ 5، والتفسير الوسيط، الزحيلي 1/ 905-906.

(2) ينظر: تفسير العز بن عبد السلام 2/ 44، والنكت والعيون، الماوردي 2/ 392.

(3) ينظر: تفسير القرآن الكريم 6/ 1977، وأيسر التفاسير 2/ 414.

(4) ينظر: إيجاز البيان عن معاني القرآن، النيسابوري 1/ 389، وتفسير العز بن عبد السلام 2/ 44، وفي ظلال القرآن

3/ 1695، والهداية إلى بلوغ النهاية، القيرواني 4/ 3100، وزهرة التفاسير 7/ 3415.

(5) ينظر: في ظلال القرآن 3/ 1695، وأيسر التفاسير 2/ 414، وفي رحاب التفسير 2/ 1595.

ج. المتخلفون بالنفاق، وهو جمع خالفة.⁽¹⁾

د. "الأشياء الفاسدة التي ترسب في الإناء بعد تفرغها".⁽²⁾

الراجح: ترى الباحثة أن جميع معاني الخوالف تدل على وضعيتهم ودناءة مكانتهم، وما نالوا ذلك إلا لأنهم تخلفوا عن الجهاد من غير عذر مقبول.

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ إِنَّمَا كافة ومكفوفة، وقيل: هي للتوكيد والمبالغة فيه، وقيل: هي للحصر.⁽³⁾

جملة قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ فيها قولان، وهما كالآتي:

الأول: الجملة استئنافية تعليلية لما سبق، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والضعفة والانتظام في جملة الخوالف.⁽⁴⁾

الثاني: "قيل إنه في محل نصب على الحال، وقد مقدرة"⁽⁵⁾، قاله الكرخي.⁽⁶⁾

الراجح: يظهر مما سبق ذكره أن جملة قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ في محل نصب حال؛ لأنها تصف حالهم وكيفيتهم عندما تخلفوا عن الجهاد، والخروج مع الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ معطوفة على ﴿رَضُوا﴾ رضوا أي سبب الاستئذان مع الغنى أمران:

أ. الرضا بالصفقة الخاسرة وهي أن يكونوا مع الخوالف.

ب. الطبع من الله على قلوبهم.

(1) ينظر: تفسير العز بن عبد السلام 2/ 44، وتفسير القرآن الكريم 6/ 1977.

(2) زهرة التفاسير 7/ 3415.

(3) إعراب القرآن وبيانه، محي الدين درويش 4/ 157.

(4) ينظر: الكشاف 2/ 301، ومفاتيح الغيب 16/ 123، وإرشاد العقل السليم 4/ 93، والتحرير والتنوير 11/ 6.

(5) فتح البيان، أبو الطيب القنوجي 5/ 373.

(6) معروف الكرخي: علم الزهاد، بركة العصر، أبو محفوظ البغدادي، واسم أبيه فيروز، وقيل: فيرزان، من الصابئة، وقيل: كان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدب كان يقول له قل: ثالث ثلاثة، فيقول معروف: بل هو الواحد، فيضربه، فيهرب، فكان والداه يقولان: لبيته رجع، ثم إن أبواه أسلما، وذكر السلمي أنه صحب داود الطائي، ولم يصح. [ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي 9/ 340].

3. الجوانب البلاغية:

أ. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا﴾ فيها قولان، وهما كالتالي:

الأول: إِنَّ ﴿إِنَّمَا﴾ جاءت للمبالغة فيما يريد تقريره وتوكيده على نحو ذلك إنما الشجاع عنتره، ويقضي بذلك أنا نجد السبيل في الشرع على غير هذه الفرقة موجوداً، والسبيل قد توصل بعلى وإلى فتقول لا سبيل على فلان ولا سبيل إلى فلان غير أن وصولها بعلى يقتضي أحياناً ضعف المتوصل إليه وقلة مَنَعَتِهِ، فذلك حسنت في هذه الآية، وليس ذلك في إلى. (1)

الثاني: "أداة حصر وقصر، أي لا سبيل للعتاب أو اللوم أو العقاب أو الإنكار إلا على الذين يبادرون بالاستئذان، وهم أغنياء". (2)

الراجح: الدراسة تكشف وتوضح أن ﴿إِنَّمَا﴾ أداة قصر وحصر لأن اللوم والعتاب والإنكار على الذين طلبوا الإذن وتخلفوا عن الجهاد والخروج مع الرسول ﷺ من غير عذر لهم.

ب. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ مستعار لمعنى السلطان، والمؤاخذة بالتبعية، شبه السلطان والمؤاخذة بالطريق لأن السلطة يُتوصل بها إلى تنفيذ المؤاخذة في الغير، ولذلك عدي بحرف (على) المفيد لمعنى الاستعلاء، وهو استعلاء مجازي بمعنى التمكن من التصرف في مدخول (على)، فكان هذا التركيب استعارة مكنية رمز إليها بما هو من ملائمت المشبه به وهو حرف (على)، وفيه استعارة تبعية.

ج. التعريف باللام في قوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ تعريف العهد، والمعهود هو السبيل المنفي في

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 91]، على قاعدة النكرة إذا أعيدت معرفة، أي إنما السبيل المنفي عن المحسنين مثبت للذين يستأذنونك وهم أغنياء. (3)

د. قوله تعالى: ﴿أَغْنِيَاءُ﴾ كلمة الغنى لا تطلق على المال فقط، بل تنطبق على من فيه شروط الجهاد، إذن: فاللوم والتوبيخ والإثم على الأغنياء بهذه الأشياء، وطلبوا أن يقعدوا عن الجهاد. (4)

(1) ينظر: المحرر الوجيز، أبو محمد الأندلسي 3/ 71، وفتح البيان 5/ 373.

(2) زهرة التفاسير 7/ 3414.

(3) ينظر: التحرير والتنوير 11/ 5 - 6.

(4) ينظر: تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي 9/ 5418.

هـ. ﴿الْخَوَالِفِ﴾: فيه استعارة مكنية وهن النساء المقيمات في دار الحي بعد رحيل الرجال، وإنما سميت النساء خوالف تشبيهاً لهن بالخوالف وهي الأعمدة تكون في أواخر بيوت الحي فشبههن لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت.⁽¹⁾

و. أسند الطبع على قلوبهم إلى الله ﷻ في هذه الآية بخلاف ما في الآية السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 87] لعله للإشارة إلى أنه طبع غير الطبع الذي جبلوا عليه بل هو طبع على طبع أنشأه الله ﷻ في قلوبهم لغضبه عليهم فحرمهم النجاة من الطبع الأصلي وزادهم عماية⁽²⁾، "فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قدراً ضئيلاً من النفاق، ولا تغادر قلوبهم ذرة من كفر، ولا يتسرب إلى قلوبهم ذرة من إيمان".⁽³⁾

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

توضح الآية الكريمة أنّ السبيل بالمعاقبة والمعاقبة بأنواع العذاب ليس على الذين لهم عذر، ولكنها على الذين يستأذنون في التخلف، وترك الجهاد مع الرسول ﷺ، وهم أهل غنى وقوة وطاقة قادرين بالجسد والمال للجهاد والغزو، نفاقاً وشكاً في وعد الله ﷻ ووعيده، إلا أنّهم قد رضوا من خبث بواطنهم، ومرض قلوبهم بأنّ يكوّنوا ويجلسوا بعد النبي ﷺ مع النساء والصغار وهم (الخوالف)، وهم المعذورون غير المستطيعين.⁽⁴⁾

﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: وختم الله ﷻ المذلّ المضلّ لأهل الغفلة والعناد على قلوبهم بالجهل والضلال بما كسبوا من الذنوب⁽⁵⁾، فقد أغلق الله ﷻ فيهم منافذ الشعور والعلم، وعطل فيهم أجهزة الاستقبال والإدراك، بما ارتضوه لأنفسهم من الخمول والبلادة، والاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركي، وما يؤثر الإنسان السلامة الذليلة والراحة البليدة إلا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع والتدوق والتجربة والمعرفة، فوق ما فرغت من دوافع الوجود والشهود والتأثر والتأثير في واقع الحياة، وبلادة الراحة تغلق المنافذ والمشاعر، وتطبع على القلوب والعقول، والحركة دليل الحياة، ومحرك في الوقت ذاته للحياة.⁽⁶⁾

(1) ينظر: صفوة التفاسير 1/ 517.

(2) ينظر: التحرير والتنوير 11/ 6، وتفسير الشعراوي 9/ 5420-5421.

(3) تفسير الشعراوي 9/ 5420-5421.

(4) ينظر: جامع البيان 14/ 423-424، والفواتح الإلهية، الشيخ علوان 1/ 315.

(5) ينظر: جامع البيان 14/ 423-424، والفواتح الإلهية 1/ 315، ومحاسن التأويل، محمد جمال القاسمي 5/ 479.

(6) ينظر: في ظلال القرآن 3/ 1695.

﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي ما يترتب عليهم من المصائب الدينية والدينيوية، وسوء عاقبتهم، بتخلفهم عنك، وتركهم الجهاد معك، وما عليهم من قبيح الثناء في الدنيا، وعظيم البلاء في الآخرة⁽¹⁾، ويقول السمرقندي في كتابه: "وهم لا يعلمون التوحيد"⁽²⁾، والإنسان قد لا يفهمه ولا يفقهه، ولكن قد يفهمه غيره ويعلمه هو عنه، لذلك نفي الفقه أو الفهم لا ينفي العلم، ولكن حين ينفي العلم فهو ينفي الفهم عن الذات، وينفي الفهم عن الغير، ولذلك حين يقال: (لَا يَفْقَهُونَ): لا يفهمون بذواتهم، أما إذا قلنا: (لَا يَعْلَمُونَ) فالمقصود أنهم يفهمون ولا يتعلمون، ولذلك نجد (لَا يَفْقَهُونَ) في موضع، ونجد (لَا يَعْلَمُونَ) في موضع آخر، وكلُّ تناسب موقعها الذي ذكرت فيه⁽³⁾، فأخبر ﷺ أنهم لم يعرفوا الشيء بغيره ولا بنفسه؛ عناداً منهم ومكابرة⁽⁴⁾.

رابعاً: مقاصد وأهداف النص :

الفكرة العامة للآية من وجهة نظر الباحثة هي التخاذل عن الجهاد والنفير مع القدرة عليه، والرضا بمراتب المتخاذلين والمتخلفين هرباً من المشاركة في صفوف المتقدمين المجاهدين، والعاقبة الوخيمة، والتهديد بالطبع على قلوب هؤلاء فلا يرون معروفاً ولا ينكرون منكراً، ولا مجال - بالأمر الإلهي - لقبول عذرهم، والعقوبة فضح وكشف ستارٍ من الله ﷻ.

وترتبط الآية بالواقع الذي نعيشه في العديد من الأوجه، وهي نصرة المستضعفين من خلال:

◀ الجهاد:

إنَّ كثيراً من المسلمين اليوم يتخاذلون عن الجهاد والنفير والنصرة لإخوانهم في مواطن قتال اليهود والكفار في (فلسطين والعراق) وغير محلٍّ من بلاد الإسلام مع قدرتهم الجسدية والمادية للمشاركة، مُتذرعين بأوهى الحجج وأضعف الأدلة وأتفه الأسباب لتبرير عدم مشاركتهم، حتى أن من لا يستطيع المشاركة منهم بنفسه فإنه يبخل أن ينصر المسلمين بماله، وهذا نراه واقعاً غريباً عجيباً في بلاد الإسلام اليوم، حيث التخاذل الواضح من (الأغنياء) وأصحاب رؤوس الأموال ومن منَّ الله ﷻ عليهم وفتح عليهم من واسع فضله، فإنهم يتخاذلون أن ينصروا بأموالهم أهل فلسطين وسوريا والعراق وبورما وغيرها، وترى بعضهم ينفق الملايين على المغننين والمغنيات، وتنتحُ أنفسهم ويغضبون إذا ما سئلوا أن يعطوا إخوانهم في العقيدة أصحاب الابتلاء حملة راية الجهاد والصبر والمصابرة.

(1) ينظر: جامع البيان 14 / 423 - 424، والفواتح الإلهية 1 / 315، ومحاسن التأويل 5 / 479.

(2) بحر العلوم 2 / 82.

(3) ينظر: تفسير الشعراوي 9 / 5420 - 5421.

(4) ينظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي 5 / 453.

هؤلاء رضوا بأن يكونوا ليس فقط مع الخولاف الذين يتخلفون عن النصر ويلزمون بيوتهم كالنساء المرخص لهن ذلك، لكنهم يحاربون ويجابهون من يريد النفير والنصرة والدعم لأهل الجهاد والرياط، وذلك يتضح جلياً في حكام بلاد المسلمين اليوم سائرهم - إلا من رحم الله -، حتى أولئك الذين تستروا بدعم (المقاومة) فإنهم بلا شك أول من يحارب أهل النصر والجهاد والله المستعان.

◀ الزكاة والصدقة:

نجد في زماننا أن كثيراً من أغنياء المسلمين يتخاذلون عن أداء حق الله ﷻ في أموالهم، وهو فريضة كما الجهاد في سبيل الله ﷻ، فترى كثيراً منهم (يستئذنونك) أي أنهم يحاولون التحايل على شروط الزكاة أو حتى مصارفها فترى بعض التجار يعطي زكاة أمواله لأبنائه أو يتحايل في انطباق شرط الحول، ومنهم من يبحث عن العذر أي فتوى من شيخ جاهل أو متساهل، كل هذا تحايلاً وتهرباً وتخاذلاً عن نصره الفقراء والمساكين والمستضعفين.

◀ الدعاء:

يكون ذلك ولو بالدعاء، ومن الناس من يتخاذل عن نصره أهل الإسلام في سوريا ومصر، الذين تباد خضراؤهم، ويهلك حرثهم ونسلهم، ويتخاذل البعض حتى عن الدعاء بحجة نأي النفس عن الفتنة، والأمر واضح لا لبس فيه ولا غبار يشوبه، إذ إن الفتنة تصبح بين فريقين بحيث لا يستطيع صاحب العقل والفكر أن يميز بين الحق والباطل فيهما، فهل خفي على كل ذي لب راجح وقلب بالإيمان ناضح، وضمير متقصد ناصح أن ما يحصل لأهل الإسلام في سوريا ومصر ليس إلا حرب إبادة وتطهير، شعار أهل الباطل فيها ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّطْهَرُونَ﴾ [النمل:56]، وإذا تعدر هؤلاء المتخاذلون المستئذنون بأنهم على الحياد ولا يريدون أن يوغلوا في أعراض وقضايا المسلمين فإن حيادهم مردود عليهم، وبكفيهم لدحض تخاذلهم حديث النبي ﷺ الذي هو حجة على العالم كله في التكاثر والتعاضد والنصرة، عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى" (1) فأين تداعبكم لإخوانكم؟؟ إذا ادعيتم الإيمان!! والمحاييد لا ينصر الباطل لكنه حتماً يخذل الحق.

(1) صحيح مسلم 4/ 1999، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: 2586.

المطلب الثاني

اعتذار المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَانَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 94].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن ذكر عزَّ اسمه من يستحقون اللوم والمؤاخذه من المعدِّرين للتخلف عن غزوة تبوك، ومن لا سبيل إلى مؤاخذتهم وعدم الحرج عليهم من أصحاب الأعدار، ذكر في هذه الآية ما سيكون من أمر المنافقين الذين تخلفوا في المدينة وما حولها عن غزوة تبوك مع الرسول ﷺ بعد عودتهم.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

ذكر في كتب التفسير أن الآية نزلت في الجد بن قيس، ومعتب بن قشير وأصحابهما من المنافقين المتخلفين وكانوا ثمانين رجلاً أمر النبي ﷺ المؤمنين إذا رجعوا إلى المدينة ألا يجالسوهم ولا يكلموهم.⁽²⁾

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات

تُرَدُّونَ : تفيد أمرين:

- أنهم يذهبون إلى هذه الدار (الدار الآخرة) غير مختارين، بل يردُّون إليها مدفوعين.
- التعبير فيه ما يفيد معنى الرجوع إليها بعد هذه الحياة، وكأنهم في الدنيا في سفر يعود بعدها المسافر إلى حيث إقامته وموطنه، فالإنسان ما خلق عبثاً وهباءً، إنما خلق لأجل البقاء في الحياة الآخرة، فهي وطنه الأصلي إما نعيماً مقيماً، وإما عذاباً أليماً.⁽³⁾

(1) ينظر: تفسير المراغي 4/11، وتيسير الكريم الرحمن 348، والتفسير المنير 8/11-9، وصفوة التفاسير 557/1.

(2) ينظر: التفسير الواضح 3/2، وتفسير المراغي 6/11، والسراج المنير 643/1، ولباب التأويل 2/397.

(3) ينظر: زهرة التفاسير 7/3417.

الغَيْبِ: ما غاب عنك علمه.

وَالشَّهَدَةَ: "ما تشهده وتعرفه".⁽¹⁾

2. الإعراب:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ في هذه الآية قيل بأن كلمة (نبأ) تأتي بمعنيين، كالتالي:

أولاً: بمعنى (عرف) وفي هذا المعنى لا تحتاج إلى أكثر من مفعولين، هما:

أ. مفعول أول: الضمير (نا).

ب. قوله تعالى: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ مفعول ثانٍ على مذهب أبي الحسن في زيادة من في

الواجب، فالتقدير (قد نبأنا الله أخباركم)، وهو على مذهب سيبويه نعت لمحذوف هو

المفعول الثاني تقديره: (قد نبأنا الله جلية من أخباركم).

ثانياً: قيل تأتي بمعنى (أعلم)، وعلى هذا القول تحتاج إلى ثلاثة مفاعيل، وهي:

أ. الضمير (نا) مفعول أول.

ب. ومن أخباركم حسب ما تقدم من القولين.

ج. الضمير الثالث محذوف يدل الكلام عليه، تقديره: (قد نبأنا الله من أخباركم كذباً أو نحوه)،

وحذف هذا المفعول مع الدلالة عليه جائز بخلاف الاقتصار، ويجوز حذفه مع الدلالة عليه

والإشارة بقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا

وَلَا وَضَعُوا لِحٰلِكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلْفَنَّةً﴾ [التوبة: 47].⁽²⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قَالَ تَعَالَى: ﴿يُمْ تَرُدُّونَ﴾، (ثم) تفيد الترتيب والتراخي، والتراخي في هذه الآية

بموضعه، لأن فيه الانتقال من الدار الفانية الزائلة إلى الباقية الخالدة، والانتقال من دار

العمل إلى دار الجزاء.⁽³⁾

ب. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي إليه تعالى، فوضع الوصف موضع الضمير، للدلالة على

أنه مطلع على سرهم وعلنهم، لا يفوت عليه شيء من ضمائرهم وأعمالهم.

(1) تفسير المراغي 3 / 11.

(2) ينظر: المحرر الوجيز 3 / 72، والتبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء العكبري 2 / 655.

(3) ينظر: زهرة التفاسير 7 / 3417.

ج. قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ بين كلمتي الغيب والشهادة طباق⁽¹⁾، واللام في الغيب والشهادة للاستغراق، أي يشمل كل غيب وكل شهادة دون استثناء.⁽²⁾

د. قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيئْتِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حرف (الفاء) بكلمة ﴿فِيئْتِكُمْ﴾ تفيد الترتيب والتعقيب، إذ إن الإنباء يكون عقب الرجوع إلى الله ﷻ، وذلك دليل على تأكد وقوع ما وعد به وتحققه وأنه لا مفر من قيام القيامة، ونزول ما وعد الله ﷻ به⁽³⁾، ويقول الطاهر بن عاشور: "فيه كناية لأن ذكر المجازاة في مقام الإجمام والجنابة لازم لعموم علم ملك يوم الدين بكل ما عملوه".⁽⁴⁾

ثانياً: المعنى الإجمالي:

هذه الآية استئناف ابتدائي لأن الاعتذار ليس قاصراً على الذين يستأذنون في التخلف، فالإذن لهم يغنيهم عن التبرؤ بالحلف والأيمان الكاذبة، فضمير يعتذرون عائد إلى أقرب معاد، وفيها من إنباء الله ﷻ لرسوله ﷺ وللمؤمنين الخُص بما سيكون من أمر هؤلاء المتخلفين من المنافقين بعد الرجوع من الغزوة، وهذا يدل على أن هذه الآيات نزلت في أثناء العودة وقبل الوصول إلى المدينة، فإن هؤلاء المنافقين يعتذرون إليهم عن تخلفهم وعودهم، ذلك أنهم يخلطون من الظهور بفعلتهم هذه عارية، ومن الكشف عن أسبابها الحقيقية وهي ضعف الإيمان، وإيثار السلامة، والإشفاق من الجهاد.

يوجه الله ﷻ الخطاب للرسول ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ أي وفروا عليكم معاذيركم، فلن نطمئن إليكم ولن نصدقكم بما تقولون، ولن نأخذ بظاهر إسلامكم كما كنا نفعل.⁽⁵⁾

قال الرازي: "جملة ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ علة للمنع من الاعتذار لأن غرض المعتذر أن يصير عذره مقبولاً، فإذا علم بأن القوم يكذبونه فيه، وجب عليه تركه".⁽⁶⁾

قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله ﷻ من أمركم ما قد علمنا به كذبكم بأنه ليس لكم عذر، واتضح لنا فضائحكم، وأخبرنا عن نفاقكم، وأعمالكم وسرائركم، وتمييز - بما أظهره الله لنا - سيئكم وصالحكم، وجملة: ﴿قَدْ بَيَّأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ علة لانتفاء

(1) ينظر: التفسير المنير 11 / 7.

(2) ينظر: التحرير والتنوير 11 / 8.

(3) ينظر: زهرة التفاسير 7 / 3417.

(4) التحرير والتنوير 11 / 8.

(5) ينظر: جامع البيان، الطبري 14 / 424 - 425، وفي ظلال القرآن 3 / 1695، والتحرير والتنوير 11 / 6-7.

(6) مفاتيح الغيب 16 / 123.

التصديق، لأن الله ﷻ لما أطلع وأوحى للرسول ﷺ وأعلمه بما في ضمائرهم من الخبث والمكر والنفاق، امتنع أن يصدقهم ﷻ في تلك الأعذار. (1)

بعد ذلك أخبر الله ﷻ بأنه سيرى عملهم ورسوله ﷻ فيما بعد، وهو الذي سيدل إما على إصراركم على النفاق أو على التوبة والإنابة إلى ربكم، وأما أقوالكم فلا يُعْتَدُّ بها مهما أكتموها بالأيمان، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال، فلا دلالة فيها على شيء من ذلك، فإن أنتم تبتنم وأنبتم إلى ربكم وشهد لكم عملكم بصلاح طوبيتكم، فإن الله ﷻ يتقبل منكم توبتكم، ويغفر لكم، ويعاملكم الرسول ﷻ بما يعامل به المؤمنين الذين أخلصوا وصدقوا وشهدت لهم أعمالهم بذلك، وإن أنتم أبيتم إلا الإصرار على النفاق، والاعتماد على رواج سوق الكذب بتلك الأيمان التي تحلفونها فسيعاملكم الرسول ﷻ بما أمره الله ﷻ به من جهادكم والإغلاظ عليكم كإخوانكم الكفار، وفيه إيماء للرجبة في توبتكم حين سنوح الفرصة. (2)

﴿ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي: تصيرون بعد الموت وانتهاء حياتكم

الدنيوية إلى خالقكم الله ﷻ، فيأتي الرد بمعنى الإرجاع، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام: 62] (3)، والمرد في الآخرة إلى الله ﷻ حيث يلقاه العباد، ويلقاهم بأعمالهم التي لا تخفى عليه منها خافية، فلا نفاق ولا كذب ولا مراعاة (4)، "والعدول على أن يقال: لم تردون إليه، أي إلى الله، لما في الإظهار من التنبيه على أنه لا يعزب عنه شيء من أعمالهم، زيادة في الترغيب والترهيب الشديد ليعلموا أنه لا يخفى على الله ﷻ شيء" (5)، "ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمرة لإشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتُمونه ويتظاهرون به وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه". (6)

قال تعالى: ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الإنباء في هذا الحال، ليس بالأقوال، ولكن بالرؤية

والأفعال فهو مجاز، يرون أعمالهم، تنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يفعلون، وتشهد عليهم ألسنتهم، وجوارحهم وأفعالهم، فالإنباء فيه وعد ووعيد، يعلم الناس فيه ما فعلوا ويروا جزاء ما صنعوا حاضراً يستقبلهم ويستقبلونه. (7)

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 16/ 123، ومدارك التنزيل، النسفي 1/ 702، والبحر المحيط، الأندلسي 5/ 489.

(2) ينظر: تفسير المراغي 11/ 4-5، وتيسير الكريم الرحمن ص: 34.

(3) ينظر: التحرير والتنوير 8/ 11.

(4) ينظر: زهرة التفاسير 7/ 3417.

(5) التحرير والتنوير 8/ 11.

(6) فتح البيان 5/ 374.

(7) ينظر: زهرة التفاسير 7/ 3417-3418.

قال الأستاذ أبو بكر الطرطوشي⁽¹⁾: "اعمل للدنيا بقدر مقامك فيها، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها"⁽²⁾، ويجب أن تستحي من الله ﷻ بقدر قربه منك، وتطيعه بقدر حاجتك إليه، وتخافه بقدر قدرته عليك، واعصه بقدر صبرك على النار.⁽³⁾

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ فضح أعداء وأكاذيب المنافقين:

هؤلاء المنافقون يعتذرون حفاظاً على مكانتهم، لأن للإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، غذاء العقل العلم، وغذاء القلب الحب، وغذاء الجسم الطعام والشراب، فحينما يعبر عن محبته للحق مثلاً، محبته للدين، بهذا يرتقي عند الناس، فالمنافق هو في حياته الخاصة لا يطبق شيئاً من الدين، متلفت كالكافر، لكن يريد مكسباً اجتماعياً، أن يكون مع المؤمنين في مكانتهم، وفي مكاسبهم، فهو ينافق لهم.⁽⁴⁾

هذا ما نراه في واقعنا الحالي من أحوال بعض الحكام الذين ينتمون في تطبيق أحكامهم لدول الغرب ويطبّقون ما يملون عليهم.

وهذا ما نراه الآن من اختلاق للأعداء، وقلب وتزييف للحقائق من الإعلام الكاذب، وتبرير للجرائم التي تُرتكب بحق الشعوب، ولكن الرد عليهم يكون بأن لا يعتذروا، لأن الله ﷻ وضّح للمؤمنين المتمسكين بدينهم الحق مكائد المنافقين وكذبهم واستهزاءهم.

(1) الطرطوشي: محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي (451-520هـ = 1059-1126م)، ويقال له ابن أبي رندقة: أديب، من فقهاء المالكية الحفاظ، من أهل طرطوشة بشرفي الأندلس، تفقه ببلاده، ورحل إلى المشرق سنة 476هـ فحج وزار العراق ومصر وفلسطين ولبنان، وأقام مدة في الشام، وسكن الإسكندرية، تولى التدريس، وتوفي فيها، كان زاهداً لم يتشبهت من الدنيا بشيء، من كتبه: سراج الملوك، والتعليقة في الخلافيات. [ينظر: الأعلام 7/ 133-134].

(2) سراج الملوك، أبو بكر المالكي ص: 199.

(3) ينظر: الجواهر الحسان، الثعالبي 3/ 206.

(4) ينظر: موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية: محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-08-23.

﴿ بيان أن الله ﷻ يمهل عباده ولا يهملهم:

كما أن لكل شيء بداية فإن له نهاية، وكل ظالم لا بد أن يأتي عليه يوم يقتص فيه منه، ولا يكون له إلا الخزي والعار؛ لأن الله ﷻ يمهل ولا يهمل، وذلك واضح جلي في قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ تَرَدُّونَ ﴾

المطلب الثالث

حلف المتخلفين عن غزوة تبوك الأيمان الكاذبة

قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 95].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعدما ذكر في الآية السابقة الذين تخلفوا عن الجهاد من غير عذر، أخبر الله ﷺ رسوله ﷺ بأن هؤلاء المنافقين، سيؤكدون تلك الأعذار بالأيمان الكاذبة الفاجرة⁽¹⁾، حتى لا تؤنبوهم وتلوموهم على تخلفهم عن المشاركة والخروج في الغزو.⁽²⁾

ثانياً: سبب النزول:

قال: عبد الله بن كعب: سمعت كعب بن مالك يقول لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، وصدقته حديثي فقال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا؟ حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: 95] إلى قوله تعالى: ﴿فَاتَّكَبَ اللَّهُ لَا يُرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 95].⁽³⁾

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

انْقَلَبْتُمْ: الانقلاب هو الرجوع إلى المكان الذي خرجوا منه.⁽⁴⁾

لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ: فيها قولان:

أ. لتصفحوا عن ذنبهم.

(1) ينظر: اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص النعماني 177/10، والتفسير الوسيط 384/6، ومفاتيح

الغيب 124/16، والبحر المحيط 490/5، وصفوة التفسير 557/1.

(2) ينظر: تفسير ابن كثير 4/201.

(3) ينظر: الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل الوادعي 110-111.

(4) التحرير والتنوير 9/11.

ب. لأجل إعراضكم عن ذمهم.⁽¹⁾

يريد أنهم حلفوا بالله ﷻ لدفع السوء من قبلكم، وليس قصدهم بذلك خلوصاً في اعتذارهم، ولا ندامة على ما تحملوه من أوزارهم، إنما ذلك لتعرضوا عنهم ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي أن ذلك ليس بمنجيبهم مما سيلقونه غداً من عقوبة الله ﷻ لهم، فإن الله ﷻ يمهّل العاصي حتى يتوهم أنه قد تجاوز عنه، فإذا أذاقه ما يستوجبه علم أن الأمر بخلاف ما ظنه، وما ينفع ظاهر مغبوط، والحال يأس من الرحمة وقنوط.⁽²⁾

قال ابن عباس: فأعرضوا عنهم لا تكلموهم ولا تسلموا عليهم.⁽³⁾

الإعراض عنهم يكون بوجوه مكفهرة، وما في قلب المؤمن يظهر في لمحات عينه وعلى وجهه فهو في اشمئزاز منهم، وإن كان لا يتكلم بسوء، وهم يريدون إرضاءهم، فأخذوا عدتهم من القول، وهو الحلف ليدنوا منهم ويتقربوا من نفوسهم، وتتلاقى مشاعرهم وإحساساتهم، فيتمكنوا منهم، ويعرفوا ما بداخل نفوسهم.⁽⁴⁾

بناءً على ما سبق ترى الباحثة بأن الإعراض عنهم يكون في عدم مشاركتهم مجالسهم والامتناع عن تكليمهم ولو بالقليل، مثل: إلقاء التحية عليهم في حالة معرفتهم والتأكد أنهم منافقون.

رَجَسٌ: هو النتن والقذر⁽⁵⁾، والنجس والقبح، وهو الخبيث المستقذر.⁽⁶⁾

وَمَاؤُنْهَمُ: المأوى: كل مكان يؤوى إليه ليلاً أو نهاراً، وقد أوى فلان إلى منزله يأوي أويماً، على " فعول"، وإواء، وأويته إذا أنزلته بك، فعلت وأفعلت، ومأويّ الإبل لغة في مأوى الإبل خاصة، وهو شاذ⁽⁷⁾، وتأتي بمعنى المصير والمرجع.⁽⁸⁾

2. الإعراب:

قال تعالى: ﴿وَمَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن تكون ﴿جَزَاءُ﴾ مصدر لفعل محذوف أي يجزون جزاءً، أو يكون علة لكون مأواهم جهنم⁽⁹⁾، وأن ينتصب

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 16 / 124، وزاد المسير 2 / 290.

(2) ينظر: لطائف الإشارات، القشيري 2 / 56.

(3) ينظر: اللباب في علوم الكتاب 10 / 177، والبحر المحيط 5 / 490.

(4) ينظر: زهرة التفاسير 7 / 3419.

(5) ينظر: المحرر الوجيز 3 / 73، وتفسير القرآن، السمعاني 2 / 339.

(6) ينظر: تفسير البغوي 2 / 379، وصفوة التفاسير 1 / 557.

(7) اللباب في علوم الكتاب 10 / 178.

(8) التحرير والتنوير 11 / 9.

(9) ينظر: التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري 4 / 283، واللباب في علوم الكتاب 10 / 178.

بمضمون الجملة السابقة له؛ لأن كونهم يأوون في جهنم فيه معنى المجازاة، ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله⁽¹⁾، وتأتي ﴿جَزَاءُ﴾ حال من جهنم، أي مجازاة لهم على ما كانوا يعملون في الحياة الدنيا.⁽²⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ (إذا) أتت هنا ظرف للزمن الماضي، وحذف المحلوف عليه لظهوره وبيانه ولأنه تقدم نظيره في موضع آخر من السورة، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: 42] إِلَّا أَنْ مَا تقدم في حلفهم كان قبل الخروج.

ب. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أدخل حرف (عن) على ضمير المنافقين بتقدير مضاف يدل عليه السياق لظهور أنهم يريدون الإعراض عن لومهم، ففي حذف المضاف تهيئة لتفريع التفريع الواقع بعده، أي فإذا كانوا يرومون الإعراض عنهم فأعرضوا عنهم تماماً.⁽³⁾

ج. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، والرجس كما تحدثنا في معاني الكلمات بأنه الخبث، والمراد تشبيههم بالرجس في الدناءة وندس النفوس، فهو رجس معنوي، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذُوا وَالْمَيْسِرَ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمَ رِجْسًا مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: 90].⁽⁴⁾

هنا الصورة المجسمة أشد بشاعة وأبين قذارة، وأكثر بياناً وتوضيحاً، وأدعى إلى التقزز والاشمئزاز، وإلى الاحتقار كذلك والازدراء! والقاعدون عن الجهاد- وهم قادرون على الحركة- الذين يقعد بهم إيثار السلامة عن الجهاد.⁽⁵⁾

رابعاً: المعنى الإجمالي:

في هذه الآية إنباء آخر من الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ، عما سيكون من أمر القوم المنافقين عندما يرجع إليهم هو والمؤمنون الخالص سالمين آمنين غانمين، وكان المنافقون قد ظنوا أنهم لا يعودون من لقاء ومحاربة الروم، فقد علم الله ﷻ وأخبر نبيه ﷺ أنهم سيؤكدون معاذيرهم بالحلف

(1) ينظر: اللباب في علوم الكتاب 10/ 178، وجامع البيان 2/ 94.

(2) ينظر: التحرير والتنوير 11/ 10.

(3) ينظر: التحرير والتنوير 11/ 9.

(4) ينظر: المرجع السابق 11/ 10.

(5) ينظر: في ظلال القرآن 3/ 1696.

بالله ﷻ لعل المسلمين يعرضون ويتراجعون عن فعلتهم وتخلفهم عفواً وصفحاً، ولا يحاسبونهم عليها ويجازونهم بها.⁽¹⁾

يقول الرازي: " اعلم أن هذا الكلام يدل على أنهم حلفوا بالله ﷻ، ولم يدل على أنهم على أي شيء حلفوا؟ فقيل: إنهم حلفوا على أنهم ما قدروا على الخروج".⁽²⁾

ووصفهم بعد ذلك بالرجس بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ تأتي بتعليين كالتالي:

أ. تعليل لتترك معاتبته، يعنى أن المعاتبه لا تنفع فيهم ولا تصلحهم، إنما يعاتب الأديب ذو البشرة، والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه، ليظهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار، وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم.⁽³⁾

ب. أن النار كفتهم عتاباً فلا تتكفوا عتابهم.⁽⁴⁾

يذكر الرازي في كتابه: "أن الرجس هنا هو خبث باطنهم رجس روحاني يلوث الأرواح، فكما يجب الاحتراز عن الأرجاس الجسمانية، فوجب الاحتراز عن الأرجاس الروحانية أولى، خوفاً من سريانها إلى الإنسان، وحذراً من أن يميل طبع الإنسان إلى تلك الأعمال"⁽⁵⁾، وهو دنس وقدر يؤذي المشاعر كالجثة المنتنة في وسط الأحياء تؤذي وتعدي!⁽⁶⁾

بعد أن ذكر الله تعالى حالهم في هذه الدنيا ووضع مكانتهم بوصفهم بالرجس، والإهانة لهم عطف عليه وصفهم بمحطة الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِمْ جَهَنَّمَ﴾ يعنى وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكفوا عتابهم.⁽⁷⁾

قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من الآثام والخطايا، والكفر والنفاق.⁽⁸⁾

الجزاء يأتي من جنس العمل، وهذا هو العدل الالهي، فبسبب الآثام والخطايا ونفاقهم كان جزاؤهم نار جهنم وبئس المصير، أعادنا الله ﷻ وإياكم منها، وباعد بيننا وبينها بعد المشرق والمغرب.

(1) ينظر: في ظلال القرآن 3/ 1696.

(2) مفاتيح الغيب 16/ 124.

(3) ينظر: الكشف 2/ 302، ومدارك التنزيل 1/ 703

(4) أنوار التنزيل 3/ 94.

(5) مفاتيح الغيب 16/ 124، واللباب في علوم الكتاب 10/ 178.

(6) في ظلال القرآن 3/ 1696.

(7) ينظر: الكشف 2/ 302.

(8) ينظر: تفسير ابن كثير 4/ 201، والبحر المديد، أبو العباس الصوفي 2/ 419.

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآية إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ صفات بعض المنافقين:

من خلال النص السابق ذكره نستنتج أن من صفات المنافق والعلامات التي يُعرف من خلالها هو كثرة الحلف، وهذا ما نراه في بعض أفراد مجتمعنا ويتكرر في حياتنا يوماً من كثرة الحلف وهو ما يحدث في الأسواق من قبل بعض التجار بكثرة الحلف لرواج سلعهم، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: **إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلْفِ فِي الْبَيْعِ، فَإِنَّهُ يُنْفِقُ، ثُمَّ يَمْحَقُ**⁽¹⁾، فيجب الحذر والانتباه من هذه الخصلة حتى لا تمحق بركة تجارتهم ولا يحكم عليهم بالنفاق، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَاهَا: إِذَا أُوْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"**.⁽²⁾

◀ تحذير المسلمين من الحلف الكاذب:

يجب على الإنسان أن يحذر من الحلف بالله عز وجل كاذباً لأنه سيحكم عليه بالنفاق أو تكون فيه خصلة منه، ويأمرنا الله عند معرفة المنافقين وإقرارهم على أنفسهم أنهم يحلفون معتذرين عما بدى منهم، ألا نصدقهم.

◀ التحذير من المنافقين:

أيضاً يحكم على المنافقين كالمشركين بأنهم رجس أي نجس، لأن بواطنهم خبيثة واعتقاداتهم بالشرك والكفر وأعمالهم الباطنة خبيثة أيضاً إذ كلها تأمر على المسلمين ومكر بهم وكيد لهم⁽³⁾، شريحة المنافقين لم تنته وتقف في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم بل ما زالوا حتى عصرنا الحالي وهم فيهم خصال من الجاهلية الأولى وهم العملاء، أو ما يُسمون بالطابور الخامس الذين يخدمون العدو ويخدمون مصالحه، وينشرون ويبثون أفكارهم الخبيثة بين أفراد المجتمع، لتثبيط معنوياتهم وهدم ما بينيه الشرفاء من أبناء شعبهم، وكل ذلك مقابل مبالغ زهيدة لتحقيق أطماعهم الدنيوية الدنيئة، وهؤلاء يجب ألا تأخذنا بهم الرأفة، وعلينا إقامة الحد عليهم حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر، وزجرٌ وردع لغيرهم من الوقوع بوحل العمالة.

(1) صحيح مسلم 3/ 1228، كتاب: المساقاة، باب: النهي عن الحلف في البيع، حديث رقم: 1607.

(2) صحيح البخاري 1/ 16، كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق، حديث رقم: 34.

(3) ينظر: أيسر التفاسير 2/ 416.

المطلب الرابع

موقف المسلمين من المنافقين المتخلفين عن الغزوة

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 96].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

لقد بين الله ﷻ في الآية السابقة أنَّ المنافقين يحلفون بالله ﷻ ليعرض المسلمون عن إيذائهم، بين في هذه الآية أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة لمجرد استرضاء المسلمين، ليستديموا في معاملتهم كأهل الإسلام.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

ورد في سبب نزول هذه الآية قولان، هما:

1. ما روى عن ابن عباس ؓ أن الآية نزلت في جد بن قيس، ومعتب بن قشير، وأصحابهما من المنافقين، وكانوا ثمانين رجلاً، أمر النبي ﷺ المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة ألا يجالسوهم ولا يكلموهم فامتنلوا.⁽²⁾

2. قال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أبي حلف للنبي ﷺ بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلف عنه بعدها، وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه، فأنزل الله ﷻ هذه الآية.⁽³⁾

الراجح: ترى الباحثة أن العبرة ليس بخصوص السبب وإنما بعموم اللفظ أي أنه مهم أن نعرف فيمن نزلت الآية لكن الأهم من ذلك هو المعرفة بأن هذا الحلف الكاذب قد وقع حقاً من المنافقين للرسول ﷺ وللمؤمنين ؓ حتى يرضوا عن المنافقين، وأنَّ الله ﷻ بين ووضح بأنه لا يرضى للمؤمن على الفاسق الخارج عن طاعة الله ﷻ، وفيه بيان من الله ﷻ للمؤمنين من أن يحذروا من حلف المنافقين الأيمان الكاذبة وخداعهم حتى ينالوا رضى المؤمنين.

(1) ينظر: الباب في علوم الكتاب 10 / 178، والتفسير المنير 11 / 10، ومفاتيح الغيب 16 / 124.

(2) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم 6 / 384 - 385، والكشاف 2 / 302، وتفسير المراغي 11 / 6.

(3) ينظر: تفسير البغوي 2 / 380، والكشاف 2 / 302، والبحر المحييط 5 / 491، وتفسير المراغي 11 / 6، ولباب

التأويل 2 / 397.

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

يَحْلِفُونَ: يحتمل أن يكون الحلف كالتالي:

أ. الحلف من الأتباع؛ لأنهم في منزلة من يخاف العقوبة فيحلفون قصداً للإعراض وطلباً للمسالمة.

ب. الحلف من رؤسائهم؛ لأنهم في منزلة من لا يخاف العقوبة فيحلف قصداً لإرضاء المؤمنين عنه.⁽¹⁾

الراجح: ترى الباحثة أن كلا الوجهين محتملين لأن الحلف يكون من المنافقين طلباً لرضى المسلمين عنهم، وقد يقع ذلك الحلف من الرؤساء أو من أتباعهم.

لِرِضْوَانِ: (الرضا) هو اطمئنان القلب إلى أمر فيه نفع؛ فحين أقول: أنا راضٍ بالشيء الفلاني، فمعنى هذا أن كمية النفع التي أخذها منه تكفيني، والرضا ضد الكراهة.⁽²⁾

الْفَاسِقِينَ: أي الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج عن طاعة ودين الله ﷻ ورسوله ﷺ، ومنه سميت الفأرة (فويسقة) لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: (فسقت الرطوبة): إذا خرجت من أكمامها.⁽³⁾

2. الإعراب:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِ عَنْتُمْ﴾ كلمة ﴿يَحْلِفُونَ﴾ بدل اشتمال من قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ [التوبة: 95].⁽⁴⁾

و(لكم) جار ومجرور متعلقان بـ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ أو بمحذوف حال، ولام التعليل متعلقة مع مجرورها ﴿يَحْلِفُونَ﴾ وعنهم متعلقان بترضوا.⁽⁵⁾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَرَضُوا عَنْتُمْ﴾ الفاء بكلمة (فإن) فصيحة وجواب الشرط في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَرَضُوا عَنْتُمْ﴾ محذوف تقديره: (إن ترضوا عنهم على سبيل الفرض فلا ينفعهم

(1) ينظر: تفسير ابن عرفة، حمد بن محمد 2 / 324.

(2) ينظر: تفسير الشعراوي 9 / 5433، وتفسير السمعاني 2 / 339.

(3) ينظر: تفسير ابن كثير 4 / 201، التفسير المنير 11 / 10، والتفسير الواضح 2 / 5.

(4) ينظر: التحرير والتوير 11 / 10، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم 6 / 384، وإعراب القرآن وبيانه 4 / 160.

(5) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4 / 160.

رضاكم⁽¹⁾، ﴿فَات﴾ الفاء الثانية للتعليل وإن واسمها وجملة: ﴿لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ خبرها.⁽²⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَاتُ اللَّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فيه تحذير للمسلمين من الرضى عن المنافقين بطريق الكناية إذ قد علم المسلمون أن ما لا يرضى الله ﷻ لا يكون للمسلمين أن يرضوا به.

ب. قوله تعالى: ﴿الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ هم هؤلاء المنافقون، والعدول عن الإتيان بضمير (هم) إلى التعبير بصفتهم للدلالة على ذمهم، وتعليل عدم الرضى عنهم، فالكلام مشتمل على خبر وعلى دليله فأفاد مفاد كلامين لأنه ينحل إلى قولنا: (فإن ترضوا عنهم فإن الله ﷻ لا يرضى عنهم لأنه لا يرضى عن القوم الفاسقين)⁽³⁾، "ولم يقل فإن الله ﷻ لا يرضى عنهم، لتسجيل الفسق عليهم، وللايدان بشمول هذا الحكم لكل من كان مثلهم في الفسوق وفي الخروج عن طاعة الله ﷻ".⁽⁴⁾

4. استنباطات فقهية:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ يدل على أن الحلف على الاعتذار ممن كان متهماً لا يوجب الرضا عنه وقبول عذره لأن الآية قد اقتضت النهي عن الرضا عن هؤلاء مع أيمانهم وقال في هذه الآية يحلفون ولم يقل بالله وقال في الآية الأولى سيحلفون بالله فذكر اسم الله ﷻ في الحلف في الآية الأولى، واقتصر في الآية الثانية على ذكر الحلف فدل على أنها سواء وقال في موضع ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: 14]، وكذلك قال الله ﷻ في القسم فقال في موضع: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [النحل: 38]، وقال في موضع آخر: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: 17]، فاكتفى بذكر الحلف عن ذكر اسم الله ﷻ وفي هذا دليل على أنه لا فرق بين قول القائل أحلف وبين قوله أحلف بالله وكذلك قوله أقسم وأقسم بالله.⁽⁵⁾

(1) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم 6/ 385، وإعراب القرآن وبيانه 4/161

(2) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4/161.

(3) ينظر: التحرير والتنوير 11/ 10.

(4) التفسير الوسيط للقرآن الكريم 6/ 385.

(5) ينظر: أحكام القرآن، الجصاص 4/ 353.

رابعاً: المعنى الإجمالي:

"هذه الآية ذكرت جانباً آخر من الأحوال القبيحة للمنافقين، وردت على معاذيرهم الكاذبة، وأيمانهم الفاجرة بما يفضحهم ويخزيهم، وتوعدتهم بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة"⁽¹⁾، حيث إن الله ﷻ يبين للمؤمنين بأن هؤلاء المنافقين، يحلفون لكم اعتذاراً بالباطل والكذب، في قوله تَعَالَى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ فلم يذكر المحلوف به لظهوره، أي يحلفون بالله ﷻ⁽²⁾، ويحتمل أن يريد تكرير الحلف منهم.

قوله تعالى: ﴿لِرِضْوَانِ عَنْهُمْ﴾ يبين أن كل ذلك الحلف الذي وقع من المنافقين كان لسبب وهو لكسب رضا المسلمين، ولينفعهم ذلك في دنياهم، وإنهم لا يفعلون ذلك لوجه الله ﷻ ولا للبر، والله ﷻ يقول: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ وهنا شرط يتضمن عدم الرضى عنهم، أي إن رضيتم عنهم وقبلتم معذرتهم، إذ كنتم لا تعلمون صدقهم من كذبهم، باعتقادكم طهارة ضمائرهم وإخلاصهم.⁽³⁾ وذكر الله ﷻ ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فإن ترضوا عنهم كما أردوا، وساعدتموهم على ما طلبوا فإن رضاكم عنهم لا يجديهم نفعاً، وفي هذا إيماء إلى نهي المخاطبين عن الرضا عنهم والاعتذار بمعاذيرهم الكاذبة وأن من يرضى عنهم من المؤمنين يكون فاسقاً مثلهم محروماً من رضوان الله ﷻ⁽⁴⁾، والمؤمن يطلب رضا الله ﷻ دائماً، فإذا كان الله ﷻ لا يرضى عنهم، فالمؤمن اتباعاً لحكم الله ﷻ وارضاءً لا يرضى عنهم ويعرض عنهم⁽⁵⁾، والمقصود من إخبار الله ﷻ بعدم رضاه عنهم هو نهي المؤمنين عن ذلك لأن الرضا عن الذين لا يرضى الله ﷻ عنهم يتنافى مع الشريعة الإسلامية.⁽⁶⁾

إن هذه صفات المنافقين وديدنهم حيث إن الله ﷻ بين في مواضع أخرى من القرآن الكريم ووضح بأن طلب رضا البشر وليس رب البشر من عاداتهم كما قال تَعَالَى: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: 108]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ

(1) التفسير الوسيط 6/ 385.

(2) ينظر: محاسن التأويل 5/ 481.

(3) ينظر: الكشاف 2/ 302، وجامع البيان 14/ 428، ومحاسن التأويل 5/ 481، والمحزر الوجيز 3/ 73.

(4) ينظر: فتح القدير 2/ 450، تفسير المراغي 11/ 6.

(5) ينظر: زهرة التفاسير 7/ 3419.

(6) ينظر: فتح القدير 2/ 450، وفتح البيان 5/ 376.

مَنْ اللَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿ [الحشر: 13]، ولكن هيهات لهم ذلك لأن المؤمن الحق لا يهمله سوى رضى ربه. (1)

من هنا يتضح أن المقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاعتزاز بهم، وكفى بالله عليمًا وشهيداً، وكفى به عليمًا ومعلمًا للمؤمنين طريق الاستقامة والصواب ومواقف الحزم والسادات. (2) تبين أيضاً أن إرضاء الخلق بعضهم لبعض إنما يكون بالحلف، وما يكون من الظاهر، فالمعتذر إليه ينبغي له أن يقبل يمين المعتذر على الظاهر، ويكفل سريرته إلى الله عليمًا، ولكن النهي عن ترك الموافقة في الباطن، وفيه يتحقق رضى الله عليمًا (3)، ويؤيد هذا المعنى ما ذكر بالسنة النبوية، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَقَالَ: "لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصِدُقْ، وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيُرِضْ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللَّهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ". (4)

* ملحوظة:

قال الله ﷻ في الآية: ﴿ قَاتِلِ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ ولم يقل القوم الكافرون؟ وذلك لأن الحق سبحانه أوضح لنا: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء: 145]، أي أن مكان المنافق في النار أسفل من مكان الكافر، وكيف يكون المنافق فاسقاً مع أن المؤمن قد يكون فاسقاً؟ فالمؤمن قد يفسق بأن يرتكب كبيرة من الكبائر، وسبحانه يقول: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ﴾ [المائدة: 38].

فالمؤمن قد يسرق، وقد يزني أيضاً، وما دام سبحانه قد جرم الفعل، ووضع له عقوبة؛ فمن الممكن أن يرتكبه المؤمن، ولكن علينا أن نفرّق بين الفاسق والعاصي، فمن يرتكب الكبائر فهو فاسق، ومن يرتكب الصغائر فهو عاص، ووصف الله ﷻ المنافقين بالفسق ويتضح من أن الكفر، إنما هو كفر بمحمد ﷺ وبالإسلام، والفسق إذا جاء مع الكفر فهو ليس فسق ارتكاب المعصية والإنسان على دين الإسلام، لكنه الخروج عن الطاعة حتى في الأديان التي يتبعها أي قوم، فالأديان كلها تضم قدراً من القيم، وأتباعها محاسبون على القيم التي في أديانهم، لكنهم أيضاً يفسقون ويخرجون عنها. (5)

(1) ينظر: أضواء البيان، الشنقيطي 1/ 414، والتفسير الواضح 5/2، والتفسير المنير 10/11.

(2) ينظر: أنوار التنزيل 3/ 94، والسراج المنير، شمس الدين 1/ 643، والتفسير المظهر 4/ 283، والتفسير المنير 10/11.

(3) ينظر: تأويلات أهل السنة 5/ 455، والنكت الدالة على البيان، القصاب 1/ 570-571.

(4) سنن ابن ماجه 1/ 679، كتاب: الكفارات، باب: من حلف بالله فليرض، حديث رقم: 2101، [حكم الألباني: صحيح].

(5) ينظر: تفسير الشعراوي 9/ 5434-5435.

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآية إلى تحقيق المقاصد التالية:

﴿ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

يتضح من الآية الكريمة أنه "لا ينفع رضا الناس مع سخط الله ﷻ، فإن المعول عليه عند العقلاء وأهل الإيمان الحق التماس رضا الله ﷻ"⁽¹⁾، وعن عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ التَّمَسَّ رِضَاءَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ"⁽²⁾.

﴿ تعليم الله ﷻ عباده منهج الحياة:

"كفى بالله ﷻ علماً ومعلماً للمؤمنين منهج الحياة الاجتماعية وطريق معاملة المنافقين وغيرهم من أصحاب البدع المنكرة، فعلى المؤمنين أن يبغضوا المنافقين، وألا يرضوا عنهم لسبب دنيوي"⁽³⁾، لأن الحياة الدنيا فانية زائلة وما يبتغيه المؤمن هو رضا الله ﷻ حتى ينال الریح والفوز في الآخرة، وهذا لا يقتصر على زمنه ﷻ حيث إنه لا زال من الناس من يبتغي إرضاء الناس عوضاً عن إرضاء الله ﷻ وذلك لأسباب دنيوية مادية حقيرة وهناك من العلماء أيضاً أو أشباه العلماء إن صح التعبير من يفتون ويتحدثون بما لا يرضي الله ﷻ أو حتى بما لا يرضي ضميرهم وذلك لإرضاء أمرائهم ولكسب قلوب زعمائهم والحفاظ على مكانتهم التي ستكون حجة عليهم يوم القيامة لا حجة لهم، وهم اليوم كثر وذلك لتعدد المغريات وابتعاد بعضهم عن الجوهر الحقيقي للإفتاء وللدعوة ألا وهو الدعوة إلى الله ﷻ حتى أنهم نسوا دعاءه إلى دين الله ﷻ لا قضاة على عباد الله ﷻ، فأصبحوا يقولون هذا مسلم وذاك كافر، هذا أشعري وذاك وهابي، إلى آخره من هذه المسميات التي يلقي بها قائلها ليفرق بين العباد وليشكك كل طرف في عقيدة الآخر وهؤلاء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: "يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَعُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُهُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُهُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُهُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَعُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ"⁽⁴⁾.

(1) التفسير المنير 11/11.

(2) سنن الترمذي 4/188، أبواب: الزهد، باب: منه، حديث رقم: 2414، [حكم الألباني: صحيح].

(3) التفسير الوسيط، الزحيلي 1/907.

(4) صحيح مسلم 2/748، كتاب: الزكاة، باب: التحريض على قتل الخوارج، حديث رقم: 1066.

المطلب الخامس

كفر بعض الأعراب ونفاقهم

قَالَ تَعَالَى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: 97-98].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن ذكر الله ﷻ أحوال العرب مؤمنينهم ومنافقيهم بالمدينة، بين حال من كان خارجاً عنها من الأعراب وهم منافقوا الحضر، حيث إنه ذكر أحوال الأعراب خارج المدينة وهم سكان البادية، وأخبر أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين وذلك ليُعرف الجميع.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

لم يذكر سبب نزول الآية الكريمة، ولكن ذكر عن ابن عباس قال: نزلت الآية في أعراب أسد، وغطفان، وأعراب من حول المدينة⁽²⁾، وزاد في بعض الكتب وتميم.⁽³⁾

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

الْأَعْرَابُ: "جمع أعرابي وهو من سكن البادية".⁽⁴⁾

وَأَجْدَرُ: أي أحق وأولى، وأخلق وَأَحْرَى⁽⁵⁾، يقال فلان جدير بكذا أي خليق به وأنت جدير أن تفعل كذا، وأصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء يقال هو جدير وأجدر وحقيق وأحق.⁽⁶⁾

حُدُودَ: المقصود بها عدة أوجه، هي:

أ. الفرائض، وشرائع الإسلام.

(1) ينظر: التفسير المنير 11/ 14، وأيسر التفاسير 2/ 417، وتفسير المراغي 11/ 7، وتفسير القرطبي 8/ 231، وفتح البيان 5/ 376، وفتح القدير 2/ 450.

(2) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، النيسابوري 2/ 519، وزاد المسير 2/ 290، والتفسير المنير 11/ 12، وبحر العلوم 2/ 82.

(3) تفسير البغوي 2/ 380، الكشاف 2/ 303، والبحر المحيط 5/ 491.

(4) أيسر التفاسير 2/ 417.

(5) ينظر: أيسر التفاسير 2/ 417، وبحر العلوم 2/ 82، وتفسير السمعي 2/ 340، والجواهر الحسان 3/ 207.

(6) ينظر: فتح البيان 5/ 378، وفتح القدير 2/ 450.

ب. قيل الوعيد على مخالفة الرسول ﷺ، والتأخر عن الجهاد.

ج. مقادير التكليف والأحكام.

د. قال قتادة⁽¹⁾: أقل علماً بالسنن.

وصف العرب بأنهم جاهلون لا ينافي صحة الاحتجاج بألفاظهم وأشعارهم على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ إذ وصفهم بالجهل إنما هو في أحكام القرآن لا في ألفاظه، ونحن لا نحتج بلغتهم في بيان الأحكام بل في معاني بيان الألفاظ لأن القرآن الكريم والسنة النبوية جاءا بلغتهم قاله الكرخي.⁽²⁾

مَغْرَمًا: أي غرامة وخسراناً، وهلاكاً⁽³⁾، والتزام ما لا يلزم⁽⁴⁾، وفيها وجهان، هما:

أ. ما يدفع من الصدقات.

ب. ما ينفق في الجهاد مع الرسول ﷺ مغرمًا ، والمغرم التزام ما لا يلزم، ومنه قوله تعالى:

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: 65] أي لازماً.⁽⁵⁾

وَيَرْبِصُ: "ينتظر".⁽⁶⁾

الدَّوَائِرُ: جمع دائرة: ما يحيط بالإنسان من مصيبة أو نكبة، وهي الحوادث والآفات، والهلاك⁽⁷⁾، أو تصارييف الزمان ونوائبها التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر.⁽⁸⁾

وَيَرْبِصُ بِكُمْ الدَّوَائِرُ: تربص الدوائر هنا تحتل عدة وجوه، هي:

أ. موت الرسول ﷺ، ويظنون أن الإسلام يموت بموته ﷺ.

(1) قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ بْنِ قَتَادَةَ: أبو الخطاب السدوسي البصري (61 - 118هـ): مفسر حافظ ضرير وُلِدَ أُمِّهِ،

أحد الأئمة الأعلام الحافظ عن أنس وابن المسيب، وعنه أيوب وحميد الأوزاعي، قال الإمام أحمد ابن حنبل:

قتادة أحفظ أهل البصرة، وكان مع علمه بالحديث، رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب.

[ينظر: لسان الميزان، العسقلاني 341/7، والأعلام 189/5].

(2) ينظر: البحر المحيط 491/5-492، أيسر التفاسير 417/2، الجواهر الحسان 207/3.

(3) ينظر: تفسير ابن كثير 4/202، وأيسر التفاسير 417/2، وتفسير المراغي 11/7.

(4) ينظر: تفسير السمعاني 2/340، تفسير البغوي 2/380.

(5) ينظر: النكت والعيون 2/393-394.

(6) تفسير البغوي 2/380.

(7) ينظر: تفسير ابن كثير 4/202، وأيسر التفاسير 417/2.

(8) ينظر: تفسير المراغي 11/7، وتفسير البغوي 2/380، أيسر التفاسير 417/2.

ب. ظهور المشركين واليهود وانتصارهم على المسلمين، وإعلان الكفر والعصيان.⁽¹⁾

ج. انتهاز الفرصة المناسبة، والانتقام من المسلمين.⁽²⁾

الراجح: ترى الباحثة بأن كل هذه الأوجه السابق ذكرها تُعلل النفسية الخبيثة والجهالة التي كانوا عليها، وأمانتهم التي لم تتحقق، وأحلام اليقظة التي كانوا بها، لأن الله ﷻ ينصر الحق دائماً.

2. الإعراب:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجْدُرُّ﴾ عطفة على أشدّ، وألّا في موضع نصب بأن كما يقال: أنت خليق أن تفعل ولا يجوز أنت خليق الفعل، لأن (ما) بعد أن يدلّ على أنّ الفعل مستقبل يجعل الحذف عوضاً، وقيل أنه يوجد بها حذف لطول الكلام.⁽³⁾

وقوله تَعَالَى: ﴿وَأَجْدُرُّ أَلَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (أن) في موضع نصبٍ، لأن الباء محذوفة من أن، والمعنى أَجْدُرُّ بترك العلم، تقول: أنت جدير أن تفعل كذا، وبأن تفعل كذا.⁽⁴⁾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَسْخَرُ﴾ " (مِن) في موضع رفع بالابتداء".⁽⁵⁾

﴿مَا يُفِيقُ مَعْرَمًا﴾ مفعول ثانٍ ليتخذ، والتقدير ينفقه، لأنه بمعنى الجعل والاعتقاد والزمع أي يعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة وخسران، فحذفت الهاء لطول الاسم ﴿مَعْرَمًا﴾.⁽⁶⁾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِكُرِّ الدَّوَابِّ﴾ الباء متعلقة بكلمة ﴿وَيَتَرَبَّصُّ﴾ وبذلك تكون حالاً من الدوائر.⁽⁷⁾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ "مبتدأ مؤخر، وخبر مقدم، والدائرة في الأصل: مصدر أو اسم فاعل من دار يدور".⁽⁸⁾

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 16 / 126، والكشف والبيان 5 / 82، والنكت والعيون 2 / 394، وتأويلات أهل السنة

457 / 5، وزاد المسير 2 / 290، وتفسير المنار 11 / 9.

(2) ينظر: النكت والعيون 2 / 394.

(3) ينظر: إعراب القرآن 2 / 131، وزاد المسير 2 / 290.

(4) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج 2 / 465.

(5) إعراب القرآن 2 / 131.

(6) ينظر: تفسير القرطبي 8 / 234، وغرائب القرآن، النيسابوري 3 / 521، وإعراب القرآن 2 / 131.

(7) ينظر: التبيان 2 / 656.

(8) التفسير المنير 11 / 12.

3. الجوانب البلاغية:

أ. قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ﴾ و﴿وَأَجْدَرُ﴾ اسما تفضيل ولم يذكر ما يدل على المفضل عليه، فجاز أن يكونا على ظاهرهما فيكون بذلك المفضل عليه أهل الحضر، وهم كفار و منافقوا المدينة، وهذا الذي أجمع عليه المفسرين.⁽¹⁾

ب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ إضافة الدائرة إلى السوء للمبالغة والتأكيد والبيان، كقولهم: شمس النهار، ورجل صدق.⁽²⁾

4. القراءات:

قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾، كلمة (السوء) فيها قراءتان على النحو الآتي:

أولاً: قرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين المشددة (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ).

التوجيه: الذين قرأوا بهذا الوجه أن المراد بـ (السوء): الهزيمة والشر، والبلاء، وحينئذ يكون المعنى: عليهم دائرة الهزيمة، والشر، والبلاء.

ثانياً: قرأ الباقر بفتح السين المشددة (السوء).

التوجيه: وجه هذه القراءة أن المراد بـ (السوء): الرداءة، والفساد، ويكون المعنى: عليهم دائرة الفساد.⁽³⁾

رابعاً: المعنى الإجمالي:

الآيات تتحدث وتكشف عن المناقين، وإعدادهم للتوبة أو للقضاء عليهم ففي الآية الأولى قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أي جنسهم لا كل واحد وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67]، إذ ليس كلهم كما ذكر على ما ستحيط به خبراً⁽⁴⁾، وذكر الأعراب هنا بيان "مستأنف لحال سكان البادية من المنافقين؛ لأنه مما يسأل عنه بعدما تقدم في مناقبي الحضر من سكان البادية وغيرها من القرى".⁽⁵⁾

(1) ينظر: التحرير والتتوير 11 / 11.

(2) ينظر: التفسير المنير 11 / 12.

(3) ينظر: الوافي في شرح الشاطبية، عبد الفتاح القاضي ص: 283، وشرح طيبة النشر، ابن الجزري 2 / 361، وفريدة

الدهر، محمد إبراهيم سالم 2 / 848.

(4) ينظر: فتح القدير 2 / 450.

(5) تفسير المنار 7 / 11.

قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ بين أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر غيرهم، ومن نفاق غيرهم، والسبب في ذلك يعود إلى عدة أمور، منها أنهم أقسى قلوباً وأغلظ طباعاً وأجفى قولاً من أهل الحضرة، ولأنهم أبعد عن سماع كتاب الله ﷺ وما جاءت به رسله وأوحش فعلاً، وطبيعة نشأتهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم⁽¹⁾، "وهم أحق وأخلق ﴿أَلَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من الشرائع والأحكام والفرائض، وما أمر به من الجهاد لبعدهم عن مواطن الأنبياء وديار التنزيل، ومشاهدة المعجزات، ومعاينة ما ينزل عليه من تضاعيف الكتاب والسنة".⁽²⁾

روى الأعمش، عن إبراهيم قال: كان زيد بن صوحان جالساً يحدث وقد أصيبت يده يوم نهاوند، فجاء أعرابي وقال: إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتربيني، فقال له زيد: أو ليس الشمال؟ قال الأعرابي: والله لا أدري الشمال تقطع أو اليمين؟ فقال زيد: صدق الله ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾⁽³⁾، "وزيد بن صوحان من كبار التابعين، وهو الذي ذكر رسول الله ﷺ في شأنه أن يده تسبقه إلى الجنة".⁽⁴⁾

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ عليمٌ بأحوال مخلوقاته على العموم وهؤلاء منهم، وعليمٌ بما في قلوب أهل البدو والحضر، وأصحاب الوبر والمدر⁽⁵⁾، و﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يجازيهم به من خير وشر، وفيما قسم بين عبادته، وحكمه في تدبيره إياهم، وفي حلمه عن عقابهم، مع علمه بسرائرهم، وخذاعهم أوليائه، حيث وضع الخلائق بموضع يدل على وحدانيته وألوهيته، لو تدبروا فيه ونظروا.⁽⁶⁾

جملة: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييل لهذا الإفصاح عن دخيلة الأعراب وخلقهم.⁽⁷⁾

بعدما ذكر الله ﷺ في الآية السابقة صفة من صفات منافقي الأعراب ذكر هنا صفة جديدة وهي أنهم ينفقون أموالهم رياء وسمعة وتقرباً للمسلمين، وهو أنه يوجد من بعض الأعراب من يجعل ما ينفقه في الجهاد غرامة لزمته وخسارة لحقته في ماله وذلك لأنه لا يؤمن بالثواب والعقاب الأخروي، ولا يعلمون حجج الله ﷺ في ألوهيته وبعثة رسوله لقلة نظرهم وسوء فهمهم، ولذا لا حق لهم في الفياء،

(1) ينظر: تفسير القرطبي 231/8، والنكت والعيون 393/2، وفتح القدير 450/2، وتفسير المنير 13/11،

والبحر المديد 2/420، وتفسير الشعراوي 9/5437.

(2) فتح القدير 2/450.

(3) ينظر: الكشف والبيان 82/5، وبحر العلوم 83/2، والمحزر الوجيز 73/3، وفي ظلال القرآن 3/1700.

(4) تفسير السمعاني 2/340.

(5) ينظر: فتح البيان 378/5، وتأويلات أهل السنة 456/5، وغرائب القرآن 521/3، والبحر المحيط 491/5.

(6) ينظر: فتح البيان 5/378، وفتح القدير 2/450، وجامع البيان 14/430، وتأويلات أهل السنة 5/457.

(7) ينظر: التحرير والتنوير 13/11.

والغنيمة إلا أن يجاهدوا أو يتحولوا إلى الحواضر ويتزكوا البادية⁽¹⁾، وبعضهم يعده خسارة لأنهم لا يحتسبونه عند الله ﷻ، ولا يرجون عليه ثواباً، وينفقه رياءً، فيثقل مثل الذي ليس بحق⁽²⁾.

قوله ﷻ: ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ﴾ أي وينتظر بكم أيها المسلمون الدوائر متى تنزل بكم، وهي انقلاب النعمة إلى ضدها فيتخلص منكم ومن الإنفاق لكم⁽³⁾، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾ الجملة دعاء عليهم، جزاءً على ما يتربصون بالمؤمنين⁽⁴⁾، والأمر منعكس والسوء والبلاء والحزن دائر عليهم⁽⁵⁾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ السمع والعلم يتناسبان هنا مع جو التريص بالسوء من أعداء المسلمين، والنفاق الذي تحتويه جوانحهم، وتخفيه ظواهرهم⁽⁶⁾، والله سميع لأقوالهم عليم بناوياهم وضماثرهم فلذا دعا عليهم بما يستحقون⁽⁷⁾، وعليماً بهلاكهم، وبمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان⁽⁸⁾.

من خلال الآية الكريمة يتضح أنهم "خبثت عقائدهم فانتظروا للمسلمين ما تعلقت به مناهم من حلول المحن بهم، فأبى الله ﷻ إلا أن يحيق بهم مكرهم، ولهذا قيل في المثل: إذا حفرت لأخيك فوسّع فربما يكون ذلك مقيلك! ويقال من نظر إلى ورائه يوفق في كثير من تدبيره ورأيه"⁽⁹⁾، لأن السلاطين لا يريدون غالباً النصح وصراحة القول، فلا يتقرب منهم إلا المراؤون عادة، ومن يريدون تحقيق مصالح شخصية⁽¹⁰⁾.

يتضح من خلال الآيات بأن الأعراب أسرع الناس في الفتن ولمسارعتهم فيها عدة أسباب، منها:

- سرعة اغترارهم بما يتعلمونه من القرآن الكريم، فيظنون أنهم صاروا علماء بقليل من العلم، وقلة تفقُّهم.
- جفاؤهم للعلماء، وترك التلقي عنهم والافتداء بهم.

(1) ينظر: أيسر التفاسير 2 / 417-418، تفسير المنار 11 / 9، وتفسير المراغي 11 / 8.

(2) ينظر: فتح القدير 2/451، وأنوار التنزيل 3/95، ومدارك التنزيل 1/704، والتفسير المنير 11/15، والنكت والعيون 2/393-394، وفتح البيان 5/379،

(3) ينظر: أيسر التفاسير 2 / 417، وتأويلات أهل السنة 5 / 457.

(4) أيسر التفاسير 2 / 418.

(5) ينظر: جامع البيان 2 / 95، والوسيط في تفسير القرآن المجيد 2 / 519، وتفسير البغوي 2 / 380.

(6) ينظر: في ظلال القرآن 3 / 1701.

(7) ينظر: أيسر التفاسير 2 / 418، والوسيط في تفسير القرآن المجيد 2 / 519، والبحر المحيط 5 / 493، وغرائب القرآن 3 / 521، ومفاتيح الغيب 16 / 126.

(8) ينظر: بحر العلوم 2 / 83.

(9) لطائف الإشارات 2 / 57.

(10) ينظر: التفسير المنير 11/14، وتفسير المراغي 11/8.

- تمكن العصبية القلبية من نفوسهم.
- حدة طباعهم ونفورهم من المدنية والخلطة، وإساءة الظن بالآخرين ممن لا يعرفونهم، وهذا من طباع الأعراب في كل زمان ومكان.
- تشددهم في الدين، وتنطعهم بما ليس لهم به علم، لذلك صار غالب الخوارج من هذا الصنف.⁽¹⁾

خامساً: مقاصد وأهداف النص :

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ التحذير من سُكنى البادية:

للبيئة أثر كبير في تكوين طبيعة الإنسان، وفي رسم معالم شخصيته من صفات خلقية وخلقية، وتحديد مواقفه من الحياة، والبادية وما فيها من جفاف، وجذب وقسوة، قد طبعت الكائنات فيها- وبخاصة الإنسان- بطابعها الجاف المجذب القاسي، وفي المثل: "من بدا جفا".⁽²⁾

ذكر الجزائري: "أن من الأعراب المؤمن والكافر والبر والتقي والعاصي والفاجر سكان المدن إلا أن كفار البادية ومنافقيها أشد كفراً ونفاقاً لتأثير البيئة عليهم".⁽³⁾

◀ بيان واقع البداوة في العصر الحالي:

"الإسلام يُشَنِّع على البداوة، وإذ يصف أهلها بالنفاق الكريه، والكفر الغليظ، والجهل الفاضح، فالإسلام بهذا يدعو إلى العمران، ويحرض على المدنية، ويبغض إلى الناس العزلة والوحشة وقبول الحياة، كما هي، من غير معالجة لأشوائها، ووضع بصمة الإنسان العالم الحكيم عليها".⁽⁴⁾

هذا ما نلاحظه في واقعنا الذي نعيشه اليوم أن من أهل البادية من هو أشد كفراً ونفاقاً وتشدداً وتعنتاً، نعم، وهم أشد على الإسلام من الكفر ونحن نرى أنهم يثبتون القواعد العسكرية الكبرى للأمريكان - العدو الأول لأمة الإسلام -، حتى أن أموال الأعراب وخيرهم ذاهب كله للصليبيين والكفار، وهم يعملون بخلاف وصية النبي ﷺ: "أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بَنَحْوِ مَا كُنْتُمْ أُجِيرُهُمْ".⁽⁵⁾

(1) ينظر: تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ؓ، الصلابي ص: 320.

(2) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب 6/ 875-876.

(3) أيسر التفاسير 2/ 418.

(4) التفسير القرآني للقرآن 6/ 875-876.

(5) صحيح البخاري 4/ 99، كتاب: الجزية، باب: إخراج اليهود من جزيرة العرب، حديث رقم: 3168.

المطلب السادس حقيقة إيمان الأعراب

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 99].
أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعدما بيّن الله ﷻ أنه حصل في الأعراب من يتخذ إنفاقه في سبيل الله مغرمًا، ورياءً وتقيةً، بيّن هنا أن فيهم قوماً مؤمنين صالحين مجاهدين يؤمنون بالله ﷻ واليوم الآخر، ويتخذ إنفاقه في سبيل الله ﷻ مغنماً، وليس مغرمًا.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

نزلت الآية الكريمة في بني مقرن من مزينة قاله مجاهد، وقال: "عبد الرحمن بن مغفل بن مقرن: كنا عشرة ولد مقرن فنزلت فينا: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾"⁽²⁾ يريد: الستة والسبعة الإخوة على الخلاف في عددهم.
قال الضحّاك⁽³⁾: "نزلت في عبد الله ذي النجادين ورهطه".
قال الكلبي: في أسلم وغفار وجهينة.⁽⁴⁾

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لَأَسْلَمُ، وَغِفَارُ، وَشَيْءٌ مِنْ مُزَيْنَةَ، وَجُهَيْنَةَ، أَوْ شَيْءٌ مِنْ جُهَيْنَةَ، وَمُزَيْنَةَ، خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ، قَالَ أَحْسِبُهُ قَالَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنْ أَسَدٍ، وَغَطَفَانَ، وَهَوَازِنَ، وَتَمِيمٍ".⁽⁵⁾

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 126 / 16، واللباب في علوم الكتاب 18 / 10، والكشف والبيان 82/5 - 83.

(2) الإصابة في تمييز الصحابة، العسقلاني 5 / 187.

(3) الضحّاك بن مزاحم الهلالي الخراساني: أبو محمد، صاحب التفسير، حدّث عن ابن عباس وابن عمر وأبي سعيد الخدريّ وأنس ابن مالك وسعيد بن جبيرة وعطاء وطاؤس وغيرهم، وثقّه أحمد بن حنبل وابن معين وضعفه يحيى القطان وغيره، واحتج به النسائي وغيره، روى له الأربعة، توفي سنة 105 هـ. [ينظر: الوافي بالوفيات، الصفدي 16 / 207].

(4) ينظر: الكشف 5 / 83، واللباب في علوم الكتاب 10 / 183، والجواهر الحسان 3 / 208، ولباب التأويل 2 / 398، والمحرم الوجيز 3 / 74.

(5) صحيح مسلم 7 / 179، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: فضل غفار وأسلم ومزينة وجهينة، حديث رقم: 6530.

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

مَا يُنْفِقُ: فيها قولان:

أ. يتخذ ما ينفق في الجهاد.

ب. يتخذ ما ينفق في الصدقة.⁽¹⁾

الراجح: والذي نراه أن كلا القولين محتملان وصحيحان وخير شاهد على ذلك سيرُ الرسول ﷺ في الغزو كانت تبني على نفقات الصحابة ﷺ والمؤمنين.

قُرْبَتٍ: "جمع قرية وهي المنزلة المحمودة"⁽²⁾، "والمكانة كالقرب في المكان والقرابة في الرحم"⁽³⁾، وهو ما يدني من رحمة الله، ورضاه ومحبته.⁽⁴⁾

عِنْدَ اللَّهِ: يحتمل وجهين:

أ. أن صرف النفقات "تقريبه من طاعة الله ﷻ ورضاه.

ب. أن ثوابها مذخور لهم عند الله ﷻ فصارت قربات عند الله".⁽⁵⁾

وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ: الصلاة تأتي بمعنيين، هما:

أ. دعاء الرسول ﷺ لهم بالخير، والبركة.

ب. استغفار النبي ﷺ لهم.⁽⁶⁾

رَحْمَتِهِ: الرحمة هنا فيها قولان:

أ. قال ابن عباس ؓ: في جنته، ورضوانه⁽⁷⁾، وسمى الله ﷻ جنته رحمة لما برحمته

(1) ينظر: زاد المسير 2/ 291.

(2) أيسر التفاسير 2/ 417.

(3) تفسير المراغي 11/ 7.

(4) ينظر: جامع البيان 14/ 432، والوسيط في تفسير القرآن المجيد/ 519.

(5) النكت والعيون 2/ 394.

(6) ينظر: فتح القدير 2/ 452، وجامع البيان 14/ 432، والدر المنثور، جلال الدين السيوطي 4/ 268،

والوجيز، الواحدي النيسابوري ص: 478، وأيسر التفاسير 2/ 417، والنكت والعيون 2/ 394.

(7) ينظر: زاد المسير 2/ 291، ومدارك التنزيل 1/ 704، والتفسير الوسيط، الزحيلي 1/ 909.

يدخلون، لا استجاباً لهم منه بذلك، بل رحمة منه فضلاً⁽¹⁾، ولأنها نعيم مقيم وأعلى وأسمى درجة ورحمة يعلو الإنسان إليها.

ب. يراد بها الرحمة الشاملة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، لتشمل الجنة وغيرها ويكون المعنى أنهم باتخاذهم ما ينفقون والصلوات تحيط بهم رحمة الله ﷻ لا يخرجون منها إلا إليها.⁽²⁾

ترى الباحثة بأن الله ﷻ يرحمهم بهدايتهم إلى صالح الأعمال مثل الإنفاق في سبيل الله ﷻ، وتقديم الصدقات، وهذه كلها مؤدية إلى حسن الختام والمصير، ويجعلهم أهلاً لرضوان وفضل الله ﷻ، وإحسانه ومدده، وإدخالهم جنته.

2. الإعراب:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُرْبَاتٍ﴾ مفعول ثانٍ ليتخذ، والمعنى: أن ما ينفقه سبب لحصول القربات.⁽³⁾

قَالَ تَعَالَى: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في هذا الظرف ثلاثة أوجه:

أ. أنه متعلق بـ (يتخذ).

ب. أنه ظرف لـ (قربات).

ج. أنه متعلق بمحذوف، لأنه صفة لـ (قربات).

الراجح: أن الوجه الأول هو أظهرها.⁽⁴⁾

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ "معطوف على ﴿مَا يُنْفِقُ﴾ تقديره: (وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ قُرْبَاتٍ)".⁽⁵⁾

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ يحتمل أن يعود الضمير في (إنها) إلى:

أولاً: صلوات الرسول ﷺ.

ثانياً: الإنفاق والتصدق في سبيل الله ﷻ.

(1) ينظر: تأويلات أهل السنة 459/5.

(2) ينظر: زهرة التفاسير 7/3426.

(3) ينظر: التبيان 2/656، والكشاف 2/303، ومدارك التنزيل 1/704.

(4) ينظر: اللباب 10/183، والتبيان 2/656.

(5) التبيان 2/656.

من خلال الاحتمالين السابقين يتضح أنّ كلاهما فيه قرينة لهم عند الله ﷻ. (1)

3. الجوانب البلاغية:

قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ مجاز مرسل أي في جنته، من باب إطلاق الحال وإرادة المحل أي محل الرحمة، وهي الجنة. (2)

4. القراءات:

قَالَ تَعَالَى: ﴿الْأَيْمَانُ قَرِيبَةٌ لَهُمْ﴾ "قرأها ورش: بتحريك الراء بالضم فتكون قراءة غيره بإسكانها". (3)

5. الناسخ والمنسوخ:

قيل بأن قوله تَعَالَى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ هذه الآية والتي تليها، وهي قوله تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى نهاية الآية والقول بأن هذا جميع ما في السورة من المنسوخ. (4)

الراجح: هذا القول مما ينبغي ويجب على السامع والقارئ أن يتصامم عنه، ولا يسمع. (5)

وما تميل إليه الباحثة وترتضيه بأنه لا يوجد آية نسخت الآيات التي قبلها في هذا الموضوع، وما يمكن القول به أنه كما كان يوجد في المدينة المنورة صحابة خالصي الإيمان، ويوجد منافقون مثل عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق، وغيره، فإنّ في الأعراب أيضاً من كان منافقاً يغرر بالمسلمين ويدبر لهم المكائد، ومنهم من كانوا مخلصين في إيمانهم، صادقين لوعدهم، ثابتين على الحق.

أيضاً ذكر القول في الكتب بصيغة التمريض - قيل -، وهذا دليل على ضعف الرواية بالنسخ.

(1) ينظر: لباب التأويل 2 / 398.

(2) ينظر: التفسير المنير 11 / 12، وصفوة التفاسير 1 / 562.

(3) الوافي في شرح الشاطبية ص: 283.

(4) ينظر: الناسخ والمنسوخ، المقري ص: 101، والناسخ والمنسوخ، ابن حزم ص: 40، والناسخ والمنسوخ وتنزيل القرآن، الزهري ص: 29.

(5) ينظر: جمال القراء وكمال الإقراء، علم الدين سخاوي ص: 416.

رابعاً: المعنى الإجمالي:

ذكر في المطلب السابق صفتين من صفات الأعراب المنافقين، وفي هذا المطلب صفة جديدة من صفات الأعراب، فبعض آخر من الأعراب يؤمنون إيماناً صحيحاً بالله ﷻ ، وذكر ﷻ الإيمان بالله ﷻ وهو الإيمان بوحديته، وأنه الخالق من غير شريك، والواحد في صفاته من غير مثل، والمتفرد بالألوهية والعبادة وحده ﷻ، والإيمان بأن له رسلاً أرسلهم إلى خلقه ويؤيدهم بمعجزات باهرة تدل على أنهم يتحدثون عن الله ﷻ، وأنه أرسل محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فذكر الإيمان بالله ﷻ يقتضي الإيمان برسوله عامة ورسالة محمد ﷺ خاصة، قال تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هو يوم القيامة وما قبله من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب، فكل ذلك إيمان باليوم الآخر، وهو إيمان بأن الإنسان لم يخلق عبثاً، وأنه محاسب على كل صغيرة وكبيرة، وأن الدنيا قنطرة الآخرة، وأنها ممر للحياة الآخرة.⁽¹⁾

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي نيتهم بالإنفاق ابتغاء سبيل الله ﷻ والقربة منه.⁽²⁾

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ الصلوات هنا تأتي بمعنى الدعاء، وفيها توضيح بأن نفقاتهم وسيلة للتوصل والحصول على دعاء الرسول ﷺ، ففي دعائه لهم خير في الآخرة حيث النجاة من النار، وخير الدنيا في أرزاقهم ومنح الله ﷻ لهم، لأن الرسول ﷺ كان إذا أتاه المؤمن بركته أو صدقته يدعو له بالخير والبركة⁽³⁾، ومن الأدلة التي حدثت وتؤكد ذلك ما ذكر في الصحيحين عن عبد الله بن أوفى ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قومٌ بصدقتهم قال: "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ"، فَأَتَاهُ أَبِي بِصِدْقَتِهِ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى"⁽⁴⁾، وصلوات الرسول ﷺ طمأنينة لهم وبراءة من النفاق؛ لأنه كان لا يدعو لأهل الكفر والنفاق، فإذا دعا لهؤلاءِ وصلّى عليهم كان ذلك طمأنينة لقلوبهم، وشهادة لهم بالبراءة من النفاق؛ وعلى ذلك يخرج قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: 103]، أي: "تسكن قلوبهم بصلاة الرسول ﷺ وتطمئن بأنهم ليسوا من أهل النفاق، وأنهم برآء من ذلك"⁽⁵⁾، ومن المعلوم أن الصلاة من الله ﷻ على عباده رحمة وخير

(1) ينظر: أيسر التفاسير 2/ 418، والكشاف 2/ 303، وزهرة التفاسير 3425/7.

(2) ينظر: زاد المسير 2/ 291.

(3) ينظر: أيسر التفاسير 2/ 418، والكشاف 2/ 303.

(4) صحيح البخاري 2/ 129، كتاب: الزكاة، باب: صلاة الإمام، ودعائه لصاحب الصدقة، حديث رقم: 1497.

(5) تأويلات أهل السنة 5/ 458.

وبركة، ومن النبي ﷺ والملائكة دعاء، ومن الناس عبادة.⁽¹⁾

ثم بين الله ﷻ بأن ما ينفقه هذا النوع من الأعراب تقرباً إليه مقبول وواقع على الوجه الذي أرادوه، وهذه شهادة منه ﷻ للمتصدق في سبيله بصحة ما اعتقد وهي رجاؤه في أن تكون نفقته قربات من الله ﷻ وصلوات من الرسول ﷺ⁽²⁾، فأخبر الله ﷻ بقبولها خبراً مؤكداً باسمية الجملة، وحرفي التنبيه والتحقيق، وفي هذا من التطبيب لخواطرهم، والتطمين لقلوبهم ما لا يقادر قدره مع ما يتضمنه من النعي على من يتخذ ما ينفق مغرماً، والتوبيخ له بأبلغ وجه.⁽³⁾

ذكر في هذه الآية ما يقابل ما ذكر في الآية السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَرْبِصُ بِكُمُ الدَّوَابُّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [التوبة: 98]، حيث إنه أخبر أن ما يترصبون به من الدوائر عائد عليهم، وأخبر هنا أن ما ينفق المؤمنون قربة لهم عند الله ﷻ.⁽⁴⁾

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ اختتم الله ﷻ الآية الكريمة بهذا القول "لعل واحداً ممن يسمع هذا؛ يظن أن الجزاء والقربى والدخول في رحمة الله خاصٌّ بمن لم يذنب ذلك أبداً"⁽⁵⁾، ويؤكد الله ﷻ وعده لهم بإدخالهم في رحمته وهي الجنة فإنه يغفر ذنوبهم أولاً، ويدخلهم الجنة ثانياً، هذه سنته ﷻ في أوليائه، يطهرهم ثم ينعم عليهم بجواره، وفيها اختتام بما يفتح التوبة للأعراب والعودة إلى الله ﷻ.⁽⁶⁾

يقول القشيري⁽⁷⁾: "الأعراب تنوعوا فمنهم من غشّ ولم يربح، ومنهم من نصح فلم يخسر، فأما الذين مذقوا [كذبوا] فهم في مهواة هوانهم، وأما الذين صدقوا ففي روح إحسانهم".⁽⁸⁾

(1) ينظر: تفسير القرطبي 235/8، والتفسير الوسيط، الزحيلي 909/1، وتفسير السمعاني 341/2، والمحرم الوجيز 74/3.

(2) ينظر: البحر المحيط 493/5، ومفاتيح الغيب 127/16، ومدارك التنزيل 704/1.

(3) ينظر: الكشاف 303/2، ومفاتيح الغيب 127/16، وفتح البيان 381/5.

(4) ينظر: تأويلات أهل السنة 458/5.

(5) تفسير الشعراوي 5442/9.

(6) ينظر: أيسر التفاسير 418/2، وزهرة التفاسير 3427/7.

(7) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري: النيسابوري الصوفي الزاهد، شيخ خرسان، ولد سنة 376، وتوفي

بنيسابور سنة 465 هـ، قرأ الأدب والعربية وسمع الفقه من محمد ابن بكر الطوسي، وبرز بين الأشاعرة وصنف

(التفسير الكبير) و(الرسالة المشهورة)، سمع الحديث ببغداد والحجاز، وكان يعظ ويملي الحديث، وكان ذا قدر

كبير وله شعر رقيق، [ينظر: تاريخ إربل، ابن المستوفي 2/360-361].

(8) لطائف الإشارات 57/2.

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآية إلى تحقيق المقاصد الآتية:

◀ الأعراب ليس كلهم سواء:

ليس الأعراب جميعاً على حال سواء، فإذا كانت الصحراء تنبت الشوك والحسك، وتؤوي الوحوش والحيات، فإنها تخرج العرار (نبت طيب الريح) والريحان، وتتحلّى بالطّباء والنّعام، وإذا كان في أعراب البادية، الجفافة، وأهل الوحشة والجهالة، فإن فيهم ذوى النفوس الرقيقة، والقلوب المتفتحة، وإن هؤلاء أشبه بالأنسام العليّة الرطبة، التي تهمس بها أنفاس الصحراء بين الحين والحين في آذان الأصائل والأشجار، فتبعث الرّوح والعافية في كيان الأحياء، التي كادت تهلك من لفحات الهجير، ووقدات السّموم، فيوجد في أعراب البادية الشعراء، والحكماء، وأصحاب الفراسة والألمعية التي تلمح بذكائها الفطري ما لا تلمحه العين المبصرة وراء المجهر، وتكشف بصدق حدسها وظنّها من خفايا النفوس، ما لا يكشفه عالم النفس بأدوات علمه، ومقاييس فنّه. (1)

◀ التقرب إلى الله ﷻ بالإنفاق:

فضل النفقة في سبيل الله ﷻ والإخلاص فيها عظيم وجليل، وينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق مثل: الانفاق بالصدقات والزكاة وغيرها، منشرح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنماً، ولا تكون مغرماً، وأن لا تكون من أعمال الرياء، حتى لا يحبط ويبطل أجر النفقة إذا لم تحتسب عند الله ﷻ، والحث على استشعار الاحتساب فيها، واتخاذها قرينة لله ﷻ. (2)

◀ السكن وأثره في جبل الشخصية:

ورد في الآية الكريمة الترغيب في سكن المدن لأنها محل العلم وسماع الوعظ، وفيها من يستعان بهم على الدين، وورد الترغيب أيضاً في سكن البادية والجبّال والفرار بالدين من الفتن، وخصوصاً في آخر الزمان، ولهذا اختار كثير من الصحابة والتابعين سكن البوادي كأبي نر، وسلمة بن الأكوع، وغيرهما ﷺ، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص والمقاصد، فمن كان مراده تحقيق الشريعة، وتحرير مسائل العلم الظاهر، والقيام بوظائف الدين، ولم يجد في البادية من يعينه على ذلك فسكنى المدن أفضل له، ومن كان مراده تصفية قلبه وإشراقه بأنوار الحقيقة، فسكن البادية، أوفق له، إن وجد من يستعين بهم على ذلك، لأنه كما نعلم بأن شواغل المدن

(1) ينظر: التفسير القرآني للقرآن 6/ 878.

(2) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص: 349، والنكت الدالة على البيان 1/ 572، وأيسر التفاسير 2/ 418.

كثيرة، وقد كثرت فيها الحظوظ والأهواء فلا تجد فيها إلا من هو مفتون بدنياً أو مبتلى بهوى، بخلاف أهل البادية فقد قلّ فيهم ذلك، وجلّ أهلها على الفطرة.⁽¹⁾

البيت أيضاً له أثر كبير في تربية الفرد وبناء شخصيته؛ فالبيت المسلم الذي يعمل على تربية الأبناء التربية السالحة يؤدي ذلك لبناء مواطن صالح متمسك بالشرع والعقيدة الإسلامية، والقيم والأخلاق السامية، وما البيت إلا صورة مصغرة عن المجتمع الذي نعيش فيه، فإن صلح الفرد الذي في البيت صلحت الأسرة، وصلاحها يؤدي إلى صلاح المجتمع ونموه ورفقيه.

◀ تميز الأعراب المؤمنين عن غيرهم:

إن الذين دخلوا الإسلام من هؤلاء الأعراب، من ذوى النظر، والحكمة، قد عرفوا هذا الدّين معرفة كاشفة، فزادتهم به بصائرهم استضاءة وتألّفاً، واستروحتم منه قلوبهم روح الطمأنينة واليقين، فصحبوا هذا الدين صحبة المؤاخاة والمخالطة، وعایشوه معيشة الأمن والعافية، فإذا أنفق هؤلاء المؤمنون من الأعراب نفقة في سبيل الله ﷻ احتسبوا قربات يتقربون بها إلى الله ﷻ، ويبتغون بها مرضاته، ويلتمسون منها صلوات الرسول ﷺ وبركات دعائه.⁽²⁾

نلاحظ من خلال ما سبق ذكره أن هذا يوجد جلياً في عصرنا الحالي حيث إنه يوجد من أهل البوادي من ينفق ماله في سبيل الله ويدعم المقاومة والجهاد إما بنفسه أو بالتبرع بالأموال للمقاومين والمجاهدين على الثغور مع الأعداء من يهود وأمريكان، ومنهم من تركوا القصور والأموال وعاشوا بين الجبال وتحملوا شظف الحياة ومشقاتها ابتغاء مرضاة الله ﷻ ولكسب الفوز بالجنان، ونسأل الله ﷻ أن يكون عملهم خالصاً لوجهه وأن يتقبل منهم ويجعله في ميزان حسناتهم.

(1) ينظر: البحر المديد 2/ 421.

(2) ينظر: التفسير القرآني للقرآن 6/ 878-879.

المبحث الثاني

المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية (100 – 106)

الفئات الإيمانية المختلفة في المدينة

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: الطبقات الإيمانية في المجتمع المدني.

المطلب الثاني: جزاء المنافقين في المدينة ومن حولها.

المطلب الثالث: ندم بعض من تخلف عن الغزوة.

المطلب الرابع: حكم أخذ الصدقة.

المطلب الخامس: قبول التوبة والأمر بالعمل الصالح.

المطلب السادس: الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

المطلب الأول

الطبقات الإيمانية في المجتمع المدني

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

عقب ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة الفرق المتلصقة بالنقائص على تفاوت بينها في ذلك بذكر القدوة الصالحة والمثل الكامل في الإيمان والفضائل والنصرة في سبيل الله ﷻ ليحتذي متطلب الصلاح حذوهم، ولئلا يخلو تقسيم القبائل الساكنة بالمدينة وحواليها وبواديها، عن ذكر أفضل الأقسام تنويهاً به، ولذلك تم استقراء الفرق وأحوالها، وما أعد لهم من الثواب، وبيّن أن فوق منزلتهم منازل أعلى وأعظم منها، وهي منازل السابقين الأولين.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

الْمُهَاجِرِينَ: هم الذين فارقوا منازلهم وأوطانهم، في سبيل الله ﷻ.⁽²⁾
وَالْأَنْصَارِ: الذين نصرروا رسول الله ﷺ على أعدائه الذين كانوا في المدينة وأيدوا وآووا أصحابه ﷺ، وقد كانوا آمنوا قبل أن يهاجروا إليهم بحولين.⁽³⁾
وهم أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة، وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن.⁽⁴⁾
﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ فيها ستة أقوال، هي:

أ. أنهم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ، قاله أبو موسى الأشعري، وسعيد بن المسيب
ب. أنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، وهي الحديبية، وبايع تحت الشجرة، قاله الشعبي.⁽⁵⁾

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 16/ 127، والتحرير والتنوير 11/ 17، وزهرة التقاسير 7/ 3427.

(2) ينظر: تفسير البغوي 2/ 382، والكشف والبيان 5/ 83.

(3) ينظر: الكشف والبيان 5/ 83، وتفسير البغوي 2/ 382.

(4) ينظر: أنوار التنزيل 3/ 95، والبحر المحيط 5/ 494.

(5) ينظر: بحر العلوم 83/ 84-84، وزاد المسير 2/ 291، وتفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم 6/ 1868.

قال الشعبي: "المهاجرون الأولون من كان قبل البيعة إلى البيعة، فهم المهاجرون الأولون، ومن كان بعد البيعة، فليس من المهاجرين الأولين".⁽¹⁾

ج. أنهم أهل بدر، قاله عطاء بن أبي رباح.⁽²⁾

د. أنهم جميع أصحاب الرسول ﷺ، حصل لهم سبق بإدراكه وصحبته، ونصرته.⁽³⁾

هـ. أنهم السابقون بالموت والشهادة، سبقوا إلى ثواب الله ﷻ، ذكره الماوردي.

و. أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة، ذكره القاضي أبو يعلى⁽⁴⁾، قال السدي⁽⁵⁾: "كانت الهجرة قبل

أن تفتح مكة، فلما فتحت مكة كان من أسلم بعده ولحق بالنبي ﷺ فهو تابع".⁽⁶⁾

عن مجاشع بن مسعود⁽⁷⁾، أنه أتى النبي ﷺ بابن أخ له يبايعه على الهجرة، فقال النبي ﷺ: "لا بَلْ

يُبَايِعُ عَلَى الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ، لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَيَكُونُ مِنَ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ".⁽⁸⁾

اختلف المفسرون في أول من آمن برسول الله ﷺ بعد امرأته خديجة بنت خويلد مع اتفاقهم

أنها أول من آمن بالنبي ﷺ وصدقته، مع الاختلاف على من أسلم بعدها أبو بكر الصديق أم على

ﷺ وليس هذا موضع ذكر الاختلاف⁽⁹⁾، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّمُوتِ الْأُولُونَ﴾ "صيغة جمع فلا

بد من حمله على جماعة، فوجب أن يدخل فيه جميع الصحابة ﷺ".⁽¹⁰⁾

(1) جامع البيان 14 / 435.

(2) ينظر: الكشف والبيان 5/83، وزاد المسير 2/291، وتفسير ابن أبي حاتم 6/1868، والوسيط في تفسير القرآن المجيد 2/520.

(3) ينظر: زاد المسير 2/291، وتفسير ابن أبي حاتم 6/1868، والوسيط في تفسير القرآن المجيد 2/520.

(4) ينظر: البحر المحيط 5/494، وزاد المسير 2/292.

(5) السُدِّيُّ: هو عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم العُمري، المدني، أخو أسامة، وعبد الله، وكان عبدُ الرحمن صاحبَ قرآنٍ وتفسيرٍ، جَمَعَ تفسيراً في مجلِّدٍ، وكتاباً في الناسخِ والمنسوخِ، وحدثَ عن: أبيه، وابنِ المُكَدَّرِ، رَوَى عنه: أصْبَغُ بنُ الفَرَجِ، وقُتَيْبَةُ، وهشامُ بنُ عَمَّارٍ، وآخرون، توفي سنة 182 هـ. [ينظر: سير أعلام النبلاء 7/344].

(6) بحر العلوم 2/83.

(7) مجاشع بن مسعود: بن ثعلبة بن وهب بن عائذ بن ربيعة بن يربوع بن شمال بن عوف بن امرئ القيس بن بهثة بن سُلَيْمِ بنِ مَنصُورِ السلمِي نزل البصرة، وروى عنه أبو عثمان النهدي، وكليب بن شهاب، وعبد الملك بن عمير، وأسلم قبل أخيه مجالد.

وقتل يومَ الجمل بالبصرة مع عائشة قبل القتال الأكبر، وقيل أنه قتل يومَ الجمل يومَ الحرب التي حضرها: عليّ، وطلحة، والزبير. [أسد الغابة، ابن الأثير 5/155].

(8) مسند أحمد 25/176، مسند المكيين، باب: حديث مجاشع بن مسعود، حديث رقم: 15847، [إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين].

(9) ينظر: الكشف والبيان 5/83، وتفسير البيهقي 2/381.

(10) مفاتيح الغيب 16/128.

اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ : الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة أو النصر إلى يوم القيامة.

وقال عطاء: هم الذين يذكرون المهاجرين بالوفاء والترحم والدعاء.⁽¹⁾

وقيل هم بنية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين.⁽²⁾

وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ : فيها أقوال، كالتالي:

أ. السابقين جميع الصحابة، جعل هؤلاء تابعي الصحابة، وهم الذين لم يصحبوا رسول الله ﷺ.

ب. المتقدمون من الصحابة، قال: هؤلاء تبعوهم في طريقهم، واقتدوا بهم في أفعالهم، فضل أولئك بالسبق، وإن كانت الصحبة حاصلة لكل.

ج. اتباعهم إياهم بإحسان أي أنهم يذكرون محاسنهم ويترحمون عليهم.⁽³⁾

2. الإعراب:

﴿الْأَوَّلُونَ﴾ "صفة ل (هم)".⁽⁴⁾

﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ "الجار والمجرور متعلق بحال من المبتدأ (السابقون)".⁽⁵⁾

﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ "عطف على (المهاجرين) أي ومن الأنصار".⁽⁶⁾

﴿بِإِحْسَانٍ﴾ "متعلق بحال من فاعل (اتبعوهم)".⁽⁷⁾

قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ "خبر المبتدأ والسابقون".⁽⁸⁾

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ "معطوف على (رضي)".⁽⁹⁾

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ﴾ "حال من الضمير في (لهم)، والجار (فيها) متعلق ب (خالدين)".⁽¹⁰⁾

(1) ينظر: الكشف والبيان 5/ 83، وتفسير البغوي 2/ 382.

(2) تفسير البغوي 2/ 382.

(3) ينظر: زاد المسير 2/ 292.

(4) مدارك التنزيل 1/ 705.

(5) ينظر: المجتبي، أحمد بن محمد الخراط 2/ 411.

(6) مفاتيح الغيب 16/ 130.

(7) المجتبي 2/ 411.

(8) مفاتيح الغيب 16/ 130، ومدارك التنزيل 1/ 705.

(9) مدارك التنزيل 1/ 705.

(10) المجتبي 2/ 411.

3. الجوانب البلاغية :

اختلف المفسرون في أن المدح الحاصل في هذه الآية هل يتناول جميع الصحابة أم يتناول بعضهم، على قولين، هما:

أ. يتناول الذين سبقوا في الهجرة والنصرة، وعلى هذا فهو لا يتناول إلا قدماء الصحابة ﷺ، لأن كلمة (من) تفيد التبعية.

ب. منهم من قال بل يتناول جميع الصحابة، لأن جملة الصحابة موصوفون بكونهم سابقين أولين بالنسبة إلى سائر المسلمين، وكلمة (من) في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ ليست للتبعية، بل للتبيين، أي والسابقون الأولون الموصوفون بوصف كونهم مهاجرين وأنصاراً كما في قوله تعالى: ﴿فَأَجْتَمِعُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: 30].⁽¹⁾

الراجح: ما تميل إليه الباحثة بأن الرأي الثاني هو الأنسب والأقرب إلى الصواب لأنه يشمل جميع صحابة رسول الله ﷺ.

4. القراءات:

أ. قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ اختلف القراء في (والأنصار)، كالتالي:

أولاً: قرأ يعقوب: (والأنصار) برفع الراء.

التوجيه: من قرأ بذلك قرأها على أنه مبتدأ، خبره قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

ثانياً: قرأ الباقون (والأنصار) بخفض الراء.

التوجيه: الذين قرأوها بهذا الوجه قرأوها على أنها عطف على (المهاجرين) ومعناه: ومن المهاجرين ومن الأنصار.⁽²⁾

ب. قال تعالى: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها قراءتان:

أولاً: قرأ المكي بزيادة من قبل تحتها، وجرها بها (من الأنهار) وهو كذلك في مصحف مكة.

ثانياً: قرأ الباقون بحذف (من)، ونصب تحتها مفعول فيه، كما هو مذكور في هذا الموضع، وهو كذلك في مصاحفهم⁽³⁾، و"هما قراءتان متواتران."⁽⁴⁾

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 16 / 129.

(2) ينظر: الهادي شرح طيبة النشر، محمد محمد محيسن 2 / 284، وشرح طيبة النشر ص: 246.

(3) ينظر: غيث النفع في القراءات السبع، علي بن محمد الصفاقي ص: 279، وشرح طيبة النشر ص: 246.

(4) نزول القرآن على سبعة أحرف، القطان ص: 62.

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

تبين الآيات الصورة المضيئة، التي انبثقت من بين ظلام البداوة، وطلعت من مهاب سمومها وهجيرها أولئك هم السابقون الأولون، هم الإنسانية الكريمة، ويتمثل فيهم كل ما يمكن أن تعطيه الإنسانية من ثمر طيب مبارك، فهم من الإنسانية بمنزلة هذه القلة من أعراب البادية، الذين خلصوا من كدر البادية، وسلموا من أدرانها، هؤلاء الذين سبقوا إلى الإسلام، فكانوا الكوكبة الأولى التي تقدمت ركبها الميمون، وكانوا الكواكب الدرية الذين حملوا أعباء الدعوة الإسلامية، واحتملوا في صبر ورضا مواجهة العاصفة التي هبت عليهم، تحمل في كيانها جهالة الجاهلية، وسفاهاتها، وعتوها وضلالها، فكان لهم عند الله ﷻ هذا المكان الكريم، وتلك المنزلة التي أفردهم فيها.⁽¹⁾

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ أي الذين اتبعوهم على دينهم بإحسانهم من أهل الإيمان إلى أن تقوم الساعة⁽²⁾، "ويريد بهم سائر الصحابة، ويدخل في هذا اللفظ أيضاً التابعون وسائر الأمة، لكن بشرطة الإحسان"⁽³⁾، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالهم ولما أطاعوه وأجابوا نبيّه محمداً ﷺ إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي رضوا عن الله ﷻ بثوابه إياهم في الجنة وبما جازاهم به وأعطاهم إياه، وبما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم له، وإيمانهم به وبنيبه ﷺ⁽⁴⁾، "وَرَضُوا عَنْهُ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية"⁽⁵⁾.

الله ﷻ لا ينسى عباده فكما يجازي المسيء ويعاقبه على أفعاله، فإن للمحسن ومن له السبق في الإسلام جزاء أيضاً قَالَ تَعَالَى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ و"الخلود هو اللبث والمكوث فيها ﴿أَبَدًا﴾ لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها"⁽⁶⁾، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي الثواب الوافر.⁽⁷⁾

إن في هذه الآية دليل على أن الله ﷻ أوجب للسابقين الجنة والرضوان في كتابه ﷻ، ولجميع أصحاب النبي ﷺ، وشرط على التابعين شرطاً لم يشترطه عليهم، وهو أن يتبعوهم بإحسان، حيث إنهم يقتدون بأعمالهم الحسنة ولا يقتدون بهم في غير ذلك.⁽⁸⁾

(1) ينظر: التفسير القرآني للقرآن 6/ 881.

(2) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد 521/2، وزاد المسير 292/2، وبحر العلوم 2/ 84.

(3) الجواهر الحسان 3/ 208.

(4) ينظر: جامع البيان 14/ 439، وبحر العلوم 2/ 84، والتفسير الوسيط 521/2، وتفسير العز بن عبد السلام 2/ 45.

(5) أنوار التنزيل 3/ 95.

(6) جامع البيان 14/ 439.

(7) ينظر: بحر العلوم 2/ 84.

(8) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد 520/2، ومفاتيح الغيب 16/ 129.

بعدهما بين الله ﷺ ما للأعراب المؤمنين المتصدقين، وما أعده لهم من النعيم، بين حال هؤلاء السابقين وما أعد لهم، وشتان ما بين الإعدادين والثنايين، فبالرغم من إيمان الأعراب ومكانتهم والأجر والثواب لهم، لكن ميز السابقين الأولين عنهم بعلو المنزلة لهم.⁽¹⁾

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ فضل السابقين الأولين:

هؤلاء هم الطبقة القوية الفولاذية الحديدية، هم المرتكز الأول، والشعلة التي تضيئ وتنبير لغيرهم، هم الذين اقتبسوا من نور رسول الله ﷺ، فأصبحوا مصابيح تنير لنا الوجود وساروا على الطريق التي مهدها لهم رسول الله محمد ﷺ، فهم الذين يضعون اللبنة الأولى والأسس لهذا المجتمع، فهم أول من ضحوا بأموالهم وأجسادهم فلمهم الحوز والسبق بالمكانة الأولى والتميز عن غيرهم، فما نحن نرى في واقعنا الحالي كيف لمن سبق وضحى بنفسه وماله وأهله من أجل بلدنا الحبيب ما زالت مكانتهم محفورة في قلوبنا وعقولنا، فهم (السابقون الأولون) هم الذين يُحتذى على أثرهم، وهم من نحتسبهم شهداء عند الله ﷻ، وهم بذلك نالوا أسمى مكانة وأعلى درجة في الدنيا والآخرة.

◀ السبق والأولوية في كل ما هو خير:

السبق لا يكون فيما ذكر سابقاً فحسب، بل يكون أيضاً في حفظ كتاب الله ﷻ وسنة نبينا وحبينا المصطفى ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: 10-11]، وها نحن في أرضنا المقدسة كنا ومازلنا قدوة لغيرنا - رغم حصارنا- بالتححرر من كيد وظلم الحكام، صحيح أن الأفضلية ليس لمن سبق، ولكنها لمن صدق فالذي يسبق ويكون مخلصاً يربح بذلك أجر السبق وأجر الاتباع واقتداء من بعده، ومنا العلماء العاملين والأولياء الصالحين والنجباء والأدباء، فمن أراد الله ﷻ به خيراً ففقهه في الدين وفي أمور الدنيا والآخرة.

من أراد أن يلحق بهذه النخبة ويضاف إليهم، فسيبيله إلى ذلك أن يقفوا أثرهم، ويتبع سبيلهم، ويحسن في قوله وعمله كما أحسنوا، ويبلي بلاءً حسناً كما فعلوا، فذلك هو الثمن لمن يطلب رضا الله ﷻ، ويطمع في أن يكون مع أحبائه وأصفيائه، فيكون بهذا ممن تبعهم بإحسان.

(1) ينظر: البحر المحيط 5/ 494.

المطلب الثاني

جزاء المنافقين في المدينة ومن حولها

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِتِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: 101].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن شرح الله ﷻ وبين أحوال منافقي المدينة، ذكر بعده أحوال منافقي الأعراب، ثم بين أن في الأعراب من هو مؤمن صالح مخلص، بعد ذلك بين أن رؤساء المؤمنين منهم السابقون المهاجرون والأنصار، وبعضهم مؤمنون صادقون يؤمنون بالله ﷻ واليوم الآخر، ويتخذون ما ينفقون قربات وزلفى إلى الله ﷻ، والرسول ﷺ دعا لهم بخير وبركة، فذكر في هذه الآية أن جماعة ممن حول المدينة موصوفون بالنفاق، وإن كنتم لا تعلمون كونهم كذلك.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

قال ابن عباس ؓ إن المقصودين بالآية هم: مُزَيِّنَةٌ، وَجُهَيْنَةٌ، وَأَسْلَمٌ، وَغِفَارٌ، وَأَشْجَعٌ، وغيرهم من القبائل، كان فيهم منافقون، وكانت منازلهم حول المدينة.⁽²⁾

يقول أبو الطيب: "إن في هذه الآية إشكالاً لأن النبي ﷺ دعا لهؤلاء القبائل، فإن صح هذا النقل فتحمل الآية على القليل منهم، لأن لفظة (من) للتبعيض، ويحمل الدعاء لهم على الأكثر والأغلب، وبهذا يمكن الجمع بينهما".⁽³⁾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِتِّفَاقِ﴾ قال ابن عباس "منهم عبد الله بن أبيّ، وَجَدَّ بن قيس، والجلال بن سويد، ومعتب بن قشير، وَوَحْوح، وأبو عامر الراهب"⁽⁴⁾، قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ وهم من الأوس والخزرج قوم منافقون.⁽⁵⁾

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 16 / 130، والتفسير الواضح 2 / 9.

(2) ينظر: الكشاف 2 / 305، وزاد المسير 2 / 292، والمحزر الوجيز 3 / 75، والكشف والبيان 5 / 87.

(3) فتح البيان 5 / 384.

(4) ينظر: زاد المسير 2 / 292، والتفسير المنير 11 / 19.

(5) تفسير البغوي 2 / 382، وتفسير السمعاني 2 / 343.

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

مَرَدُّوا: تأتي بعدة معانٍ: هي:

أ. مُرِنُوا عليه، يقال: تمرد فلان على ربه، أي: عتا على معصيته إذا مرن وثبت عليها واعتادها.

ب. لجوا فيه وأبوا غيره.

ج. أقاموا عليه واعتادوا عليه ولم يتوبوا.⁽¹⁾

د. "مرفوا وحذقوه وعنوا فيه حتى بلغوا الغاية القصوى فيه".⁽²⁾

من خلال ما سبق يتضح لنا أن جميع المعاني تدل على أن هؤلاء المنافقين اتصفوا بذلك عن سبق اصرار منهم وعناد وجود.

سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ : لها عدة معانٍ:

أ. أن الله ﷻ فضحهم باطلاع النبي ﷺ، على ما يأتي بيانه في المنافقين، وإقامة الحدود عليهم، وأن العذاب الثاني: عذاب القبر.⁽³⁾

ب. القتل والسبي، والثاني: القتل والأسر.⁽⁴⁾

ج. "أن عذابهم في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد، وفي الآخرة بالنار".⁽⁵⁾

د. الأمراض في الدنيا فإن من مرض من المؤمنين كفر الله عنه سيئاته وغفر ذنوبه، ومن مرض من المنافقين زاده الله ﷻ نفاقاً وإثماً وضعفاً.

هـ. بلايا الدنيا وعذاب الآخرة ثم يردون إلى عذاب عظيم عذاب جهنم.⁽⁶⁾

الراجع: تعددت الآراء في كتب التفسير بالمقصود بقوله تعالى: ﴿سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ﴾ إلى أكثر من خمسة عشر قولاً، وما تم ذكره على سبيل الذكر لا للحصر، ولكن ما تراه الباحثة

(1) ينظر: جامع البيان 14/ 440، فتح البيان 5/ 385، وتفسير القرطبي 8/ 240، وتفسير البغوي 2/ 382، والمحزر الوجيز 3/ 75، والتفسير الوسيط 2/ 521.

(2) تأويلات أهل السنة 5/ 462.

(3) ينظر: تفسير القرطبي 8/ 241، والمعجم الأوسط 1/ 241، وزاد المسير 2/ 292، وتفسير البغوي 2/ 382.

(4) ينظر: النكت والعيون 2/ 397، وتفسير البغوي 2/ 382، وزاد المسير 2/ 293.

(5) فتح البيان 5/ 386، والنكت والعيون 2/ 397.

(6) ينظر: الكشف والبيان 5/ 88.

وترجحه هو ما ذكره أبو زهرة أن العذاب مرتين هو: "الفضيحة، ورد كيدهم في نحورهم، وفساد تدبيرهم، وغيظهم من أن المسلمين بقيادة النبي ﷺ يخرجون من كل تدبير دبروه سالمين، وأميل إلى الذين فسروا قوله تعالى: ﴿سَنَعِدُّهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ إلى أن مرتين كناية عن كثرة العدد، وتزادف المرة بعد المرة، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْجِ الْأَبْصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 4]، وقد عذبوا مرات، كل مرة تتلوها أختها، عذبوا بعد أحد، وبعد الخندق، ومن قبل وبعد بدر، وفي كل غزوة كانوا يتمنون فيها الخسارة للمؤمنين، ولقد قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿أَوْلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [التوبة: 126]⁽¹⁾، ويقول القرطبي: "إن الغرض من الآية اتباع العذاب، أو تضعيف العذاب عليهم"⁽²⁾.

ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ: فيها ثلاثة أوجه:

- أ. "عذاب النار في الآخرة.
- ب. إقامة الحدود في الدنيا"⁽³⁾.
- ج. "أنهم يردون بعد عذابهم في النار كسائر الكفار إلى الدرك الأسفل منها أو أنهم يعذبون في النار عذاباً خاصاً بهم دون سائر الكفار ثم يردون بعد ذلك إلى العذاب الشامل لهم لسائر الكفار"⁽⁴⁾.

الراجح: ما ترجمه الباحثة هو الرأي الثالث، لأنه الأشمل والأقرب للمعنى.

2. الإعراب:

﴿مُنْفِقُونَ﴾: مبتدأ، وما قبله الخبر.

﴿مَرْدُوا﴾: فيها قولان، هما:

أ. أنها نعتاً للمنافقين.

ب. صفة لمبتدأ محذوف، تقديره: (وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ مَرْدُوا)⁽⁵⁾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾: خبر مبتدأ محذوف تقديره: (مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ كَذَلِكَ).

﴿لَا تَعْلَمُهُ﴾: صفة أخرى، مثل مَرْدُوا.

(1) زهرة التفاسير 7 / 3430-3432.

(2) تفسير القرطبي 8 / 241.

(3) النكت والعيون 2 / 398.

(4) فتح البيان 5 / 386.

(5) ينظر: إعراب القرآن 2 / 132، والتبيان 2 / 657، وتفسير القرطبي 8 / 240.

﴿تَعَلَّمَهُمْ﴾: بمعنى عرفهم، فهي تتعدى إلى مفعول واحد⁽¹⁾.

3. الجوانب البلاغية:

أ. ذكر السين في قوله تعالى: ﴿سَنَعِدِّيهِمْ﴾ لتأكيد وقوع العذاب المتكرر بهم، وهو عذاب نفسي وعذاب بدني كما وقع لقريظة، وعذاب مالي كما وقع لبني النضير وكل ذلك مع العذاب النفسي المستمر لغيرهم في كل الغزوات حتى غزوة تبوك.

ب. قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَرُدُّونَ﴾ ثم ينقلبون إلى عذاب عظيم في نار جهنم، و(ثم) هنا في معناها من حيث التفاوت بين عذاب الدنيا وهو مكرر، وعذاب الآخرة الدائم الذي لا ينتهي، ويردون فيها معنى الدفع لهم عن الذي كانوا يحسبونه إلى عذاب عظيم، والتتكير هنا لتكثيره وشدة آلامه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145].⁽²⁾

رابعاً: المعنى الإجمالي:

هذا هو الصنف الثاني ممن شملتهم الآيات الكريمة، وهم الذين شغلوا الكثير من الآيات الكريمة، وشغلوا أفكار المسلمين بتخلفهم المرة بعد الأخرى، واعتذارهم الكاذب في كل مرة ويحلفون بالله ﷻ كاذبين مرتكبين الآثام بعد الآثام، ويكرر الله ﷻ نكرهم لأنهم آفة الجماعات، وداؤها المعدي، ولا تنهض جماعة إلا بإبعادهم عن بيئتها الفكرية⁽³⁾، ويتضح هنا صفة جديدة من صفات الأعراب المنافقين حيث قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَ كُرَيْمٍ الْأَعْرَابُ مُنْفِقُونَ﴾ هم الذين كانوا يسكنون حول المدينة، ومنهم من كان يعيش في المدينة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، وهو عبد الله بن أبي وأصحابه، هؤلاء مردوا على النفاق وأصبحوا متأصلين فيه، قد بلغوا غاية إنقائه، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ يخبر الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ عنهم أنك لا تعرفهم أنت مع بعد نظرك، ودقة فراستك، التي تنظر فيها بنور الله ﷻ وذلك لأنهم أجادوا النفاق، وتجنبوا الشبهات، وانظر إلى نفي العلم عن ذواتهم لا عن نفاقهم، والله ﷻ يعلمهم لأنه يعلم السر وأخفى⁽⁴⁾، ولو شاء الله ﷻ لأطلعك عليهم كما أطلعك على غيرهم قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْفَانَهُمْ﴾ ﴿١٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ

(1) التبيان 2/ 657.

(2) ينظر: زهرة التفاسير 7/ 3432.

(3) زهرة التفاسير 7/ 3430.

(4) ينظر: جامع البيان 14/ 440، والكشف 5/ 87، وبحر العلوم 2/ 84، والتفسير الواضح 2/ 10.

فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعَرَّفْتَهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ [محمد: 29-30]، إن هؤلاء الذين يتصفون في النفاق، وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ "لا ينافي هذا قوله تعالى: (ولتعرفنهم في لحن القول) لأن آية النفي نزلت قبل آية الإثبات، وهذه الجملة صفة المنافقين أو مستأنفة"⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿سَعَدْتُمْ بِشَيْءٍ، وَمرة في الآخرة بالعذاب الشديد والجزاء المناسب لجُرم عملهم وسوء صنيعهم.⁽²⁾

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ كشف رب العالمين لصورة المنافقين:

شاكل المخلص والمنافق في الصورة فلم يتميّز بالمباني، وإن تنافيا في الحقائق والمعاني وتناصر علمهم عن العرفان، فهنك الله ﷻ لنبيه ﷺ أستارهم فعرّفهم، وهم بإشرافه عليهم ومعرفته لهم جاهلون، وعلى الإقامة في أوطان نفاقهم مصروفون، فلم ينفعهم طول إمهاله لهم.⁽³⁾

◀ بيان حقيقة المنافقين:

حذرنا الله ﷻ ورسوله محمد ﷺ من المنافقين والذين يتواجدون في التحولات السياسية المدفوعة الثمن والتي تفرق بين الأمة، ويكثر المنافقون مع التغييرات التاريخية، فنرى اليوم من نَصَبُوا أنفسهم دعاةً للإسلام وأمرأً إليه يتقولون بما لا يعرفون وينطقون بما لا يعتقدون ويفتون بما لا يوافق الشرع ولا الشريعة أكل هذا لأجل دراهم معدودة؟؟ فما والله هؤلاء إلا المنافقون الحق الذين أخبرنا عنهم رسول الله ﷺ.

(1) فتح البيان 5 / 385.

(2) ينظر: التفسير الواضح 2 / 10.

(3) ينظر: لطائف الإشارات 2 / 58.

المطلب الثالث

ندم بعض من تخلف عن الغزوة

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 102].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن ذكر الله ﷺ الصنف الأول وهم فضائل قوم من الأعراب ينفقون تقرباً إلى الله ﷻ ومن أجل دعاء الرسول ﷺ لهم، أبان فضائل قوم أعلى منهم منزلة وأعظم، وهي منازل السابقين الأولين وهؤلاء ما تخلفوا عن غزوة غزاها النبي ﷺ، ثم أتبعهم ببيان الصنف الثاني وهو حال طائفة من منافقي المدينة وما حولها، وإن كانوا غير معلومين بأعيانهم الذين تخلفوا عن غزوات الرسول ﷺ رغبةً عنها وتكديباً وتشكيكاً، وكانوا يتمنون الهزيمة للمؤمنين، والصنف الثالث هم طائفة أخرى خلطوا صالح العمل بسيئه وهؤلاء يرجى قبول توبتهم، وهؤلاء تخلفوا من غير معذرة، وتأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق ولم يدينسوا ألسنتهم بكذبهم، وأحسوا بكبر ما فعلوا فاعترفوا بذنوبهم وأحسوا بوزر الإثم يحيك في صدورهم، وكبر أمرهم في أنفسهم عندما نزلت الآيات للمتخلفين.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

ذكر المفسرون في سبب نزول الآية الكريمة روايات متعددة، هي:

أ. إن هذه الآية نزلت في أبي لبابة وأصحابه، وكانوا قد تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فلما قفل رسول الله ﷺ من غزوته، وكان قريباً من المدينة ندموا على تخلفهم عن رسول الله ﷺ وقالوا: نكون في الظلال والأطعمة والنساء ونبي الله في الجهاد، والله لنوثقن أنفسنا بالسواري، ثم لا نطلقها حتى يكون نبي الله هو الذي يطلقنا، وأوثقوا أنفسهم، وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم بالسواري فقدم الرسول ﷺ من غزوته فمر بالمسجد فأبصرهم فسأل عنهم، فقبل له: إنه أبو لبابة وأصحابه تخلفوا عنك يا نبي الله، فصنعوا بأنفسهم ما ترى، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم، فقال ﷺ: "لا أطلقهم حتى أؤمر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين"، فأنزل الله ﷻ الآية، فأطلقهم رسول الله ﷺ وعذرهم، قاله ابن عباس.⁽²⁾

(1) ينظر: تفسير ابن كثير 4/ 206، والتفسير المنير 11/ 20، وزهرة التفاسير 7/ 3432.

(2) ينظر: الجامع لأحكام القرآن 8/ 242، والكشاف 2/ 306-307، والنكت والعيون 2/ 398، وتوفيق الرحمن،

النجدي 2/ 366، والكشف والبيان 5/ 88، تأويلات أهل السنة 5/ 463، وبحر العلوم 2/ 85.

الذين قالوا بهذا الرأي تعددت الروايات في عدد الذين نزلت فيهم الآية الكريمة منهم من قال عشرة ومنهم من قال سبعة وبعضهم قال ثلاثة.

ب. "أنه أبو لبابة وحده قال لبني قريظة حين أرادوا النزول على حكم النبي ﷺ إنه ذابحكم إن نزلتم على حكمه، قاله مجاهد".⁽¹⁾

الراجح: ترجح الباحثة ما ذكره أبو الطيب في تفسيره، وهو أن هذه الآية الكريمة عامة لجميع المسلمين بغض النظر عن الذي نزلت فيهم، والحمل على العموم أولى وإن كان السبب مخصوصاً بمن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.⁽²⁾

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْآخِرِينَ﴾ اختلف المفسرون في المقصود بهم، كالاتي:

أ. "طائفة من المنافقين تابوا عن النفاق.

ب. طائفة من المسلمين ضعيفي الهمم في أمر الدين، والذين تخلفوا عن غزوة تبوك، لا للكفر والنفاق، لكن للكسل، ثم ندموا على ما فعلوا ثم تابوا".⁽³⁾

الراجح: احتج القائلون بالقول الأول بأن قوله: ﴿وَمِنَ الْآخِرِينَ﴾ عطف على قوله ﷺ:

﴿وَمِنَ حَوْلِ كُرْمِ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾، والعطف يوهم التشريك إلا أن الله ﷻ وفقهم حتى

تابوا، فلما ذكر الفريق الأول بالمرود على النفاق والمبالغة فيه وصف هذه الفرقة بالتوبة

والإقلاع عن النفاق، وفي قوله إيجاز لأنه يدل على أنهم أذنبوا واعترفوا بذنوبهم ولم يكونوا

منافقين لأن التعبير بالذنوب بصيغة الجمع يقتضي أنها أعمال سيئة في حالة الإيمان،

وكذلك التعبير عن ارتكاب الذنوب بخلط العمل الصالح بالسيئ.⁽⁴⁾

أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ: قال أهل اللغة: الاعتراف عبارة عن الإقرار بالشيء عن معرفة، ومعناه أنهم

أقروا بذنوبهم، كأنه قيل لم يعتذروا عن تخلفهم بالأعذار الباطلة كغيرهم، ولكن اعترفوا على

أنفسهم بأنهم بسما فعلوا وأظهروا الندامة وذموا أنفسهم على ذلك التخلف.⁽⁵⁾

(1) النكت والعيون 2 / 398.

(2) ينظر: فتح البيان 5 / 388.

(3) ينظر: مفاتيح الغيب 16 / 132، وروح المعاني، الألويسي 6 / 12.

(4) ينظر: التحرير والتوير 11 / 21، ومفاتيح الغيب 16 / 132، والكشف والبيان 5 / 88.

(5) ينظر: مفاتيح الغيب 16 / 132، وغرائب القرآن 3 / 525.

خَطُؤًا: "خلط الشيء بالشيء أي ضمه إليه ومزجهما يستعمل في الحسيات والمعنويات، واختلاط الشيء بالشيء، امتزج أو مازجه"⁽¹⁾، و"الخليط الشريك يقال للواحد والجمع كما يجمع علي خطأ"⁽²⁾، ويقال: "خالطه الداء: خامره"⁽³⁾.

قوله تعالى: ﴿ خَطُؤًا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ ﴾ فيه ثلاثة أوجه، هي:

أ. أن الصالح: الجهاد، والسيء: التأخر عن الجهاد الذي بعدت فيه المشقة ولأنه تخاذل في وقت الشدة ولأنه ايثار للراحة على الجهاد.

ب. أن السيئ: الذنب والصالح: التوبة، قاله بعض التابعين.⁽⁴⁾

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ عطف حيث إنها عطفة على المناققين أي: وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة قوم آخرون.

يجوز أن يكون ﴿ وَمَا آخِرُونَ ﴾ مبتدأ وجملة اعترفوا بذنوبهم صفتها، وجملة: ﴿ خَطُؤًا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ خبره، والمعنى: أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف، ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب، ورجوا أن يتوب الله ﷻ عليهم.⁽⁵⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قال تعالى: ﴿ خَطُؤًا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ إن القول بـ (الواو) لا يؤديه القول: خلط العمل الصالح بالسيئ، كما تقول: خلط الماء باللبن؛ لأن هذا الضرب من الخلط يصير فيه المخلوط والمخلوط به شيئاً واحداً أو كالشيء الواحد فلا يقول صاحبه: عندي ماء فرات، ولا لبن محض. أما المقصود والمراد من الآية هو أنه بقي فيه كل واحد من النوعين ممتازاً بنفسه، منفرداً عن الآخر، وخلطه مع الآخر عبارة عن الجمع بينهما، والواو العاطفة هي التي تؤدي هذا المعنى من الجمع، وهذا من دقائق بلاغة القرآن، ويقول أهل السنة فيه دليل على نفي القول بالمخالطة لأنه لو لم يبق المثلان لم يتصور اختلاطهما.⁽⁶⁾

(1) القاموس الفقهي، سعدي أبو حبيب ص: 119.

(2) معجم وتفسير لغوى لكلمات القرآن، حسن عز الدين الجمل 2/ 55.

(3) القاموس الفقهي ص: 119.

(4) ينظر: التفسير المنير 11/ 19، وفتح البيان 5/ 387، والموسوعة القرآنية 10/ 38، وزاد المسير 2/ 293.

(5) ينظر: فتح القدير 2/ 454، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 167.

(6) ينظر: غرائب القرآن 3/ 525، وتفسير المنار 11/ 17.

يجوز أن تكون (الواو) بمعنى (الباء) لأن الواو للجمع والباء للإصاق فيتناسبان مثال على ذلك قولك: بعث شاة ودرهما أي شاة بدرهم، وذلك أن الواو للجمع والباء للإصاق فهما متقاربان.⁽¹⁾

ب. قوله تعالى: ﴿عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرَ سَيِّئًا﴾ بين الصالح والسيء طباق يوضح المعنى بالتضاد.⁽²⁾

رابعاً: المعنى الإجمالي:

في هذه الآية بيّن الله ﷻ حال طائفة جديدة من الذين كانوا في المدينة أو حولها، أنهم لم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بنس ما فعلوا نادمين فالاعتراف بالذنب كناية عن التوبة منه، ولا يعتبر توبة إلا إذا كان الإقرار بالذنب والندم على الماضي ويكون عند الندم والعزم على عدم العود إليه وتركه في المستقبل، ولا يتصور فيه الإقلاع الذي هو من أركان التوبة لأنه ذنب مضى، ولكن يشترط فيه العزم على أن لا يعود، وقد وقع منهم ما يفيد التوبة، أو أن مقدمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة.⁽³⁾

"لا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرؤ على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء، بأن يغفر الله لهم".⁽⁴⁾

بعدما ذكر في الآية الكريمة ما كان منهم من اعتذار على ما فعلوا للرسول ﷺ بعد تخلفهم عن غزوة تبوك ذكر موقف الله ﷻ قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وعسى تأتي للترجي، أي عسى الله ﷻ أن يقبل توبتهم، ويغسل حوبتهم، ويتجاوز عن خطاياهم، وعبر ﷻ بعسى للإشعار بأن ما يفعله تعالى ليس إلا على سبيل التفضل منه، حتى لا يتكل الشخص، بل يكون على خوف وحذر، وترديد لهم بين الطمع والإشفاق، وذلك يصد عن اللهو والإهمال، وقد قالوا إن كلمة عسى متى صدرت عن الله ﷻ فهي متحقة الوقوع، لأنها صادرة من كريم، والله ﷻ أكرم من أن يطمع أحد في شيء ولا يعطيه إياه.⁽⁵⁾

يقول الطاهر ابن عاشور - رحمه الله -: "جملة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تذييل مناسب للمقام"⁽⁶⁾، "وتعليل لرجاء قبول توبتهم، إذ معناه، إن الله ﷻ كثير المغفرة للتائبين، واسع

(1) ينظر: فتح القدير 2/ 454، وغرائب القرآن 3/ 525، ومدارك التنزيل 1/ 706.

(2) ينظر: التفسير المنير 11/ 18، وصفوة التفسير 1/ 562.

(3) ينظر: فتح القدير 2/ 454، ومفاتيح الغيب 16/ 132، ومدارك التنزيل 1/ 706، والتحرير والتنوير 11/ 21.

(4) تيسير الكريم الرحمن ص: 350.

(5) ينظر: فتح القدير 2/ 454، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم 6/ 395، وزاد المسير 2/ 293.

(6) التحرير والتنوير 11/ 22.

الرحمة للمحسنين⁽¹⁾، "ويغفر الذنوب وينتفضل على عباده، وهذا يفيد إنجاز الوعد"⁽²⁾، ولم يذكر توبتهم لأنه ذكر اعترافهم بذنوبهم وهو دليل على التوبة.

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ بيان رحمة الله ﷻ بعباده:

الذين تخلفوا واعتذروا عن المشاركة مع المسلمين يتوب الله ﷻ عليهم إذا تابوا وهو الغفور الرحيم، وهذه تعتبر بشارة عظيمة لهؤلاء المتخلفين.⁽³⁾

◀ توضيح أن مرد المقصرين إلى الله ﷻ:

علم ما في القلوب إلى الله ﷻ فلا يعلم أحد من الغيب إلا ما علمه الله ﷻ، ورجاء أهل التوحيد الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً أن يغفر الله ﷻ لهم ويرحمهم.⁽⁴⁾

إن من العبرة في هذه الأقسام للمسلمين أن قسم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً يوجد في كل زمان ومكان، وهذه الآية نزلت في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، ولعل أسوأ سيئاتهم ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله فيجب أن يسترشدوا بهذه الآية، فهذه الفئة من الناس يقولون الحق، ولكنهم يفعلون خلافه فهؤلاء أقرؤا بتقصيرهم واعترافهم بينهم وبين ربهم، فهم تحت رحمة الله وعفوه وغفرانه، وهذه الآية لكل الخاطئين المتلوثين بذنوبهم مع إقرارهم بالحق، والمقصود من هذه الذنوب هي الصغائر دون الكبائر التي تتعلق بحق الغير فكل حق للناس لا يغفره الله ﷻ إلا بعد إرجاع الحقوق إلى أهلها حتى الشهيد على عظم درجاته إن كان هناك حقوق للعباد فيجب أن يقضيها عنه أهله، أما ما كان بين العبد وربه من تقصير أو تخلف عن عمل صالح أو هفوة هنا أو هناك فكل هذا يزول بطلب المغفرة من الله ﷻ، وكثرة الصلاة والصيام وإخلاص النية لله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]، ومع إسرافهم على أنفسهم والتقصير في جنب الله ﷻ، إلا أن المولى ﷻ لم يتخلَّ عنهم ونسبهم إليه، وقال عنهم يا عبادي فإني غفورٌ رحيم، وما علينا إلا الاستغفار وطلب الرحمة مع حسن النية.

(1) التفسير الوسيط للقرآن الكريم 6/395، وتفسير المراغي 11/14.

(2) فتح البيان 5/388، ومدارك التنزيل 1/706.

(3) ينظر: التفسير الحديث، دروزة محمد عزت 9/528.

(4) ينظر: أيسر التفاسير 2/421.

المطلب الرابع

حكم أخذ الصدقة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 103].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

لما كان من شروط التوبة تدارك ما يمكن تداركه مما فات وسبق فعله من آثام، وكان التخلف عن الغزو مشتملاً على أمرين هما عدم المشاركة في الجهاد مع الرسول ﷺ، وعدم إنفاق المال في الجهاد وفي سبيل الله ﷻ، جاء في هذه الآية الكريمة إرشاد لطريق تداركهم ما يمكن من ذلك وهو نفع المسلمين بالمال، فالإنفاق العظيم على غزوة تبوك استنفد المال المعد لنواب المسلمين، فإذا أخذ من المخلفين عن الغزوة شيء من المال انجبر به بعض التلم الذي حل بمال المسلمين.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

تعددت الروايات في سبب نزول الآية الكريمة، منها:

أ. "أخرج ابن جرير الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله إن هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، فقال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً، فأنزل الله الآية الكريمة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾.

ب. أخرج عبد الرزاق عن قتادة أنها نزلت في سبعة: أربعة منهم ربطوا أنفسهم في السواري، وهم أبو لبابة ومرداس وأوس بن خدام، وثعلبة بن دبيعة".⁽²⁾

إنّ هذا النص وإن كان خاصاً بالرسول ﷺ وهذا سبب خاص، لكنه عام في الأخذ، يشمل خلفاء الرسول ﷺ ومن بعده ومن بعدهم من أئمة المسلمين وفي المأخوذ منهم وهم المسلمون الموسرون، ولهذا السبب قاتل أبو بكر الصديق ﷺ وسائر الصحابة مانعي الزكاة من أحياء العرب، حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، وقال: "والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه".⁽³⁾

(1) ينظر: التحرير والتنوير 11 / 22.

(2) أسباب النزول، السيوطي ص: 224.

(3) ينظر: التفسير المنير 11 / 27، وتفسير المراغي 11 / 16.

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

صَدَقَةٌ: الصدقة مأخوذة من الصدق، إذ هي دليل على صدق مخرجها في إيمانه⁽¹⁾، وفيها قولان: أ. أنها الصدقة التي بذلوها تطوعاً، وهو المال الذي يتقرب به إلى الله ﷻ، وتنمو بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين.⁽²⁾

ب. "الزكاة التي أوجبها الله تعالى في أموالهم فرضاً".⁽³⁾

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا: "أي تطهرهم من ذنوبهم، وتركيهم أنت أيها الرسول بدعائك لهم وثنائك عليهم".⁽⁴⁾

وَصَلِّ عَلَيْهِمْ: فيها قولان:

أ. "استغفر لهم".⁽⁵⁾

ب. "ادع لهم بالخير".⁽⁶⁾

سَكَنٌ لَهُمْ: "والسكن: ما تسكن إليه النفس وترتاح وتطمئن به من أهل ومال ومتاع ودعاء وثناء"⁽⁷⁾، وفيه خمسة أقوال:

أ. "رحمة لهم".⁽⁸⁾

ب. طمأنينة لهم أن الله ﷻ قد قبِلَ منهم وفي ذلك تثبيت لقلوبهم.

ت. فُرْبَةٌ لهم.

ث. زيادة وقَارٍ لهم.

(1) نيل المرام، أبو الطيب القنوجي ص: 346.

(2) ينظر: زاد المسير 2/ 295، وأيسر التفاسير 2/ 421، والتفسير المنير 11/ 26، والنكت والعيون 2/ 398.

(3) زاد المسير 2/ 295، والنكت والعيون 2/ 398.

(4) أنوار التنزيل 3/ 96، وأيسر التفاسير 2/ 421.

(5) تفسير آيات الأحكام، السائيس ص: 470، وزاد المسير 2/ 295.

(6) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج 2/ 467، وتيسير الكريم الرحمن ص: 350.

(7) تفسير المراغي 11/ 15، ونيل المرام ص: 347، وتفسير آيات الأحكام، السائيس ص: 470، والتفسير

المنير 11/ 27، والتفسير الواضح 2/ 11، وفي رحاب التفسير 6/ 1601.

(8) توفيق الرحمن 2/ 366، والكشف والبيان 5/ 90، والنكت والعيون 2/ 399.

ج. تزكية لهم.⁽¹⁾

2. الإعراب:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حُذِّمْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ مُتَعَلِقَانِ بِحُذِّمْنَا، وَأَنْ تَكُونَ حَالًا مِنْ ﴿صَدَقَةً﴾.

﴿تَطَهَّرْتَهُمْ﴾: فِي مَوْضِعِ نَصْبِ صِفَةٍ لِصَدَقَةٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا، وَأَنْ يَكُونَ ضَمِيرِ تَطَهَّرْتَهُمْ عَائِدًا عَلَى ﴿صَدَقَةً﴾، أَمَا إِذَا كَانَتْ التَّاءُ لِلخَطَابِ؛ فَتَكُونُ جُمْلَةً تَطَهَّرْتَهُمْ حَالٍ مِنَ فَاعِلِ ﴿حُذِّمْنَا﴾.

﴿وَنَزَّكَيْتَهُمْ﴾: التَّاءُ لِلخَطَابِ لَا غَيْرَ لِقَوْلِهِ: ﴿بِهَا﴾، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَطَهَّرْتَهُمْ وَنَزَّكَيْتَهُمْ بِهَا﴾ فِي مَوْضِعِ نَصْبِ صِفَةٍ لِصَدَقَةٍ مَعَ قَوْلِنَا أَنَّ التَّاءُ فِيهَا لِلخَطَابِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ ﴿تَطَهَّرْتَهُمْ﴾ تَقْدِيرُهُ بِهَا، وَدَلَّ عَلَيْهِ ﴿بِهَا﴾ الثَّانِيَةِ، وَإِذَا كَانَ فِيهِمَا ضَمِيرُ الصَّدَقَةِ، جَازَ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لَهَا، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي ﴿حُذِّمْنَا﴾.⁽²⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ﴾ فِيهِ تَشْبِيهُ بِلَيْغٍ، حَيْثُ إِنَّهُ شَبِهَ الصَّلَاةَ وَدَعَاءَ الرَّسُولِ ﷺ لَهُمْ كَالسَّكَنِ، فَحَذَفَتْ أَدَاةَ التَّشْبِيهِ وَوَجْهَ الشَّبْهِ⁽³⁾، "وَإِطْلَاقَ السَّكَنِ عَلَى هَذَا الدَّعَاءِ مَجَازٌ مَرْسَلٌ".⁽⁴⁾

ب. قَالَ تَعَالَى: ﴿حُذِّمْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ قَالَ الْمَفْسُرُونَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخَذَ مِنْهُمْ ثَلَاثَ أَمْوَالِهِمْ وَتَرَكَ الثَّلَاثِينَ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ: ﴿حُذِّمْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: حُذِّمْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَذَلِكَ لَمْ يَأْخُذْ كُلُّهَا، وَ(مِنْ) هُنَا أُتَتْ لِلتَّبْعِيضِ.⁽⁵⁾

4. القراءات:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ اِخْتَلَفَ الْقِرَاءَةُ فِي ﴿صَلَاتِكَ﴾ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي: أَوَّلًا: قَرَأَ كُلٌّ مِنْ: حَفْصٍ، وَحَمْزَةٍ، وَالْكَسَائِيِّ، وَخَلْفٍ ﴿صَلَاتِكَ﴾ بِالتَّوْحِيدِ، وَنَصَبِ التَّاءِ.

(1) ينظر: زاد المسير 2/ 295، والكشف والبيان 5/ 90، والنكت والعيون 2/ 399، والبحر المحيط 5/ 500.

(2) ينظر: التبيان 2/ 658، وإعراب القرآن 4/ 168، والبحر المحيط 5/ 499، والتفسير المنير 11/ 26.

(3) ينظر: التفسير المنير 11/ 26.

(4) التحرير والتنوير 11/ 23.

(5) ينظر: الكشف والبيان 5/ 89.

التوجيه: من قرأوا بهذا الوجه أرادوا بها الجنس، وقيل: الصلاة معناها الدعاء، وهي مصدر، والمصدر يطلق على القليل والكثير بلفظه.

ثانياً: أما الباكون قرأوا (صلواتك) بالجمع، وكسر التاء.

التوجيه: الذين قرأوا بذلك على النصب بأن، ووجه ذلك أن الدعاء أنواعه مختلفة، فجمع لذلك. (1)

5. الناسخ والمنسوخ:

قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ فيه جوابان:

أ. أنه منسوخ بقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيكَ بِهِ﴾ [التوبة: 84].

ب. أنه غير منسوخ وأنّ المعنى وادع لهم إذا جاءوك بالصدقات، وكذا كان النبي ﷺ يفعل.

الراجح: ترجح الباحثة ما ذكر في كتاب إعراب القرآن، وهو "أن العلماء على القول الثاني،

ويدلّ عليه قوله تعالى ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي إذا دعوت لهم حين يأتونك بصدقاتهم سكن ذلك قلوبهم وفرحوا وبادروا رغبة في دعاء النبي ﷺ، وحكى أهل اللغة جميعاً فيما علمناه أن الصلاة في كلام العرب الدعاء، ومنه الصلاة على الجنابة". (2)

رابعاً: المعنى الإجمالي:

"لقد كانت الحساسية التي بعثت الندم والتوبة في قلوب المتخلفين بعد الغزوة، جديرة بالطمأنينة، حقيقة بالعطف الذي يسكب فيها الأمل، ويفتح لها أبواب الرجاء، وإن كان رسول الله ﷺ وهو يقود حركة، ويربي أمة، وينشئ نظاماً، قد رأى الأخذ بالحزم في أمرهم حتى يأتيه أمر من ربه ﷻ في شأنهم، فكان جواب الرسول ﷺ أنه لا يأخذ من أموالهم شيئاً حتى يؤمر بذلك" (3)، فوجه الله ﷻ الخطاب للرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ أي خذ يا محمد من أموال هؤلاء المتخلفين، وهذه الأموال تؤخذ تطهيراً لهم مما لحق بهم من آثام التخلف، ومن دنس البخل، وشح النفس ولؤم الطبع وقسوة القلب، وهو إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات ومقام التخلية بالفضائل والحسنات، وهذه تركية تنمي بها حسناتهم إلى مراتب المخلصين، وتنمو نفوسهم على حب الخير،

(1) ينظر: الهادي شرح طيبة النشر/285، وغيث النفع في القراءات السبع ص: 279، وشرح طيبة النشر، النويري ص: 246.

(2) إعراب القرآن، النحاس/2. 133.

(3) في ظلال القرآن 3/ 1707-1708.

وتزرع في قلوبهم شجرة العطف على الفقير والضعيف المحتاج، بهذا تنمو النفس وترتفع إلى الدرجات العلا.⁽¹⁾

"في الآية حث للمؤمنين عامة، وللمذنبين خاصة على البذل والإحسان في سبيل الله ﷻ، فإن إنفاق المال في سبيله هو عدل الجهاد بالنفس، وتطهير للمتصدق، وتزكية له من الآثام التي تعلق به".⁽²⁾

وجه الله ﷻ بخطاب آخر في هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ واستغفر لهم أيها الرسول، واطلب الرحمة لهم فإن صلواتك ودعاءك إقرار لنفوسهم المضطربة وطمأنينة لقلوبهم الحائرة، وإيدان بأن الله سيقبل توبتهم.⁽³⁾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي والله تعالى عظيم السمع، محيط العلم فسمع اعتراف هؤلاء بذنوبهم، وهو أيضاً سميع لدعائك إذا دعوت لهم، ولغير ذلك من كلام خلقه، وعلم صدقهم في توبتهم، وعليم بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم، فتاب عليهم وعفا عنهم.⁽⁴⁾

ذكر ابن عاشور: "أن ذكر العليم إيماء إلى أنه ما أمره بالدعاء لهم إلا لأن في دعائه لهم خيراً عظيماً وصلاً في الأمور"⁽⁵⁾، ويدل ذلك على عظم مكانة الرسول ﷺ عند الله ﷻ.

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ الصدقات تمحو السيئات:

بينت الآية الكريمة فوائد صدقة الأموال ومنافعها، والحث عليها وعلى التوبة لمن قصر في الجهاد في سبيل الله ﷻ بماله ونفسه، أو في غير ذلك من أمور دينه، وفي الحث على العمل، وكونه هو الذي عليه المعول، والصدقة تكفر الذنوب وتطهر الأرواح من رذيلة الشح والبخل، وتزكي القلوب من الأخلاق الذميمة، وتنمي الأموال والحسنات، وينبغي للتائب من الذنب الكبير أن يكثر بعده من الصالحات كالصدقات والصلوات ونحوها، ويستحب لمن يأخذ

(1) ينظر: جامع البيان 14 / 454، وفي رحاب التفسير 6/1601، والتفسير الوسيط، مجمع البحوث 4 / 12، والتفسير الواضح 2 / 12. التحرير والتنوير 11/23.

(2) التفسير القرآني للقرآن 6 / 887.

(3) ينظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث 4 / 12.

(4) ينظر: جامع البيان 14 / 454، والتفسير الوسيط، مجمع البحوث 4 / 12، وفتح البيان 5 / 390.

(5) التحرير والتنوير 11 / 23.

صدقة امرئ مسلم أن يدعو لهذا الشخص، مثل: آجرك الله على ما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت.⁽¹⁾

◀ بركة دعاء النبي ﷺ للمتصدق:

إن في صلاة النبي ﷺ على المتصدق، ودعائه له، مجازاة عاجلة بالإحسان، يجد المتصدق أثرها في نفسه، وبردها على قلبه، فيشيع في كيانه الرضا، وتملاً قلبه السكينة، وبالتأكيد هذا ينطبق على واقعنا، وهذا أدب ينبغي أن يتأدب المسلمون به، فيلقون إحسان المحسن بالحمد والشكر، فإن ذلك أقل ما يجزى به، وبهذا تتفتح النفوس للخير، وتسخر الأيدي بالإحسان.⁽²⁾

◀ فضيلة الخوف والرجاء:

"الخوف يحمل الإنسان على ترك المعاصي والبعد عنها، أما الرجاء فيعمل على الإكثار من الصالحات، لذلك يجب على الإنسان أن يكون دائماً متعلقاً ما بين الخوف من الله ﷻ وبين الرجاء برحمته وكرمه على عباده".⁽³⁾

◀ الشكر على الإحسان:

جدير بكل إنسان أن يحمي المحسن على فعله، سواء أصابه شيء من هذا الإحسان أم لم يصبه، فهو عمل طيب، وصنيع مبرور، وكما ينبغي على المؤمن أن ينكر المنكر لذاته، كذلك يجب عليه أن يحمي المعروف لذاته، وبهذا يشيع في الناس الخير، وتتكاثر أعداد المتعاملين به⁽⁴⁾، فيزداد المحسنون، وبالتالي يتكافل المجتمع ويتربط مع بعضه البعض.

◀ أثر الصدقة على المجتمع:

الصدقات تطهر أنفس الأفراد من أرجاس البخل، والدناءة والأثرة، والطمع والجشع، وتبعدهم عن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وريا، فإن من يتعود بذل بعض ما في يده أو ما أودعه في خزائنه في سبيل الله ﷻ ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه يكن أرفع نفساً من أن يأخذ مال غيره بغير حق، وإذا طهرت أنفس الأفراد وزكت بالعلم والتقوى، وهما ثمرتا الإيمان طهرت جماعة المؤمنين من أرجاس الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادي والبغي والعدوان والفتن والحروب، فإن الأموال قوام الحياة المعيشية للفرد والمجتمع، فهي مثار التنازع والتخاصم، ومن ثم أوجب الدين على أصحاب الأموال من النفقات

(1) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم 6/397، وأيسر التفاسير 2/423، والتفسير القرآني للقرآن 6/887.

(2) ينظر: التفسير القرآني للقرآن 6/887.

(3) أيسر التفاسير 2/423.

(4) ينظر: التفسير القرآني للقرآن 6/887.

والصدقات ما يجعل الثروات وسيلة للسلام لا إلى الخصام، وقد دعا الإسلام للعناية بين الجوانب الروحية والجسدية للوصول إلى السيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة، فهو وسط بين اليهودية المفرطة في حب المال، والنصرانية الروحانية الزاهدة، فمن أهم مقاصده إصلاح المجتمع البشري وهداية الناس إلى العدل في أمر المال لئبتعدوا عن شر طغيان الأغنياء على الفقراء، ونصوص الدين في هذا الباب هي الغاية التي لا يطمح مصلح في التطلع إلى ما بعدها، وهي هادمة للمزاعم الخاطئة على الإسلام من أرباب الجهل والهوى.⁽¹⁾

إن الأمر الإلهي لسيدنا محمد ﷺ بأخذ الصدقة هو عائدٌ علينا من نفع وتركية وطمأنينة وراحة نفس، وهذا فيه نفع لكيان الأمة الإسلامية عامة حيث إن الأخذ من مال الغني وإعطائه للفقير يُرجح الموازين، ويقلل من الفروقات بين أغنياء المسلمين وفقرائهم، وهذا ما نلمسه في زمننا من فروقات كبيرة بين طبقات المجتمع الإسلامي من أغنياء وفقراء، ويرجع كل ذلك إلى التخلف عن إخراج الصدقات وهذا يؤدي إلى الكثير من الجرائم والمخالفات من قبل الفقراء لسد رمقهم ولكي يتغلبوا على صعوبة الحياة التي يعيشونها، وبالتأكيد هذا يجعلنا فريسة سهلة لنيل الأعداء منّا والتغلغل في وسطنا من هذه الثغرة، والتي يستهينُ بها الكثير من أصحاب رؤوس الأموال، ولو أنهم يتصدقون بالقليل لتكون خير معين على مثل هذه المشاكل التي تؤدي إلى انحلال المجتمع وتفككه، وتكون عوناً لغيرهم للتغلب على مشاق هذه الحياة ومتاعبها، ولا ريب أيضاً بأن إخراج الأغنياء من المسلمين للصدقة هو بمثابة تطهير لأموالهم وتركيتها وتكثيرها، وذلك مصداق لقوله تعالى: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: 276]، فهذه الآية محفز ودافع للمسلمين بالتصدق بأموالهم لأن القرآن حق لا جدال فيه.

إن صدقة المسلم تؤدي إلى طيب النفس وراحة القلب وينبع ذلك كله بأن المتصدق يؤدي حق الله ﷻ في أمواله والتي شرعها لأجل عباده، فلا يشغل باله وفكره في عدها وإحصائها وخوفاً عليها من نقصانها، ويقول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26] فالكل يرجو هذه الزيادة ويطمح إلى هذا الإحسان وبذلك ينال فيه مكسب في الحياة الدنيا، وفوز في الآخرة وهو الذي يسعى كل إنسان مسلم خالص الإيمان إليه.

(1) ينظر: تفسير المراغي 11/ 18.

المطلب الخامس

قبول التوبة والأمر بالعمل الصالح

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَرِيَعَلْمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٤) وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسِرُّدُونَ إِلَى عَلِيمٍ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِرُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿التوبة: 104 - 105﴾.

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

أخبر الله ﷻ أن قبول توبة الذين تخلفوا عن الغزوة، وأخذ الصدقة من أموالهم إذا أعطوها، ليس إلى نبي الله ﷺ، وأن النبي ﷺ حين أبي أن يطلق من ربط نفسه بالسواري من المتخلفين عن الغزوة وترك قبول صدقتهم بعد أن أطلق الله ﷻ عنهم حين أذن له في ذلك، إنما فعل هذا لأن ذلك لم يكن إليه ﷻ، وإنما كان إلى الله ﷻ، وما يفعله الرسول ﷺ من ترك وإطلاق وأخذ صدقة وغيرها من أفعال بأمر الله ﷻ، وأن الله ﷻ هو الذي يقبل توبة من تاب، ويأخذ صدقة من تصدق من عباده أو يردّها. (1)

ثانياً: سبب النزول:

"جاء في الرواية أنه لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت الآية الكريمة". (2)

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ: "أي من عبده، تقول: أخذته منك، وأخذته عنك". (3)

وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ: يقبلها، ويؤثب عليها. (4)

وَسِرُّدُونَ: "وسترجعون". (5)

(1) ينظر: جامع البيان 14 / 458-459

(2) مدارك التنزيل 1 / 707.

(3) زاد المسير 2 / 295.

(4) ينظر: التفسير الوسيط 4 / 13، وزاد المسير 2 / 295.

(5) التفسير الوسيط 4 / 13.

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ (أَنْ) جاءت هنا مفتوحة لأنها فاصلة، وقد تأتي مبتدأة.⁽¹⁾

والمصدر المؤول ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ﴾ في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلموا، والمصدر المؤول الثاني ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤول الأول ومؤكّد لمعناه.

قوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ الجملة في محلّ رفع معطوفة على جملة: (يقبل التوبة).
جملة: ﴿أَعْمَلُوا﴾ في محلّ نصب مقول القول.

قوله تعالى: ﴿فَسِرِّيَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وهي تعليلية.⁽²⁾

قوله تعالى: ﴿فَسِرِّيَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ كلمة (سيرى) يراد بها رؤية العين لا غير ذلك؛ لأنه لم يتعدّ إلا إلى مفعول واحد.⁽³⁾

وجملة: ﴿وَسَرُّدُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿فَسِرِّي﴾.⁽⁴⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ فيه (الهمزة) للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، و(لَمْ) للنفي، ونفي النفي إثبات، فيكون المعنى تأكيد علمهم بأن الله ﷻ يقبل التوبة عن عباده، ويأخذ الصدقات التي يريدون بها تكفير سيئاتهم، والله ﷻ هو المتصف بأنه التواب الرحيم، الذي يكثر قبوله للتوبة رحمة بهم؛ لأنه الرحيم الغفور الودود، وفيها حث على التوبة والصدقة⁽⁵⁾، ويأتي الاستفهام فيها للتقرير والتحضيض.⁽⁶⁾

ب. قال تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ فيها استعارة مكنية: أي يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله، فالأخذ هنا استعارة للقبول⁽⁷⁾.

(1) ينظر: إعراب القرآن للنحاس 2 / 133.

(2) ينظر: الجدول 11 / 28-29.

(3) إعراب القرآن للنحاس 2 / 133.

(4) المجتبى 2 / 413.

(5) ينظر: زهرة التفاسير 7 / 3436، والتفسير المنير 11 / 26، وفتح البيان 5 / 390.

(6) ينظر: لباب التأويل 2 / 404، وفتح البيان 5 / 390.

(7) الجدول / محمود صافي 11 / 28.

ويجوز أن يكون اسناد الأخذ إلى الله ﷻ مجازاً مرسلًا عن قبوله لها. (1)

ج. قوله تعالى: ﴿ وَسُرْدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ "السين لتأكيد وقوع ما بعدها في المستقبل، أي ستعودون إليه ﷻ، وتعرض عليه أعمالكم لا تخفى منها خافية، فإن كانت خيراً، أو شراً تبتم منه وأحسنتم التوبة، فإن الجزاء يكون خيراً، وإلا فالعاقبة السوء". (2)

د. قوله تعالى: ﴿ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ "فيها تقديم الغيب على الشهادة وهذا لتحقيق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة، على أبلغ وجه وآكده، أو للإيذان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلق، إذ ما من شيء يعلن إلا وهو، أو مبادئه القريبة، أو البعيدة، مضمرة قبل ذلك في القلب، فتعلق علمه ﷻ به في حالته الأولى، متقدم على تعلقه به في حالته الثانية". (3)

هـ. قال تعالى: ﴿ فَيَتَّبِعْكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ "فيه مجاز والإنباء مجاز عن المجازاة أو كناية، أي يجازيكم حسب ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ففي الآية وعد ووعد". (4)

4. القراءات:

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ فيها قراءتان:

أولاً: قرأت بالياء التحتية (يعلموا)، وهذه قراءة الجمهور.

التوجيه: تكون الآية الكريمة في شأن العصاة الذين تابوا وربطوا أنفسهم بالسواري، والذين لم يتوبوا من المتخلفين، وترجى توبتهم، فهي دعوة لمن لم يتب ألا ييأس من روح الله ﷻ، ويعود إلى الله ورسوله والمؤمنين، وأن الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين. (5)

ثانياً: قراءة أخرى بالتاء الفوقية (تعلموا) على الخطاب وهي قراءة الحسن، وكذا في مصحف أبي. (6)

التوجيه: تكون القراءة بهذا الوجه خطاباً للمؤمنين، وتقريراً لحقيقة دينية يجب الإيمان بها، وأن يعلموا أن الله ﷻ لا يترك المذنب في ذنبه، بل إنه ﷻ يفتح له الباب لتطهير نفسه من الذنوب

(1) ينظر: التفسير المنير 11 / 26، والكشاف 2 / 308، والجدول 11 / 28، ومحاسن التأويل 5 / 496.

(2) زهرة التفاسير 7 / 3438.

(3) محاسن التأويل 5 / 498.

(4) الجدول 11 / 29.

(5) ينظر: تفسير القرطبي 8 / 250، وزهرة التفاسير 7 / 3436، وفتح القدير 2 / 455.

(6) ينظر: زاد المسير 2 / 295، والكشاف 2 / 308، والموسوعة القرآنية 5 / 296.

وتخليصها منها، والله ﷻ منه قريب يستجيب دعوته إذا دعاه، ويغفر له إذا استغفره بقلب سليم لم يركس، ولم يستغلق باب التوبة.⁽¹⁾

5. استنباطات فقهية:

يقول الماتريدي في تفسيره: "إن الكافر إذا أسلم وتاب لم يلزم مع التوبة كفارة أخرى سوى التوبة، وإن كان ارتكب مساوئ وفواحش سوى الشرك والكفر، والمسلم إذا ارتكب مساوئ لزمته التوبة والكفارة جميعاً؛ وذلك لأن المسلم لما أسلم اعتقد حفظ ما لزمه من الشرائع، فإذا ارتكب ما ذكرنا خرج عن شرائعه وأدخل نقصاناً فيما اعتقد حفظه، فإذا ترك حفظه وأدخل فيه النقصان، لزمته الكفارة يجبر بها النقصان الذي أدخل فيه، وأما الكافر فليس عليه شيء من الشرائع، إنما عليه أن يتوب عن الشرك ويأتي بالإيمان؛ لذلك افترقا".⁽²⁾

رابعاً: المعنى الإجمالي:

يؤكد الله ﷻ قبوله لتوبة عباده حتى لا يُسرف العصاة على أنفسهم، ولو كانوا منافقين وغير مخلصي الإيمان، ويظنون أنه لا رجعة إلى الله ﷻ وإلى الدين الحق، فإن اليأس يولد النفرة، والنفرة تولد الكفر، والرجاء في الله ﷻ يكون معه الرجوع إليه، والرجوع يؤدي إلى الإيمان⁽³⁾، قال تعالى: ﴿الرَّيِّعَلْمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ ألم يعلم أولئك التائبون أن الله ﷻ هو الذي يقبل التوبة عن عباده، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويتقبل الصدقات ويضاعف أجرها، وفي إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها، وفي ذكر لفظ الأخذ ترغيب في بذل الصدقة وإعطائها الفقراء⁽⁴⁾، إذا صدرت عن خلوص النية، وألم يعلموا أيضاً أن الله ﷻ هو التواب الذي من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم، وهو الرحيم بعباده التائبين بتبئيتهم على أعمالهم الصالحة، والتوبة تفيد في تجديد همة النفس والعهد ومحو الذنب، والتخلص من أوزار الماضي والشعور بالارتياح من تعذيب الضمير ومساوئ الذنب.⁽⁵⁾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الذي يسر أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى، بما يظهر لهم من آياته، ويسوق إليهم من تنبيهاته، وما يطلعهم عليه من تحذيراته، حتى إذا اطلعوا وعرفوا كبائر الذنوب، استشعروا الخوف بتخويفه، فرجعوا إلى التوبة، فرجع إليهم

(1) ينظر: زهرة التفاسير 7/ 3436، وفتح القدير 2/ 455.

(2) تأويلات أهل السنة 5/ 471.

(3) ينظر: زهرة التفاسير 7/ 3436.

(4) ينظر: بحر العلوم 2/ 86، وفتح البيان 5/ 391.

(5) ينظر: التفسير الوسيط، الزحيلي 1/ 914.

فضل الله ﷻ التواب بالقبول، المتفضل عليهم بجود إحسانه وهو المتجاوز لمن تاب، الرَّحِيمُ بالمؤمنين.⁽¹⁾

يقول الماتريدي في كتابه: " قال البعض الآية في المنافقين؛ يقول: اعملوا فيما تستأنفون؛ فإن الله يطلع رسوله والمؤمنين على نفاقكم فتفتضحون، حيث يطلعون على سرائركم".⁽²⁾

"الخلاصة في ذكر أن الله يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات، أن ذلك تهيبح للحث على المسارعة بالتوبة والصدقات، فكلتاها خير يتلقاه الله ﷻ بالقبول".⁽³⁾

بعد ذلك يوجه الله ﷻ الخطاب لنبيه محمد ﷺ ويقول لهؤلاء الذين اعترفوا لك بذنوبهم من المتخلفين عن الجهاد معك، والخروج في الغزوة كسلاً لا نفاقاً أن يعملوا لله ﷻ بما يرضيه من طاعته، وأداء فرائضه مدعماً ذلك⁽⁴⁾، بقوله تعالى لهم: ﴿ فَسِرِّيَ اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ فيها وعيد لهم وتحذير وترغيب⁽⁵⁾، أي أن الله ﷻ سيرى عملكم إن عملتم، ويأن رسوله سيراقب سلوككم باستمرار ورؤية الرسول ﷺ تكون بإعلام الله ﷻ إياه، وأن فراسة المؤمنين ستلاحقكم في كل مكان، فما أطلعهم الله ﷻ عليه من خير أحبوه، أو شر أبغضوه، إذ الأعمال نفسها ليست إلا علامات تكشف عن حقيقة النيات، وأمارات تدل على صميم المعتقدات ومن أسر سريرة ألبسه الله ﷻ رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر⁽⁶⁾، فمن وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف قوله فعله فإنما يوبخ نفسه، ثم جاء سبحانه بوعيد شديد وبلغهم الله ﷻ بأنهم سيرجعون إليه بقوله تعالى: ﴿ وَسُرُودُونَ ﴾ أي يوم القيامة إلى من يعلم سرائركم وعلانيتكم، وما يغيب عن الناس فلا يخفى عليه شيء من باطن أموركم وظواهرها، وقال تعالى: ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيخبركم بما كنتم تعملون، وما يكون منه خالصاً أو رياءً أو طاعةً أو معصية، فيجازيكم على أعمالكم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته⁽⁷⁾، وقد خسر من لا يمنعه الحياء، ولا يردعه الاحتشام، وسقط من عين الله ﷻ من هتك جلاباب الحياء، كما قال الشاعر صالح بن عبد القدوس⁽⁸⁾:

(1) ينظر: موسوعة فقه القلوب، التوجيهي 1/ 280، وبحر العلوم 2/ 86.

(2) تأويلات أهل السنة 5/ 472.

(3) زهرة التفاسير 7/ 3437.

(4) جامع البيان 14/ 463.

(5) الموسوعة القرآنية 10/ 39.

(6) ينظر: التيسير في أحاديث التفسير محمد الناصري 3/ 17، وفتح القدير 2/ 455، ولباب التأويل 2/ 405.

(7) ينظر: جامع البيان 14/ 463، وبحر العلوم 2/ 87.

(8) صالح بن عبد القدوس: بن عبد الله بن عبد القدوس الأزدي الجذامي، مولاهم، أبو الفضل: شاعر حكيم، كان متكلماً، يعظ الناس في البصرة. له مع أبي الهذيل العلاف مناظرات، وشعره كله امثال وحكم وآداب، اتهم عند المهدي العباسي بالزندقة، فقتله ببغداد، وعمي في آخر عمره، توفي سنة (160 هـ - 777 م)، [ينظر:

الأعلام 3/ 192].

إذا قلّ ماء الوجه قلّ حياؤه *** ولا خير في وجه إذا قلّ ماؤه

من لم يمنعه الحياء عن المكروهات في العاجل سيلقى غبّ ذلك، وخسرانه عن قريب في الآجل.⁽¹⁾

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات لتحقيق المقاصد والأهداف التالية:

◀ الله ﷻ تواب رحيم:

خطاب الله ﷻ لكل عاص في كل زمان ومكان على مر العصور، ولكل من يغلق عليه الشيطان أبواب التوبة يناديه الرحمن أن باب التوبة مفتوح لا يغلق وأن الله ﷻ يبسط يده للمسيئين، ويقبل التوبة عن عباده كما جاء في الحديث، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيَسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجْرَةً، فَأَضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيَسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخَطْمِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ"⁽²⁾، فالواجب على كل مسيء أن يعود ويتوب إلى الله ﷻ وأن لا يقنط من رحمة الله ﷻ لأن بابه مفتوح دائماً لعباده مالم تشرق الشمس من مغربها.

◀ حث المسلم على العمل:

المنهج الإسلامي منهج عقيدة وعمل، فمحك الصدق في التوبة هو العمل الظاهر، يراه الله ﷻ ورسوله ﷺ والمؤمنون، والإيمان ليس بالتمني، ولا التوبة باللسان فقط بل بما وقر في القلب وصدق العمل، فالعمل هو المهم، وهو المعول عليه⁽³⁾، وعلى الرغم من اختلاف الأعمال في نوعيتها من شخص لآخر فالذي يعيننا هو كيفية أداء هذه الأعمال؟! هل هي على وجه الإتيقان والإحسان أم على وجه التقصير والإهمال؟! إن شريعتنا الإسلامية من ضمن ما تأمرنا به، تأمرنا بإتقان العمل، وهي في حديثها عنه لا تجعله أمراً دنيوياً تبتغى منه منفعة عاجلة فحسب، بل تجعله أيضاً أمراً تعبدياً يتقرب به إلى الله ﷻ، ومن المؤسف أننا نجد بعض المسلمين يهملون العمل بهذه الوصية، مستهينين بمعناها وأثرها في رقي المجتمع وسعادته، حجتهم في ذلك الربط بين إتقان العمل والمقابل المادي، يغتزمون فرصة غياب الرقابة الإدارية

(1) لطائف الإشارات 2/ 61.

(2) صحيح مسلم 4/ 2104، كتاب: التوبة، باب: في الحض على التوبة، والفرح بها، حديث رقم: 2747.

(3) ينظر: في ظلال القرآن 3/ 1708، والتفسير الواضح 2/ 13.

لإبداء التقصير والتهاون في أداء الواجبات، متتاسين الرقابة الإلهية، ويجب علينا أن نوقظ الضمير المسلم؛ ليكون حيًّا يمارس دور الحكم الداخلي على النفس، وهو الرقيب والواعظ أثناء العمل؛ لأن إتقان العمل في الإسلام ليس هدفًا سلوكيًا قاصرًا على الفرد فقط، بل هو سمة حضارية تقدمية للمجتمع المسلم تمحي بعض السلوكيات السلبية التي تؤثر على رقي وتقدم المجتمعات.

المطلب السادس

الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 106].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن قسم الله ﷻ المخلفين عن الغزوة إلى ثلاثة أقسام: منهم المنافقون الذين مردوا على النفاق، وهم أكثرهم، والتائبون المعترفون بذنوبهم تابوا وزكوا توبتهم بالصدقة، وطلب دعاء الرسول ﷺ واستغفاره لهم، ذكر في هذه الآية الصنف الثالث وهو القسم الأخير ألا وهم الذين ظلّ أمرهم موقوفاً إلى الله ﷻ. (1)

ثانياً: سبب النزول:

دُكر في سبب نزول هذه الآية قولان هما:

أ. نزلت في الثلاثة الذين خلفوا وربطوا أنفسهم بالسواري ولم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه فوقفهم الرسول ﷺ خمسين ليلة، ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم وأمر نساءهم باعتزالهم، حتى شقهم الفلق ونهتكمهم الحزن وضائق عليهم الأرض برحبها، وكانوا من أهل بدر، وهم: هلال بن أمية، ومرارة بن ربعي - الربيع -، وكعب بن مالك، من الأوس والخزرج، فجعل أناس يقولون: هلكوا، وآخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم، فصاروا مرجئين لأمر الله. (2)

ب. قيل: "إنها نزلت في غيرهم من المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنائهم مسجد الضرار". (3)

الراجح: ما تميل إليه الباحثة وترتضيه هو القول الأول، وأن الآية الكريمة نزلت في الثلاثة المؤمنين الذين تخلفوا عن الغزوة وذلك لأن سياق الآيات السابقة كانت تتحدث عن المؤمنين الذين تخلفوا عن الغزوة.

أيضاً الروايات التي نقلت في القول الثاني نقلت بلفظ (قيل) وهذا يدل على التضعيف، ومعظم كتب التفسير ذكرت القول الأول والقليل منها ذكرت القول الثاني.

(1) ينظر: غرائب القرآن / 3 / 527، وتفسير المنار 11 / 29، وأيسر التفاسير 2 / 423، ولباب التأويل 2 / 405.

(2) ينظر: أسباب النزول ص: 258، وجامع البيان 14 / 466، والكشاف 2 / 309، وبحر العلوم 2 / 87،

والكشف والبيان 5 / 91، والتفسير الوسيط 2 / 523، وتفسير البغوي 2 / 386.

(3) المحرر الوجيز 3 / 80.

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

مُرْجُونَ: مُرْجُونَ لأمر الله ﷻ وقضائه، يقال منه: "أرجأته أرجأه إرجاء وهو مرجأ"، بالهمز وترك الهمز، وهما لغتان معناهما واحد.⁽¹⁾

تأتي أيضاً بمعنى: موفقون لأمر الله ﷻ، مؤخرون على أمر الله ﷻ، ويقال: متروكون لأمر الله ﷻ لهم، ويقال مؤخر أمرهم من التأخير⁽²⁾، ويقال فيها بأنها تأتي بمعنى محبسون وهي من أرجيته: أي حبسته.⁽³⁾

الراجح: ما توصلت إليه الباحثة من خلال المعاني المختلفة لكلمة (مرجون) أن هؤلاء القوم أمرهم وكلّ وأسند وترك لحكم الله ﷻ فيهم، وأنه تأخر ولم ينزل حكمه فيهم كما نزل الحكم فيمن تخلف معهم وقدموا أعداءهم للرسول ﷺ.

يُعَذِّبُهُمْ: فيها وجهان، هما:

أ. يميتهم على حالهم.

ب. "يأمر بعذابهم إذا لم يعلم صحة توبتهم".⁽⁴⁾

تستدل الباحثة من خلال المعنيين السابقين أن كليهما يدلان على شدة الموقف والذل الذي كانوا فيه، وهذا بسبب تخلفهم عن غزوة الرسول ﷺ ومساندة المؤمنين، وذلك حتى يكونوا عبرة لغيرهم.

يَتُوبُ عَلَيْهِمْ: تحتل وجهين، هما:

أ. أن يعلم صدق توبتهم فيطهر ما فيهم.

ب. أن يعفو عنهم ويصفح عن ذنوبهم.⁽⁵⁾

ترى الباحثة أن كلا المعنيين يدلان على رأفة الله ﷻ ورحمته بعباده، من قبول توبتهم، ومغفرة ذنوبهم، وتطهيرهم منها.

(1) ينظر: جامع البيان 14 / 464.

(2) ينظر: بحر العلوم 2 / 87، وتفسير البغوي 2 / 386، والبحر المديد 2 / 426، الجواهر الحسان 3 / 212، وأيسر التفاسير 2 / 422، والتفسير الواضح 2 / 13.

(3) ينظر: تأويلات أهل السنة 5 / 475.

(4) النكت والعيون 2 / 400.

(5) ينظر: المرجع السابق 2 / 400.

2. الإعراب:

اختلف في إعراب قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ﴾ على ماذا تعطف، والأقوال فيها على النحو الآتي:

أ. أن الجملة لا محل لها من الإعراب، وهي معطوفة على جملة قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ﴾ أي عطف نسق على ما تقدم أي وآخرون اعترفوا و﴿مُرْجُونَ﴾ صفته ولأمر الله ﷻ متعلقان بمرجون يعني وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم. (1)

ب. أن الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: 101]، والمعنى: من أهل المدينة منافقون ومنهم آخرون مُرْجُونَ. (2)

جملة: ﴿يُعَذِّبُهُمْ﴾ في محل رفع خبر المبتدأ (آخرون).

جملة: ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ في محل رفع معطوفة على جملة يعذبهم.

جملة: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لا محل لها من الإعراب وهي جملة استئنافية. (3)

3. الجوانب البلاغية:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ جاءت ﴿إِنَّمَا﴾ هنا للشك والترديد، والشك بالنسبة للمخاطب- المخلوقين-، وإما للإبهام بالنسبة إلى الله ﷻ بمعنى أنه ﷻ أبهم على المخاطبين، وجعلهم في ترديد بالنظر لاعتقادنا فيهم، وإلا فإن الله ﷻ يعلم ما كان وما يكون، ويعلم الحركات والسكون، فيعلم ما سيؤول إليه أمرهم من غير إخبارهم، وعلمه محيطون بأعمالهم وإرادتهم. (4)

4. القراءات:

قوله تعالى: ﴿مُرْجُونَ﴾ فيها قراءتان، هما:

(1) ينظر: التبيان 2 / 659، وإعراب القرآن، النحاس 2 / 133، والجدول 11 / 30، وإعراب القرآن وبيانه 4 /

173، وجامع البيان 14 / 464.

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه 2 / 467.

(3) ينظر: الجدول 11 / 30.

(4) ينظر: فتح البيان 5 / 393، تفسير القرطبي 8 / 252، والتفسير الواضح 2 / 14، والتبيان 2 / 659.

أ. بغير همز: ﴿مُرْجُونَ﴾ من أرجى، وهى قراءة الحسن، وطلحة، وأبى جعفر، وابن نصاح، والأعرج، ونافع، وحمزة، والكسائي، وحفص.

ب. بالهمز: (مرجؤون) من أرجأ يرجىء، وهى قراءة باقي السبعة.⁽¹⁾

5. الناسخ والمنسوخ:

يقول الشوكاني: "الآية تم نسخها في موضع آخر من سورة التوبة، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّ

الْكَلْبَةَ الْغَلِيظَ خَلْفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: 118]."⁽²⁾

ما تميل إليه الباحثة أن هذه الآية غير منسوخة بالآية الأخرى التي ذكرت في نفس السورة، وإنما الآية نزلت في البداية لبيان كيف كان حال من تخلف عن الغزوة ولم يكن له سبب في التخلف، ولم يقدم عذر للرسول ﷺ، فبينت الآية وصورت لنا حالة الخوف والقلق التي كانت عندهم، وبعد ذلك نزلت فيهم توبة الله ﷻ عليهم في موضع آخر من السورة الكريمة.

رابعاً: المعنى الاجمالي:

يتضح في هذه الآية صنف آخر من الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وهم الذين تخلفوا عن الغزوة ولم يكونوا منافقين وأيضاً لم يقدموا عذراً للرسول ﷺ كما فعل أبو لبابة وغيره من الصحابة ﷺ فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ﴾ أي أن أمرهم راجع لله ﷻ ليقضي فيهم ما هو قاض، ولم يبين شيء، ﴿إِنَّمَا يَعَذِّبُهُمْ﴾ بتخلفهم إن بقوا على ما هم عليه ولم يتوبوا، ﴿وَأِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ويتجاوز عنهم إن تابوا توبة صحيحة وأخلصوا إخلاصاً، ولم يصرح بقبول توبتهم، ولم يُيسسهم من غفرانه، فوقفوا على قدم الخجل، وتردد حالهم بين الأمرين الرهبة والرغبة، وبين الخوف والرجاء، وفيها إخبار من الله ﷻ أنه إن عذبهم فلا اعتراض يتوجه عليه، وإن رحمهم فلا سبيل لأحد إليه، والله ﷻ عالم بما يصير إليه أمرهم إلا أنه خاطب العباد بما يعلمون.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بما يؤول إليه حالهم وبمن يهدي إلى الرشد، وحكيم فيما ينفذه من تعميم من شاء، وتعذيب من يشاء، لا رب غيره ولا معبود سواه، فالآية على هذا فيها ترج لهم واستدعاء إلى الإيمان والتوبة⁽³⁾، وإن الحكمة من إبهام الأمر إثارة الغم والحزن في قلوبهم لتصح توبتهم، وحكمة إبهامه على الرسول ﷺ والمؤمنين تركهم مكالمتهم ومخالطتهم، تربية وتهذيباً

(1) ينظر: المحرر الوجيز 3/ 80، وزاد المسير 2/ 296، وبحر العلوم 2/ 87، وتفسير البغوي 2/ 386،

والموسوعة القرآنية 5/ 296، والتحرير والتنوير 11/ 28.

(2) فتح القدير 2/ 458.

(3) ينظر: فتح البيان 5/ 393، وبحر العلوم 2/ 87، ولطائف الإشارات 2/ 61، والمحرر الوجيز 3/ 80.

للفريقين على ما يجب أن يعامل به أمثالهم ممن يؤثرون الراحة ونعمة العيش، وبيان جرم التخلف عن طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ، والجهاد لإعلاء كلمة الحق، ودفع عدوان أهل الباطل.⁽¹⁾

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآية إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ الحكمة من تلاوة الآية الكريمة:

تكرار تلاوة هذه الآيات القرآنية في مختلف الأوقات وعلى مر الأزمان يوقع في قلوب المؤمنين الرهبة والخوف ويزيدهم عظة وتهذيباً، فيجعل مخلصي الإيمان على يقظة تامة في جميع أقوالهم وأفعالهم، ويجعلهم في رجاء دائم وطمع في القرب من طاعة الله ﷻ والخوف من عذابه.

◀ عبرة ودرس للحركة الإسلامية:

لا بد للحركة الإسلامية حين تتطلق أن تتكشف لها أرض المعركة، وما عليها من مهام يجب القيام بها، ومن عليها وغير مناصر لها، فهذا الكشف ضروري لكل خطوة حتى يعرف أصحاب الحركة مواضع أقدامهم في كل خطوة في الطريق.⁽²⁾

هذا ينطبق على واقعنا الذي نعيش فيه حيث الصراع الدائم بيننا وبين اليهود، المغتصبين لأرضنا، فيجب معرفة مصدر قوتنا، ونحدد بالضبط متى يمكننا التحرك لمحاربتهم، واحتدام الحرب مع الأعداء، ومعرفة كوامن القوة لدينا من عدة بشرية، وأسلحة وإلى غير ذلك من عوامل تكمن وراء النصر والتغلب عليهم، من إيمان وثقة بالله ﷻ.

◀ الرجاء والأمل برحمة الله ﷻ:

إن هذا يضيء شعلة التفاؤل، ويبقي المؤمن على أعتاب الحضرة الإلهية لائثاً ومستجيراً، غير يائس وقانت من رحمة الله ﷻ، واستحضار مثل ذلك في قلب المسلم يجعله دائماً واثقاً برحمة الله ﷻ بعباده.

◀ تفاوت تقييم الخلق للمفاهيم:

يتفاوت تقييم الناس لبعض المفاهيم، وهذه خلقة ربانية من الله ﷻ حيث تتفاوت بحسب المنظار الذي ينظرون إليها من خلاله، وكذلك هو الأمر بالنسبة للمؤمن فقد يعرض قلبه لنسمات

(1) ينظر: تفسير المراغي 11 / 22، والتفسير الواضح 2 / 14.

(2) ينظر: في ظلال القرآن 3 / 1702.

الإيمان فتتحرك كوامن الخير في نفسه، ويتجلى له العمل الصالح فيتعهده، وهو مدرك بأنه يفعل ما فيه الخير والفائدة من العمل، وقد تأخذه الدنيا بمشاغلها ولهوها فتقوته تلك النسمات، فيتقاعس عن الخير، ويبتعد عن الحق، أو قد يرتكب ذنباً دون أن يدرك أنه يسيء إلى نفسه أو إلى محيطه الذي يعيش فيه، فقيامه بصالح العمل لا يعني أنه لا يخطئ ولا يزل، وارتكابه لمعصية ما؛ لا يعني بأنه انحط إلى درك الفسق والشر والكفر والخروج عن الإسلام؛ بل إن ذنبه يثقل كاهله، وتضيق به نفسه، فيستغفر الله ﷻ وكله أمل بأن يتوب عليه، يحدوه إلى ذلك أملة بعظيم مغفرة الله ﷻ⁽¹⁾، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "أَنَّ رَجُلًا قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَجَعَلَ يَسْأَلُ هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَأَتَى رَاهِبًا، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: لَيْسَتْ لَكَ تَوْبَةٌ، فَقَتَلَ الرَّاهِبَ، ثُمَّ جَعَلَ يَسْأَلُ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَى قَرْيَةٍ فِيهَا قَوْمٌ صَالِحُونَ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَأَى بِصَدْرِهِ، ثُمَّ مَاتَ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِبْرٍ، فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا"⁽²⁾، وذلك يدل أن رحمة الله ﷻ أوسع من أن يدركها عقل بشر، روي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْغُفُوبَةِ، مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ"⁽³⁾.

◀ موقف المسلم من نصوص الوعيد:

"يقال بموجب نصوص الوعيد على الإطلاق والعموم دون أن يعين الشخص، فيقال: من فعل كذا فهو متوعد بكذا، ولا يعين الشخص فيقال مثلاً: هذا في النار، أو هذا ملعون، أو هذا مغضوب عليه، إلى غير ذلك من الألفاظ"⁽⁴⁾، وللأسف هذا مما ينطبق على واقعنا فنرى الكثير من الناس من يتجرأ ويحكم على غيره هذا مؤمن وذلك كافر وهذا في الجنة وذلك في النار، ويسبق لسانه فعله، فيجب علينا الحذر من ذلك والتوقف عن إصدار مثل هذه الأحكام وهذا ما يقع فيه عامة الناس، سائلين المولى أن يجنبنا مثل هذه الأقوال، وذلك لإمكان أن يتوب المذنب فيتوب الله ﷻ عليه، أو يستغفر الله ﷻ فيغفر الله له، أو تكون له حسنات تمحو سيئاته، أو

(1) ينظر: القرآن منهاج حياة، غازي صبحي ص: 306-307.

(2) صحيح مسلم 8/ 104، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل، حديث رقم: 7109.

(3) صحيح مسلم 8/ 97، كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى، حديث رقم: 7079.

(4) موسوعة الفقه الإسلامي، التويجري 4/ 623.

تُقبل فيه شفاعته مسلم، أو يُبتلى بما يكفر عنه سيئاته، أو يتجاوز الله ﷻ عنه، فلا نلعن المعين ما دام حياً، سواء كان مسلماً أو كافراً؛ لاحتمال تخلف شرط الوعيد.

◀ حب المسلم لأخيه المسلم الخير:

وهذا يتجلى واضحاً فيما وقع من الصحابة ﷺ حيث إنهم كانوا يرجون أن ينزل الله ﷻ في المتخلفين آية قرآنية يغفر الله ﷻ لهم من خلالها خطأهم الذي وقعوا فيه ويتجلى ذلك واضحاً في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا من عوامل قوة المجتمع ونجاحه وتقدمه وتطوره في جميع مجالات وجوانب الحياة التي نعيشها، لذلك ينبغي على المؤمن أن يشعر بشعور الآخرين من الجيران والأصحاب.

المبحث الثالث

المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية

(107 – 110)

مسجد الضَّرَّار ومسجد التقوى وموقف

الرسول ﷺ منهما

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مسجد الضَّرَّار (المنافقين).

المطلب الثاني: مسجد التقوى (قباء).

المطلب الثالث: موقف الرسول ﷺ من مسجد

الضَّرَّار، ورد فعل المنافقين.

المطلب الأول مسجد الضرار (المنافقين)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْكَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 107].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

ذكر الله ﷻ أن المنافقين في المدينة المنورة الذين مردوا على النفاق لم يكتفوا بالعودة عن الجهاد، وتثبيت المؤمنين عنه، وما زال السياق في فضح المنافقين وإغلاق أبواب النفاق في وجوههم حتى يتوبوا إلى الله ﷻ أو يهلكوا وهم كافرون، وهنا ذكر صنفاً آخر من المنافقين الذين تعدوا وأرادوا التفريق بين المؤمنين، فأنشأوا مسجداً لا ليقيموا فيه الصلوات، بل ليكون وكراً لهم، وليجروا فيه خياناتهم، واتصالاتهم بأعداء الإسلام من الرومان، وليفروا بين المؤمنين.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

ذكر أن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم فصلى فيه، فحسدهم إخوتهم بنو غنم بن عوف، وقالوا: نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله ﷺ ليصلي فيه كما صلى في مسجد إخواننا، وليصل فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية وتنصر ولبس المسوح، وأنكر دين الحنيفية، ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة عاداه، وهو الذي حزب الأحزاب وجمعهم لقتال رسول الله ﷺ فلما خذله الله ﷻ، خرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر فأتي بجند الروم، وأخرج محمداً وأصحابه، فبنوا له مسجداً إلى جنب مسجد قباء، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً، وهم: خدام بن خالد، ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وأبو حبيبة بن الأزعر وعباد بن حنيف وجارية بن عمرو وابناه مجمع وزيد ونبيل بن حارث وبحزج وبيجاد بن عثمان ووديعة بن ثابت، فلما فرغوا منه أتوا رسول الله ﷺ فسألوه أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، فقالوا: إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلية المطيرة والليلية الشتوية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فدعا بميصه ليلبسه فيأتيهم، فنزلت الآية، وأخبره الله ﷻ خبر مسجد الضرار وما هموا به، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشياً قاتل حمزة، وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، فخرجوا وانطلق مالك وأخذ عسفاً من النخل فأشعل فيه ناراً،

(1) ينظر: فتح البيان 5/ 394، وأيسر التفاسير 2/ 424، وخاتم النبيين ﷺ، أبي زهرة 3/ 1060.

ثم دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله، وأمر النبي ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة، ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً.⁽¹⁾

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

ضَرَّارًا: مصدر ضار مبالغة في ضر، أي ضرارا لأهل الإسلام، وداعية لأجل الإضرار بين الجماعتين، والذي ليس لك فيه منفعة وعلى غيرك المضررة.⁽²⁾

وَأَرْصَادًا: يقال رصد، وأرصد: راقب، ورصد تكون للخير والشر، وأرصد لا تكون إلا للشر، والإرصاد الانتظار لسوء يتوقع، والإعداد له، والترقب مع العداوة، وتأتي أيضاً بمعنى التهيئة.⁽³⁾

أَلْحُسْنَى: يحتمل ثلاثة أوجه:

أ. طاعة الله ﷻ.

ب. الجنة.⁽⁴⁾

ج. فعل التي هي أحسن، والإرادة الحسنة وهو الخير من إقامة الدين والجماعة والصلاة.⁽⁵⁾

الراجح: ما ترتضيه الباحثة أن جميع الأوجه لكلمة الحسنى تعني في البداية الإرادة والفعل الحسن، وبذلك يكون قد أطاع الله ﷻ فيدخل الجنة.

وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ: يحتمل فيها وجهان:

أ. "والله يعلم إنهم لكاذبون في قولهم خاتنون في إيمانهم.

ب. والله يعلمك أنهم لكاذبون خاتنون، فصار إعلامه له كالشهادة منه عليهم".⁽⁶⁾

(1) ينظر: جامع البيان 14 / 468 - 469، وتفسير ابن كثير 4 / 210-211، وتفسير مقاتل بن سليمان، أبو

الحسن مقاتل البلخي 5 / 137، وغرائب القرآن 3 / 529، أسباب النزول ص: 259 - 260،

(2) ينظر: أحكام القرآن، ابن العربي 2 / 582، والجواهر الحسان 3 / 214.

(3) ينظر: لباب التأويل 2 / 406، وأحكام القرآن، ابن العربي 2 / 582، وزهرة التفاسير 7 / 3442، والتحرير والتنوير

30/11.

(4) ينظر: النكت والعيون 2 / 401.

(5) ينظر: أيسر التفاسير 2 / 424، والموسوعة القرآنية 10 / 40، والنكت والعيون 2 / 401.

(6) النكت والعيون 2 / 402.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ الكلمة فيها وجهان:

أ. النصب على الاختصاص بالذم.

ب. الرفع على الابتداء والخبر محذوف معناه فيمن وصفنا الذين اتخذوا.⁽¹⁾

الواو: استئنافية على كل حال وجملة ﴿اتَّخَذُوا﴾ صلة .

قوله تعالى: ﴿وَكُفْرًا وَتَفْرِقًا﴾ عطف على ضراراً.⁽²⁾

قوله تعالى: ﴿ضِرَارًا﴾ يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً لـ ﴿اتَّخَذُوا﴾، وكذلك ما بعده، وهذه المصادر كلها واقعة موضع اسم الفاعل؛ أي: مضراً ومفترقاً، وجائز أن تكون مفعولاً له.⁽³⁾

قوله تعالى: ﴿وَلِرِصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ "إرصاداً عطف أيضاً، ولمن حارب الله متعلقان بإرصاداً"⁽⁴⁾، وجملة حارب الله صلة الموصول، واللام واقعة في جواب القسم.⁽⁵⁾

قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا آلَ الْحُسَيْنِ﴾ "جواب القسم، ومعتضة، أو في موضع الحال".⁽⁶⁾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ "جملة يشهد خبر وإن وما في حيزها مفعول يشهد وإن واسمها واللام المزحلقة وكاذبون خبرها".⁽⁷⁾

3. القراءات:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ فيها قراءتان، تفصيلها كالتالي:

أولاً: من قرأ ﴿وَالَّذِينَ﴾ بواو، وهي قراءة جمهور القراء، وفيه وجهان:

أ. معطوف على قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرُونَ مُرْجُونَ﴾؛ أي: ومنهم الذين اتخذوا.

ب. مبتدأ، والخبر: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ﴾؛ أي: منهم، فحذف العائد للعلم به.

(1) ينظر: التفسير المنير 11/ 38، وتفسير القرطبي 8/ 253، والجدول 11/ 30، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 173.

(2) ينظر: الجدول 11/ 30، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 173، والمجتبى 2/ 414.

(3) ينظر: التبيان 2/ 659-660، والتفسير المنير 11/ 38، ومعاني القرآن وإعرابه 2/ 468.

(4) إعراب القرآن، النحاس 2/ 134، والجدول 11/ 30.

(5) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4/ 173، والمجتبى 2/ 414.

(6) التحرير والتنوير 11/ 30.

(7) الجدول 11/ 30، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 174.

ثانياً: من قرأ ﴿الَّذِينَ﴾ بغير واو، وهي قراءة نافع، وأبى جعفر، وشيبة، وابن عامر - مصحف المدينة والشام-، فيه وجه واحد هو أن يكون الذين مبتدأ، والخبر ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ على ما تقدم، وهي جملة مستأنفة، ونكتة الاستئناف هنا التنبيه على الاختلاف بين حال المراد بها وبين حال المراد بالجملة التي قبلها وهم المرجون لأمر الله.⁽¹⁾

4. استنباطات فقهية:

قال تعالى: ﴿وَتَقَرَّبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا يدل على أن المقصد الأكثر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة، وعقد الذمام والحرمة بفعل الديانة، حتى يقع الأئس بالمخالطة؛ وتصفو القلوب من وضر الأحقاد والحسد.

لهذا المعنى تظن مالك رحمه الله حين قال: "إنه لا تصلي جماعتان في مسجد واحد، ولا بإمامين، ولا بإمام واحد"، وهذا خلافاً لسائر العلماء، وقد روي عن الشافعي المنع حيث كان ذلك تشتيتاً للكلمة، وإبطالاً لهذه الحكمة، وذريعة إلى أن نقول: من أراد الانفراد عن الجماعة كان له عذر، فيقيم جماعته، ويقوم إمامته؛ فيقع الخلاف، ويبطل النظام، وخفي ذلك عليهم، وهكذا كان شأنه معهم، وهو أثبت قدماً منهم في الحكمة، وأعلم بمقاطع الشريعة.⁽²⁾

استدل العلماء من خلال هذه الآية على النهي عن الصلاة فيمن بنى المساجد مباهاة أو رياء، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله ﷻ، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار، فهذه المقامات أولى بالهدم والحرق لأنها لا تقصد إلا لوجه الشيطان.⁽³⁾

رابعاً: المعنى الإجمالي:

الآية توضح لنا مكائد المنافقين وكيف بنوا مسجداً لأجل الاضرار بالمسلمين وحتى يأتيه أهل المنطقة، ولأجل الكفر بالله ﷻ وبرسوله ﷺ، وتسميته مسجد الضرار؛ لأنه أنشئ للضرار، فأخذ اسمه من مقصده⁽⁴⁾، وأخبر الله ﷻ وبين البواعث والأغراض التي جعلت المنافقين يقومون ببناء هذا المسجد، وهي أمور أربعة:

أ. اتخذه لمضارة المؤمنين، وهم أهل مسجد قباء، ومحاولة إيقاع الضرر بهم.

ب. تقوية الكفر وتسهيل أعماله، والمباهاة لأهل الإسلام لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق.

(1) ينظر: فريدة الدهر 2/ 852، وتفسير القرطبي 8/ 253، والموسوعة القرآنية 5/ 296، والتبيان 2/ 659-660، وزهرة

التفاسير 7/ 3442، والمحرم الوجيز 3/ 80، وزاد المسير 2/ 296، والتحرير والتنوير 11/ 29.

(2) ينظر: أحكام القرآن، ابن العربي 2/ 582.

(3) ينظر: الكشف 2/ 309، وموسوعة الألباني في العقيدة، الأشقودري الألباني 2/ 516.

(4) ينظر: زهرة التفاسير 7/ 3442.

ج. التفريق بين المؤمنين، لأنهم كانوا يصلون جميعاً في مسجد قباء فأرادوا أن لا يحضروا مسجدهم فقتل جماعة المسلمين، وفيه من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى.

د. الإرصاء لمن حارب الله ﷺ ورسوله ﷺ من قبل اتخاذ هذا المسجد.⁽¹⁾

كل ما ذكر من أهداف بناء المسجد يوضح لنا أعظم خصال النفاق العملي، وهي أن يعمل الإنسان عملاً، ويظهر أنه قصد به الخير، وإنما عمله ليتوصل به إلى غرض له سيئ، ويتوصل بهذه الخديعة إلى غرضه، ويفرح بمكره وكذبه وحمد الناس له على ما أظهره، وتوصل به إلى غرضه الذي أبطنه.⁽²⁾

ولكي يتم تصديقهم والاطمئنان لأفعالهم اكدوا ذلك بالحلف والأيمان، في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾، وهذا إخبار من الله ﷻ مؤكداً بالقسم أنهم سيحلفون إنهم ما أرادوا بينائه إلا الخصلة أو الخطة التي تفوق غيرها في الحسن؛ وهي الرفق بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولي العجز والضعف ومن يحبسهم المطر منهم، ليصدقهم الرسول ﷺ، ويصلي لهم فيه والله ﷻ يعلم إنهم لكاذبون في إيمانهم لأنهم ما بنوه إلا للسوء، وأنهم حائنون بيمينهم.⁽³⁾

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآية إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ تشابه الأزمنة:

ما أشبه الليلة بالبارحة، وما أشبه اليوم بالأمس، وما أكثر مساجد الضرار في هذه الأيام، فإن عمل منافقي اليوم ضرار بالإيمان والمؤمنين بوجه أشد نكاية وأذى للإسلام والمسلمين⁽⁴⁾، ونحن قد نجد بعض الحكام قد اتخذوا من بيوت الله ﷻ أداة لأعمال الجاهلية من تصفيق وهتافات لهم ولجاهليتهم، وهنا يجب تصحيح الهدف من إقامة المساجد، وبيان أهميتها، وتوضيح دروها.

◀ الصد عن سبيل الله ﷻ:

كل عمل يراد به تفريق الناس أمر محرم شرعاً يؤدي إلى الكفر، ومثل هذه الأعمال لا تنطبق على المساجد فقط بل تشمل جميع جوانب الحياة التي نعيشها، فكل ما أسس على باطل يجب الابتعاد عنه ولو ظن الإنسان أن فيه خير.

(1) ينظر: فتح البيان 5/ 394، ومفاتيح الغيب 16/ 146، الكشاف 2/ 309، وتفسير المنار 11/ 31-32،

وتهذيب اقتضاء الصراط المستقيم ص: 253، وخاتم النبيين ﷺ 3/ 969.

(2) ينظر: روائع التفسير، زين الدين 1/ 529.

(3) ينظر: وفتح البيان 5/ 395، وتفسير المنار 11/ 31-32، وتفسير المراغي 11/ 26.

(4) ينظر: الإبطال لنظرية الخلط، بكر بن عبد الله ص: 99.

◀ تحريم اتخاذ الدين كعباءة للتستر لنيل المصالح:

"إنَّ أكبرَ خطرٍ كان وما يزال يهدّدُ بنيةَ المجتمعِ هو ظهورُ من يتظاهر بحملِ رايةِ الدِّينِ ورفعِ شعاراته، في سبيلِ تجميعِ المؤمنينِ البسطاءِ والمتحمّسينِ حوله، بغيةِ استخدامهم كعاملِ تخريبٍ وهدمٍ لسائرِ نشاطاتِ المجتمعِ الآمنِ المسالمِ، وقد نجحت بعضُ هذه الفئاتِ الباغيةِ المضلّةِ في تنفيرِ النَّاسِ منهم، بعد أن أظهرُوا الدِّينَ على هيئةِ أداةٍ للتعصبِ والتكيلِ والتفريقِ".⁽¹⁾

◀ الهدف من إعمار بيوت الله ﷻ:

إن بيت الله ﷻ، هو البيت الذي حوى المؤمن الحقيقي طاهر القلب صافي النوايا، والذي تكون حياته وعمله وإنتاجه سلاماً، وهو التقي النقي الورع، الذي يربط القلوب ويوحدها بكلامه وتصرفاته، ممّا يعطي ما بينيه صفة الديمومة والأفضلية، وهو البيت الذي يجمع المؤمنين، ويوحد صفوفهم، ويجمع شملهم، ويقوي عصبته، وكل ذلك للوقوف في وجه الأعداء، ومحاربتهم، وهذه إحدى عوامل النصر والنهوض بالأمة الإسلامية.

◀ جزاء من ينتهك حرمة بيت الله ﷻ:

من ينتهك حرمة بيت الله ﷻ ويتخذ منه مجلساً للنفاق وإثارة الخوف وبثّ الذعر في صفوف المؤمنين فإنه يقوم بعمل متصدّع الأركان، سرعان ما ينهار أمام قوّة الحقّ والإيمان، ومصيره الخزي في الحياة الدنيا بأن يبعث الله ﷻ من يكشف نواياه السيئة، والعذاب في الدار الآخرة، وهذا هو مصير الظالمين.

◀ كلمة حق أريد بها باطل:

حيث إنّ المعتبر في الشيء هو أصل تأسيسه، فالمسجد الذي أنشئ على باطل يبقى منشأً على باطل، وما أنشئ على حق يبقى منشأً على حق، نجد اليوم بعض القنوات التلفزيونية وكيفية تضليلهم بإعلامهم المزيف، ويسحرون الناس ويحلفون أنهم ما أرادوا إلاّ الإصلاح ويستعينون لتحقيق ذلك بعلماء السلاطين الفاسدين المضلين المضللين الذين يُستخدمون كأبواق فتنة وضلال، وهذا حدث قديماً، ويحدث اليوم في ظل الأنظمة والحكومات الهاربة عن دين الله ﷻ.

(1) ينظر: القرآن منهاج حياة ص: 668.

التحزب والتفرق:

نرى في يومنا المعاصر كيف تكثر الأحزاب والملل والنحل والطوائف المفرقة بين جماعة المؤمنين، فنحن نلمس جلياً كيف تخرج كل يوم جماعات وفئات جديدة، تحمل شعارات مختلفة، والهدف الحقيقي منها ليس للإسلام ولا لإعلاء كلمة الحق، إنما الهدف الأساس والنوايا الخفية منها هي تفريق المسلمين وتشتيت كلمتهم، وهذا كله من الدوافع التي تعمل على تعجيل هزيمتهم أمام أعدائهم، وذلك مخالف تماماً للأسباب التي أنشئت عليها.

المطلب الثاني مسجد التقوى (قباء)

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا نَقُومَ فِيهِ أَبَدًا لَمَسَّجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: 108].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن بيّن الله ﷻ للرسول محمد ﷺ الأهداف التي من أجلها بُني مسجد الضرار، والذي قام ببنائه المنافقون جاء في هذه الآية ليؤكد له عدم الصلاة فيه أبداً، والأمة تبع له في ذلك، ثم بيّن الله ﷻ أيّ المسجدين أحق بالقيام فيه فحث النبي ﷺ على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بني فيه على التقوى.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

نزلت الآية الكريمة في أهل قباء كانوا يستنجون بالماء⁽²⁾، ورد حديث عن أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ، قال: "نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجالٌ يحبُّونَ أن يتطهَّروا والله يحبُّ الْمُطَهَّرِينَ" ⁽³⁾.

موقف الرسول ﷺ عند نزول الآية الكريمة أنه ذهب لأهل قباء فقال: إن الله ﷻ قد أحسن عليكم الثناء في التطهر فما تصنعون؟ قالوا: يا رسول الله إنا رأينا جيراننا من اليهود يتطهرون بالماء يريدون الاستنجاء بالماء ففعلنا ذلك، فلما جاء الإسلام لم ندعه.⁽⁴⁾

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

لَا نَقُومَ: لا تصلّ فيه؛ لأن المنافقين سألوا الرسول ﷺ أن يصلي ويتعبد فيه، وقيل لا تأتته، ولا تدخله.⁽⁵⁾

- (1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه 2/ 469، وتيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الوهاب ص: 159.
- (2) ينظر: تفسير ابن كثير 4/ 213، والمحرر في أسباب نزول القرآن، خالد بن سليمان المزيني 1/ 604.
- (3) سنن الترمذي 5/ 280، أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، حديث رقم: 3100، [حكم الألباني: صحيح].
- (4) ينظر: تفسير القرطبي 8/ 259-260، والجواهر الحسان 3/ 215، والبحر المديد 2/ 429، وأنوار التنزيل 3/ 98، والبحر المحيط 5/ 505، والكشف والبيان 5/ 94.
- (5) ينظر: تأويلات أهل السنة 5/ 479، والجديد في شرح كتاب التوحيد، القرعاوي ص: 111، وبحر العلوم 2/ 88، التحرير والتنوير 11/ 30.

أُسِّسَ: التأسيس هو وضع الأساس للبناء ليقوم عليه ويرفع.⁽¹⁾

لَمَسَّجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى: فيه قولان، هما:

أ. "مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ أيام مقامه بقباء".⁽²⁾

ب. "مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة".⁽³⁾

الراجح: أن المسجد المقصود في الآية هو مسجد قباء، وذلك لما ورد في تفسير الشوكاني حيث إنه قال في كتابه: "اختلف العلماء في المسجد الذي أسس على التقوى، فقالت طائفة: هو مسجد قباء كما روي عن ابن عباس والضحاك والحسن والشعبي وغيرهم، وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبي ﷺ، والأول أرجح".⁽⁴⁾

هذا الرأي ما تميل إليه الباحثة وترتضيه؛ لأن سياق الآية السابقة تتحدث عن ذكر مسجد ضرار، والذي بني بسبب تواجد المسلمين في مسجد قباء، ولتفريق وحدة المسلمين فأثنى الله ﷻ في سياق هذه الآية الكريمة ومدح مسجد قباء وأهله.

يَنْظَهُرُوا: فيها أربعة أقوال، هي:

أ. المقصود بالتطهر بالإيمان، والتوحيد، والصلاة فيه.

ب. أن فيه رجال يؤثرون التطهر بالتقوى والأعمال الصالحة على غيرها من الأعمال التي تتجسم.⁽⁵⁾

ج. يحتمل التطهير من الأقدار والأنجاس؛ كأنه قال: فيه رجال يؤثرون الإبلاغ في التطهر من الأقدار والأنجاس التي تصيبهم، وهو عام في التطهر من النجاسات كلها.⁽⁶⁾

د. أن الطهارة التي ذكرها الله ﷻ المقصود بها هو طهارتهم سراً وعلانية والطاعة له.⁽⁷⁾

(1) ينظر: التفسير الوسيط 6/ 404، والتفسير الواضح 2/ 15.

(2) جامع البيان 11/ 681، ومعاني القرآن وإعرابه 2/ 469، والتفسير الوسيط 6/ 404، والموسوعة القرآنية 10/ 40.

(3) تأويلات أهل السنة 5/ 479-480، والموسوعة القرآنية 10/ 40.

(4) فتح القدير 2/ 459.

(5) ينظر: تأويلات أهل السنة 5/ 482.

(6) ينظر: الكشف 2/ 311، ومعاني القرآن وإعرابه 2/ 469، والتفسير الوسيط 6/ 404.

(7) ينظر: تفسير التستري، أبو محمد التستري ص: 74.

الراجح: ما تميل إليه الباحثة وترتضيه أنّ ﴿يَنْظَهُرُوا﴾ تعني ينتزهون من الأحداث والأنجاس الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث، والمعنوية كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة.⁽¹⁾

2. الإعراب:

جملة قوله تعالى: ﴿لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا﴾ خبر عن اسم الموصول الذين.⁽²⁾

﴿لَمَسْجِدٍ﴾: اللام للابتداء ومسجد مبتدأ.

جملة ﴿أَمْسَرَ عَلَى التَّقْوَى﴾ "صفة لـ (مسجد)".⁽³⁾

﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾: فيه ثلاثة أوجه:

أ. صفة لمسجد جاءت بعد الخبر.

ب. أن الجملة حال من الهاء في ﴿فِيهِ﴾ الأولى، والعامل فيه (تقوم).⁽⁴⁾

ج. هي مستأنفة.⁽⁵⁾

جملة: ﴿لَمَسْجِدٍ أَمْسَرَ﴾ لا محل لها من الإعراب، وهي جملة تعليلية.

جملة: ﴿يُحِبُّونَ﴾ "في محل رفع صفة لرجال".⁽⁶⁾

جملة: ﴿أَنْ يَنْظَهُرُوا﴾ أن وما في حيزها مفعول يحبون أي يحبون الطهارة من الذنوب والحوادث والمعاصي وقيل من الذنوب طهارة الباطن ومن الأحداث طهارة الظاهر.⁽⁷⁾

وجملة: ﴿يُحِبُّ﴾ "في محل رفع خبر المبتدأ (الله)".⁽⁸⁾

3. الجوانب البلاغية:

قال تعالى: ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ﴾ فيها فن الترويد، وفن الترويد هو أن يعلق المتكلم

لفظة من الكلام بمعنى، ثم يردّها بعينها، ويعلقها بمعنى آخر، ولكل من المعنيين مناسبة

(1) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم 6/ 404، تيسير الكريم الرحمن ص: 352.

(2) ينظر: التحرير والتنوير 11/ 30.

(3) إعراب القرآن وبيانه 4/ 174، والتبيان 2/ 660، والجدول 11/ 34.

(4) ينظر: البحر المحيط 5/ 505.

(5) التبيان 2/ 660، والبحر المحيط 5/ 505.

(6) الجدول 11/ 34، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 174.

(7) إعراب القرآن وبيانه 4/ 174.

(8) إعراب القرآن الدعاس 2/ 8.

اقتضت ذلك المعنى، وقوله الذي نحن بصدد، فإن ﴿فِيهِ﴾ الأولى متعلقة بـ ﴿تَقُومَ﴾، و﴿فِيهِ﴾ الثانية خبر مقدم، ولكل منهما معنى. (1)

رابعاً: المعنى الإجمالي:

نهى الله ﷺ نبيه محمداً ﷺ في هذه الآية عن الصلاة في مسجد الضرار الذي أسس أول ما أسس على المقاصد الخبيثة السيئة، من تفريق بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ﷺ ورسوله ﷺ، ثم أمر الله ﷺ الرسول ﷺ بالصلاة في المسجد الذي أسس وبني من أول يوم على طاعة الله ﷺ ورسوله وأقيم على التوحيد والذي قام ببناؤه المنقون، ثم أتى ﷺ على أهل هذا المسجد، وذكر أنهم يحرصون على الطهارة والنظافة من المعاصي وهذه سمة العابدين، ويتطهرون عن الشهوات والأمانى وتلك صفة الزاهدين، ويتطهرون عن محبة المخلوقين، ثم عن شهود أنفسهم بما يتصفون وتلك صفة العارفين، ثم بين ﷺ أنه يحب المتطهرين من القاذورات والنجاسات، والمنتزهين عن أوضاع الشرك وأرجاسه، ومعنى محبة الله ﷺ إياهم أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه. (2)

تكن مكانة مسجد قباء عند المسلمين ما ذكر في الحديث النبوي الشريف عن أُسَيْدِ بْنِ ظُهَيْرِ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: "صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ كَعُمْرَةٍ". (3)

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآية إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ بيان أن المسجد من أهم الركائز في بناء المجتمع:

إقامة المساجد من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك، بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وينبع ذلك من روح المسجد ووحيه، ولا يضاره أحد، ما دام حافظاً لقداسته ومؤدياً حق حرمة، وهو قد أنشئ ليكون جامعة للعلوم والمعارف الكونية والعقلية والتنزيلية، التي حث القرآن الكريم على النظر فيها، وليكون مدرسة يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم وثمرات عقولهم، وليجد فيه الغريب مأوى،

(1) ينظر: الجدول 11 / 35.

(2) ينظر: جامع البيان 11 / 681، والكشاف 2 / 311، ولطائف الإشارات 2 / 62، والجديد في شرح كتاب التوحيد ص: 111-112، ومدارك التنزيل 1 / 710.

(3) سنن ابن ماجه 1 / 453، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، حديث رقم: 1411، [حكم الألباني: صحيح]

وابن السبيل مستقراً لا تكدره منة أحد عليه فينهل من رفته ويعب من هدايته ما أطاق استعداده النفسي والعقلي، لا يصدّه أحد عن علم أو معرفة أو لون من ألوان الهداية، فكم من قائد تخرج فيه، وبرزت بطولته بين جدرانه، وكم من عالم استبحر علمه في رحابه، ثم خرج به على الناس يروي ظمأهم للمعرفة، وكم من داعٍ إلى الله ﷻ تلقى في ساحاته دروس الدعوة إلى الله فكان أسوة الدعاة، وقدوة الهداة، وريحانة جذب القلوب شذاها فأخذت عنها الهداية لتستضيء بأنوارها، وهي قلعة لاجتماع المجاهدين إذا استنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد، والدعوة إلى الله، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرايات للتوجه إلى مواقع الأحداث.⁽¹⁾

◀ توضيح أثر المسجد على المجتمع:

الحقيقة أنه ما من مكان في الأرض يستطيع تحقيق ما يحققه المسجد من توحيد في الكلمة والجهود والقضاء على العصبية إذا وجد من يحسن الاستفادة منه من الناحية الإعلامية، التربوية، الجهادية، والتعليمية، والحرص على عدم ريادة المساجد التي هدفها نشر الفتن والتفريق بين شباب المسلمين، وأيضاً عدم متابعة قنوات الفسوق والفتن، التي تهدف إلى تدمير عقلية الشباب المسلم، والقنوات الإعلامية التي تنشر الأخبار والأكاذيب لتضليل المسلمين.

◀ بيان خطر المنافقين:

يجب علينا كمتعلمين التوضيح والبيان للعامة من الناس أفعال بعض المنافقين والذين ينادون بألفاظ برّاقة لخداع الناس والأمة الإسلامية ووجوب الحذر منهم، والعدو الصهيوني نراه اليوم يقوم باستغلال اختلاف العرب فيما بينهم لزيادة الحقد في قلوبهم والتفرقة بينهم، وهذا حال اليهود أنهم يدخلون من الثغرات للنيل من المسلمين والعرب كافة وليس فلسطين فقط.

◀ حرص الإسلام على النظافة:

اعتنى ديننا الإسلامي الحنيف بنظافة الإنسان وصحة جسمه، وحرص أشد الحرص على النظافة بشكل عام وبيّن فضلها، وهذا ما نجده في السنة النبوية؛ والقرآن الكريم، والله ﷻ يحب من كانت النظافة صفةً له، ولا توجد أمة أشد حرصاً على نظافتها من أمة سيدنا محمد ﷺ، فالإسلام حضّ أتباعه على النظافة وأمر بها بشكل عام، والمساجد هي البيوت المعدّة لأداء الصلاة، والمعدّة للقاء المسلمين، فيها يُتلى كتاب الله ﷻ، ويُدرّس حديث الرسول ﷺ، وفيها يُنقّه بالدين، لذلك كانت العناية بالمساجد مؤكّدة أكثر من غيرها، فكما أن على الإنسان أن ينظف بيته، فيجب أن يحرص على طهارة بيت الله ﷻ من أن يصيبه أذى، أو أن يلحق به شيء خاصة الأمراض التي يمكن أن تتجمع في الأماكن العامة، من أجل ذلك نجد كثيراً من

(1) ينظر: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، الصلّابي ص: 306 – 307.

الوصايا النبوية التي تحرص على نظافة المسجد بشكل عام، فالعناية بالمساجد مما أمر به النبي ﷺ حتى أنه نهانا عن أمر قد يعدّه بعض الناس يسيراً، ألا وهو البصاق في المسجد، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْبُصَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا".⁽¹⁾

إنّ الإسلام هو دين النظافة بأوسع معانيها، نظافة العقيدة من الخرافات، والأخلاق من الرذائل والمنكرات، نظافة اللسان من الفحش والكفر والشتم، نظافة الجسد والثياب من الأوساخ، نظافة المسجد والطريق والبيت، نظافة سائر الجوانب التي يستخدمها الإنسان في حياته؛ حتى يبدو المسلم كأنه رمز بين الناس، فالنظافة والتطهر والتجمل أسس لا بد منها لكل مسلم.

(1) سنن النسائي 2 / 50، كتاب: المساجد، باب: البصاق في المسجد، حديث رقم: 723، [حكم الألباني: صحيح].

المطلب الثالث

موقف الرسول ﷺ من مسجد الضرار، ورد فعل المنافقين

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ شَفَا حَرْفٍ مَّكَرًا فَأَثَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُيُوتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيْبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: 109-110].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

ضرب الله ﷻ المثل للمنافقين وأعمالهم والهدف الذي بني لأجله مسجد الضرار، وبعد ذلك وضح مكانة المؤمنين وأعمالهم المؤسسة على الأساس المكين بطريق الإيجاز المحكم، مكانة مسجد قباء واضح، وقارن الله ﷻ في هذه الآية بين الأهداف ببناء المسجدين.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

شَفَا: الطرف الدقيق وراء الهاوية أو الحافة.

حَرْفٍ: المكان المرتفع الرخو من تآكل السيول، وهو جانب الوادي أو البئر، والذي لا يثبت عليه البناء لرخاوته، وأكل الماء له، أو الرياح.

مَكَرًا: الضعيف المتصدع المائل والمشرف على السقوط والانهيال.⁽²⁾

فَأَثَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ: تأتي بمعنيين، هما:

أ. "خسف الله ﷻ مسجدهم في نار جهنم.

ب. لأنه خر من قواعده في نار جهنم، وقال ابن مسعود: حفرت فيه بقعة فروي منها دخان سطع".⁽³⁾

(1) ينظر: التفسير الواضح 2/ 18، والتفسير المنير 11/ 46.

(2) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4/ 171 - 172، والتفسير الحديث 9/ 532، والتفسير المنير 11/ 40، ولباب

التأويل 2/ 408، وخصائص التعبير القرآني، المطعني 1/ 470، وتأويلات أهل السنة 5/ 484.

(3) تأويلات أهل السنة 5/ 484.

رِبَّةً فِي قُلُوبِهِمْ: أي شك وحيرة وغيظ في نفوسهم⁽¹⁾، والريبة فيها عدة وجوه، هي:

أ. أن المنافقين عظم فرحهم ببناء مسجد الضرار، فلما أمر الرسول ﷺ بتخريبه ثقل ذلك عليهم وازداد بغضهم له وازداد ارتيابهم في نبوته.

ب. أن الرسول ﷺ لما أمر بتخريب ذلك المسجد ظنوا أنه إنما أمر بتخريبه لأجل الحسد، فارتفع أمانهم عنه وعظم خوفهم منه في كل الأوقات، وصاروا مرتابين في أنه هل يتركهم على ما هم فيه أو يأمر بقتلهم ويأخذ أموالهم؟

ج. أنهم اعتقدوا أنهم كانوا محسنين في بناء ذلك المسجد، فلما أمر الرسول ﷺ بتخريبه بقوا شاكين مرتابين في أنه لأي سبب أمر بتخريبه؟

د. بقوا شاكين مرتابين في أن الله ﷻ هل سيغفر لهم بسبب سعيهم في بناء مسجد الضرار.⁽²⁾

الراجح: هو القول الأول وذلك لأنه ينطبق على حالهم الذي كانوا فيه، وأنهم ازدادت مكائدهم للمسلمين بسبب أمر الرسول ﷺ بهدم مسجدهم.

إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ: فيها ثلاثة أوجه:

أ. تُفْصَلُ من صدورهم وتنفرق قلوبهم أجزاء فيموتوا.⁽³⁾

ب. قال بعضهم: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفریطهم.⁽⁴⁾

ج. "إلا أن تقطع قلوبهم في قبورهم".⁽⁵⁾

2. الإعراب:

جملة قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾ يجوز أن تكون في موضع الحال من الضمير (أسس)؛ أي: على قصد التقوى؛ والتقدير: قاصداً ببنيانه التقوى، ويجوز أن يكون مفعولاً لأسس.

﴿فَأْتَاهَا يَوْمَهُ﴾ به هنا حال؛ أي: فانهار وهو معه.⁽⁶⁾

(1) ينظر: جامع البيان 495/14 - 497، والتفسير الواضح 2/ 15، والتفسير الحديث 532/9، وأيسر التفاسير 2/ 424، والتفسير المنير 11/ 40، وتأويلات أهل السنة 5/ 484.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب 16/ 149.

(3) ينظر: جامع البيان 495/14 - 497، والتفسير الحديث 9/ 532، وأيسر التفاسير 2/ 424، والتفسير المنير 11/ 40، والنكت والعيون 2/ 405، وتأويلات أهل السنة 5/ 484.

(4) ينظر: معاني القرآن وإعرابه 2/ 471، والنكت والعيون 2/ 405.

(5) النكت والعيون 2/ 405.

(6) ينظر: التبيان 2/ 661، إعراب القرآن، النحاس 2/ 135.

جملة قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ في محل رفع خبر المبتدأ (الله).⁽¹⁾

قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ "استثناء من أعم الأزمنة فالمستثنى منه على هذا محذوف أي لا يزال بنيانهم ربيبة في كل وقت من الأوقات إلا وقت تقطيع قلوبهم وأن مصدرية وتقطع أصلها تنقطع منصوب بها، و﴿قُلُوبُهُمْ﴾ فاعل و(الله) مبتدأ و﴿عَلَيْمٌ حَكِيمٌ﴾ خبره".⁽²⁾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لا محل لها من الإعراب، وهي جملة استئنافية.⁽³⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ فيها استعارة مكنية حيث شبهت فيه التقوى والرضوان بأرض صلبة، ويقواعد البناء، تشبيهاً مضمراً في النفس، ثم حذف المشبه به ودلَّ عليه ما هو من لوازمه، وهو التأسيس والبنيان، والاستفهام معناه التقرير.⁽⁴⁾

ب. قال ﷺ: ﴿فَأَنْهَارٌ يَمِئًا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ استعارة تمثيلية في انهيار البناء القائم على شفا جرف هار، حيث إنه شبه عدم القيام بأمور الدين بمن بنى بنيانه على شفا جرف فهو يسقط به فالمشبه به البناء على محل آيل للسقوط والمشبه هو ترتيب أحكام الدين وأعماله على الكفر والنفاق.⁽⁵⁾

ج. قوله تعالى: ﴿شَفَا جُرْفٍ﴾ وضع في مقابلة قوله تعالى: ﴿تَقْوَىٰ﴾ وجعل مجازاً عما ينافى التقوى، حيث إنه لما جعل الجُرف الهائر مجازاً عن الباطل قال تعالى: ﴿فَأَنْهَارٌ يَمِئًا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز، فجاء بلفظ الانهيار الذي هو للجُرف، وليصور أن الباطل كأنه أسس بنيانه على شفا جُرف هار من أودية جهنم فهوى به ذلك الجُرف فهو في مقرها⁽⁶⁾، "والمجازان يثيران في العقل أروع الفكر، لمن يتدبر قول الله ﷻ، ويحاول أن يتعرف بعض أسرار الذكر الحكيم".⁽⁷⁾

د. قوله تعالى: ﴿هَكَارٍ فَأَنْهَارٌ﴾ بينهما جناس ناقص.⁽⁸⁾

(1) ينظر: الجدول 11 / 36، إعراب القرآن، الدعاس 2 / 8، إعراب القرآن وبيانه 4 / 175.

(2) إعراب القرآن وبيانه 4 / 175.

(3) ينظر: الجدول 11 / 38.

(4) ينظر: التفسير المنير 11 / 39، والجدول 11 / 37، والتحرير والتنوير 11 / 34، وزهرة التفاسير 7 / 3448.

(5) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4 / 176، والتفسير المنير 11 / 40، والتحرير والتنوير 11 / 34.

(6) ينظر: خصائص التعبير القرآني 1 / 470.

(7) زهرة التفاسير 7 / 3448.

(8) ينظر: التفسير المنير 11 / 39، وصفوة التفاسير 1 / 563.

4. القراءات:

- أ. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ﴾ اختلف القراء فيها على النحو الآتي:
- أولاً: قرأ نافع وابن عامر الشامي، بضم الهمزة، وكسر العين على البناء للمفعول، و﴿بُيُوتَهُ﴾ بالرفع نائب فاعل.
- ثانياً: قرأت عامة قراء الحجاز، والعراق بفتح الهمزة والسين فيهما على البناء للفاعل، والفاعل ضمير يعود على (من)، و﴿بُيُوتَهُ﴾ بالنصب مفعول به.
- وهما قراءتان متفقتان في المعنى، فبأيهما قرأ القارئ فمصيب. (1)
- ب. قوله تعالى: ﴿جُرْفٍ﴾ فيها قراءتان، وهما:
- أولاً: قرأ جماعة، منهم: حمزة، وابن عامر، وأبو بكر، بإسكان الراء (جُرْف).
- ثانياً: قرأ باقي السبعة بضم الراء. (2)
- ج. قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قرئت بستة أوجه، وسأكتفي بذكر المشهور:
- أولاً: بفتح التاء، "على أن الفعل للقلوب، بمعنى: إلا أن تنقطع قلوبهم، ثم حذفت إحدى التاءين، وهذا يدل على أنهم يموتون على النفاق، فإذا ماتوا عرفوا بالموت ما كانوا تركوه من الإيمان وأخذوا به من الكفر، وهي قراءة ابن عامر، وحمزة، وحفص". (3)
- ثانياً: بضم التاء، مضارع (قطع)، مبنياً للمفعول، على أنه لم يسمَّ فاعله، وبمعنى: إلا أن يُقَطَّعَ الله قلوبهم، وهي قراءة باقي السبعة. (4)
- قال أبو جعفر: "والقول عندي في ذلك أن الفتح في التاء والضم متقاربا المعنى، لأن القلوب لا تنقطع إذا تقطعت، إلا بتقطيع الله إياها، ولا يقطعها الله إلا وهي متقطعة، وهما قراءتان معروفتان، قد قرأ بكل واحدة منهما جماعة من القراء، فبأيهما قرأ القارئ فمصيب الصواب في

(1) ينظر: معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ، محمد محيسن 1/ 152، وجامع البيان 14/ 490-491، والكشاف

2/ 312، والبحر المحيط 5/ 505، والكشف والبيان 5/ 95.

(2) ينظر: الكشف والبيان 5/ 95، ومفاتيح الغيب 16/ 149، والموسوعة القرآنية 5/ 297، وتفسير البغوي 2/

390، الكشاف 2/ 312، والتحرير والتنوير 11/ 35.

(3) وجامع البيان 14/ 497، والموسوعة القرآنية 5/ 297.

(4) ينظر: الكشاف 2/ 312، الموسوعة القرآنية 5/ 298، والكشف والبيان 5/ 96، أنوار التنزيل 3/ 98.

قراءته، وأما قراءة ذلك: (إِلَى أَنْ تَقَطَّعَ)، فقراءةٌ لمصاحف المسلمين مخالفةً، ولا أرى القراءة بخلاف ما في مصاحفهم جائزةً⁽¹⁾.

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

ابتدأت الآيات بالإستفهام التقريري من الله ﷻ لعبيده أي هذين الفريقين خير؟ وأي هذين البناعين أثبت؟ ثم وضح أن بين الفريقين بوناً كبيراً، والآية تعرض للمسجدين، مسجد قباء، ومسجد الضرار، في وضع يواجه فيه أحدهما الآخر، فيكشف ذلك عن مدى ما بينهما من تفاوت، هذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج، هذا طيب، أطيب الطيب، وهذا خبيث، أخبث الخبيث، والضد إذا قرن بضده، زاد كل منهما في الصفة الغالبة عليه زيادة لا ترى إلا حيث يتقابل مع ضده، فيزداد الحسن حسناً وروعة، ويزداد القبيح شناعة وقبحاً، وبالضد تتميز الأشياء.

يبين الله ﷻ أن من ابتدأ أساس بنائه على الخير وارضاء الله ﷻ وطاعته وتوحيده، وعلم منه يكون بناؤه لله ﷻ طاعة، والله ﷻ به راضٍ، وهي القاعدة القوية المحكمة، وهي الحق وهذه الفرقة خير من الذين أقاموا أساسهم وبنیانهم على قاعدة هي أضعف القواعد وأرعاها وأقلها بقاءً وهي النفاق والضلال، وعلى غير بصيرة منه بصواب فعله من خطئه، فهو لا يدري متى يتبين له خطأ فعله وعظيم ذنبه، فيهدمه، كما يأتي البناء على جرف ركيّة لا حابس لماء السيول عنها ولغيره من المياه، ثرية التراب متناثرة لا تلبثه السيول أن تهدمه وتنتثره؟ ويقول الله ﷻ انتثر الجرف الهاري ببنائه في نار جهنم، وإن الله ﷻ لا يوفق للرشاد في أفعاله، من كان بانياً بناءه في غير حقه وموضعه، ومن كان منافقاً مخالفاً بفعله أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ، ولا يرشدهم إلى دينه، وهم الذين كفروا في السر، ولا يزال بنیان هؤلاء الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وشكاً ونفاقاً في قلوبهم، بل زاد على شكهم ونفاقهم، ولا يزول وسمه ولا يضمحلّ عن قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم وتتصدع، وتتفرق أجزاء، فيموتوا والله ﷻ عليم بما عليه هؤلاء المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار، من شكهم في دينهم، وما قصدوا في بنائه وأرادوه، وما إليه صائر أمرهم في الآخرة، وفي الحياة ما عاشوا، وبغير ذلك من أمرهم وأمر غيرهم.

ختم الله ﷻ الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي يعلم كل شيء ما خفي وما ظهر، ما أسرته القلوب، وما جهرت به الألسنة، والله ﷻ حكيم في تدبيره إياهم، وتدبير جميع خلقه، وحكيم بهدم مسجدهم، وحكيم بوضع الأمور في مواضعها، ويقدر فيكمل تقديره.⁽²⁾

(1) جامع البيان 14 / 498.

(2) ينظر: جامع البيان 14 / 492-495، والتفسير القرآني للقرآن 6 / 897، وبحر العلوم 2 / 89، والكشف

والبيان 5 / 95-96، والكشاف 2 / 312-313، ومفاتيح الغيب 16 / 149، وفتح القدير 2 / 459.

يقول ابن عطية في تفسيره: "إن هذه الآية أمر يعم الغيظ والحنق ويعم اعتقاد صواب فعلهم ونحو هذا مما يؤدي كله إلى الريبة في الإسلام، فمقصد الكلام لا يزال هذا البنيان الذي هدم لهم يبقي في قلوبهم حزازة وأثر سوء".⁽¹⁾

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآية إلى تحقيق المقاصد التالية:

« تأسيس البنيان على التقوى:

بنيان الأسس على التقوى يشتمل على:

1. النشأة الطيبة والإسلامية للأسرة: إن الأسر التي تقوم على تربية أبنائها على مخافة الله ﷻ، وعلى الهدى بسنة الحبيب محمد ﷺ، وعلى الدين الإسلامي تحظى بالأمن والسلام.
2. سلامة المناهج التربوية القائمة على أسس إسلامية صحيحة هادفة تسعى إلى خلق مواطن صالح يرتقى بالمجتمع، وبعض من المناهج التي تدرس اليوم من في مدارسنا بعيدة كل البعد عن الإسلام وتعاليمه، وخير دليل على ذلك مادة حقوق الإنسان التي تطالب بالحقوق الدنيوية المادية، ولا تشبع الحاجات الروحانية والدينية للطلاب، فهذا يؤثر على نشأة الطلاب ومعتقداتهم، والذين قاموا بفرض مثل هذا المنهاج هدفهم الأساس تضليل الجيل الناشئ والذي يعتبر الركيزة الأساسية لأنهم الجيل الصاعد والواعد.
3. القوانين الوضعية والديساتير الأرضية القائمة على الظلم والجور والمحاباة والطبقات الاجتماعية التي تؤدي إلى الفساد الاجتماعي المجتمعي، فهي تكتب وتوضع لمصالح شخصية، ولا تراعي جميع طبقات المجتمع، وهذا بخلاف القوانين الإلهية التي وضعت لتتناسب جميع الفئات والأعمار دون تمييز أو تفریق، ولذلك يجب أن يكون الدستور والقوانين على أساس الشريعة والمرجعية الإسلامية.
4. الانحطاط الأخلاقي عند الغرب ونظام الحرية المطلقة وانتشار الفاحشة والزنيعة الذي يؤدي إلى فساد المجتمعات وتخالط الأنساب وكثرة الأمراض والأوبئة، وكثرة الجرائم من قتل وسرقة وغيرها، مما ينشر عدم الأمن والاستقرار في المجتمع؛ لأنه لا يوجد حاضنة كالمسجد يربى الأجيال على القيم والأخلاق الفضيلة.

(1) المحرر الوجيز 3/ 86.

5. المؤسسات الإعلامية الموجهة توجيهاً تربوياً اجتماعياً هادفاً يجب على المسلمين دعمها ومساعدتها ونشر ما أمكن فيها من برامج لتوعية المسلمين، ودحض الشبهات والمطاعن التي يقوم بدسها أعداء الإسلام من حين إلى آخر لتشويه سمعة المسلمين.

بيان سنة الله ﷻ في الأمم:

الله ﷻ يقضي على الفساد ويقطعه من جذوره، وهذا لم يقتصر على القصص السابقة من الأمم الماضية بل شمل ما حدث في زمن الرسول ﷺ، وأيضاً ما يحدث اليوم فكل ظالم نهاية، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: 59]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: 31]، ومن حكمته سبحانه جعل المصائب والكوارث سبباً للاتعاظ والتذكر والرجوع إليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الَّذِي عَذَابُهُ أَكْبَرُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 21]، فمن الناس من يرجع إلى الله ﷻ بسبب هذه الأزمة، وكثير حق عليه العذاب بسبب طغيانه وفساده، لا يتوب ولا يؤوب.

استحباب الصلاة في المساجد:

تلك المساجد التي أسست من أول بنائها على عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، واستحباب الصلاة مع الجماعة الصالحة، والعباد العاملين المحافظين الصالحين⁽¹⁾، وفي ذلك بيان لمكانة مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس، لأنها من الأماكن التي يجب شد الرحال إليها، مصداقاً لقول أبي هريرة رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى"⁽²⁾، وهذا مما يجب على المسلمين الانتباه إليه والعمل بجد للمحافظة على تلك المدن لما لها من القدسية في نفوس المسلمين وعقيدتهم.

(1) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم 408/6.

(2) صحيح البخاري 60/2، كتاب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم: 1189.

الفصل الثاني

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف الحزب الحادي

والعشرين في سورة التوبة، الآيات (111- 129)

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المقاصد والأهداف من الآية (111 - 119).

الولاء والبراء

المبحث الثاني: المقاصد والأهداف من الآية (120 - 123).

الجهاد في سبيل الله

المبحث الثالث: المقاصد والأهداف من الآية (124 - 129).

نزول القرآن على أمين الأنام

المبحث الأول

المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية

(111- 119) **الولاء والبراء**

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: صفات المؤمنين الصادقين.

المطلب الثاني: الولاء للمؤمنين، والبراء من المشركين.

المطلب الثالث: شروط المؤاخذة (العقاب) على الذنب.

المطلب الرابع: التوبة العامة وشروطها.

المطلب الخامس: التوبة الخاصة على الثلاثة الذين خلفوا

عن غزوة تبوك.

المطلب الأول

صفات المؤمنين الصادقين

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَنِّلُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِذَا قُتِلُوا يَتَّبِعُهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَأَيُّكُمْ جَاءَ مِنْهُ يَتَّبِعْهُ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّتِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَمَدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمَخْفُوفُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ [التوبة: 111-112].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن وضَّح الله ﷻ فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، والمثبطين عن الجهاد، وبيَّن أصناف المقصِّرين من المؤمنين، فلما تم ذلك الشرح والبيان وذكر أقسامهم، وذكر ما كان لائقاً بكل قسم، ووضح حال المؤمنين الصادقين، والمجاهدين الذين باعوا أنفسهم لله ﷻ. (1)

ثانياً: سبب النزول:

"ذكر محمد بن كعب القرظي في سبب نزول الآية: لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة - العقبة الكبرى - وهم سبعون نفساً، وكان أصغرهم سنّاً عقبة بن عمرو، قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: "أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم"، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟ قال: "الجنة". قالوا: ربح البيع لا نقيلاً ولا نستقيلاً، فنزلت هذه الآية". (2)

• موقف بعض الصحابة والتابعين بعد نزول الآية الكريمة:

- "عن عمر رضي الله عنه قال: إن الله بايعك وجعل الصفقتين لك".
- عن بعض التابعين: مجاهد والحسن ومقاتل، أنهم قالوا: ثامن فأغلى في الثمن، وباع فأغلى في العوض، عن الحسن البصري أنه قال: إن الله تعالى أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها من الله. (3)

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 16/ 150، وفتح البيان 5/ 403، وفتح القدير 2/ 463، وغرائب القرآن 3/ 533، والتفسير المنير 11/ 52، وزهرة التفاسير 7/ 3450، والتحرير والتنوير 11/ 37، وصفوة التفاسير 1/ 563.
(2) ينظر: أسباب النزول ص: 260، وجامع البيان 14/ 499، وتفسير القرطبي 8/ 267، ومفاتيح الغيب 16/ 150، وتفسير ابن كثير 4/ 218، والكشاف 2/ 313، ونظرات في كتاب الله ص: 332.
(3) ينظر: مفاتيح الغيب 16/ 150، وتفسير السمعاني 2/ 351، وغرائب القرآن 3/ 533 - 534.

إنَّ هذه الآية وإن نزلت في حادثة خاصة ولكنها عامة في كل مجاهد في سبيل الله ﷺ من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

أَشْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ: المقصود بالاشتراء هو الجهاد. (1)

وَأَمْوَالَهُمْ: يحتمل وجهين:

أ. "نفقاتهم في الجهاد.

ب. صدقاتهم على الفقراء". (2)

الْكٰفِرُونَ: يعني المؤمنين المذكورين، التائبين من الشرك والنفاق والمعاصي.

الْعٰكِفُونَ: الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة، والمطيعون لله ﷺ في تذلل وخشوع مع حبهم لله ﷺ وتعظيمهم له.

السَّٰخِرُونَ: فيها أقوال:

أ. أنهم الصائمون، قال سفيان بن عيينة: سمي الصائم سائحاً؛ لأنه ترك المطعم والمشرب والمنكح.

ب. أنهم المجاهدون في سبيل الله ﷺ، عن أبي أمامة، أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة، قال النبي ﷺ: "إنَّ سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى". (3)

ج. أن السائحين: هم طلبة العلم. (4)

الراجح: ترجح الباحثة ما ذكر في بعض الكتب، وهو أن المقصود بالسائحين هم (المجاهدين)، وذلك بسبب أنك لو حملت هذا الوصف على الصيام فهو تجرّد عن المادة لغذوبة

(1) ينظر: زاد المسير 2/ 302.

(2) النكت والعيون 2/ 406.

(3) سنن أبي داود 3/ 5، كتاب: الجهاد، باب: في النهي عن السياحة، رقم الحديث 2486، [حكم الألباني: حسن]

(4) ينظر: جامع البيان 14/ 500، ومفاتيح الغيب 16/ 154، وأيسر التفاسير 2/ 428، والموسوعة القرآنية 10/ 41، والتفسير الحديث 9/ 537، وتيسير الكريم الرحمن ص: 353، والكشف والبيان 5/ 98، وتفسير البغوي 2/ 392.

متعة الروح، ولأنه يعوق عن الشهوات واللذات، وإذا حملت على السياحة فهو تفكر في مظاهر الكون أنتجه الشعور بجمال المكوّن وعظيم نعمته، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت، وكلاهما حمد عميق وشكر فائق، ونعمة الله ﷻ بعد ذلك أجزل.⁽¹⁾

وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ: وتأتي بمعنيين، هما:

أ. فرائض الله ﷻ التي فرضها على عباده.

ب. سنن الله ﷻ، ولكن حافظين لجميع أحكام الله ﷻ، لا يجاوزون ما حد لهم ولا يفرطون فيها.⁽²⁾

الراجح: ما تميل إليه الباحثة وترتضيه أنّ من يكون حريصاً على تطبيق السنن فمن باب أولى بأنه يطبق الفرائض.

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾: جملة مستأنفة مسوقة لترغيب المؤمنين بالجهاد وذلك ببيان فضيلته وما يترتب على الاستشهاد في سبيل الله ﷻ، وإن واسمها وجملة: ﴿اشْتَرَى﴾ خبرها.⁽³⁾

جملة ﴿يَقْنَلُونَ﴾: حال من ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بياناً للشراء، أو استئنافاً لبيان ما لأجله الشراء.⁽⁴⁾

قوله تعالى: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ﴾ مصدر مؤكد أي وعدهم بذلك وعداً، ﴿حَقًّا﴾ صفة أخبر أن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت، وقوله: ﴿فِ التَّوْرَةِ﴾ حال من وعداً، والظرفية ظرفية الكتاب للمكتوب، أي مكتوباً في التوراة والإنجيل والقرآن، وقد تأتي في التوراة متعلقان بمحذوف صفة وعداً، ﴿وَالْإِنْجِيلِ﴾ معطوف على التوراة ﴿وَالْفُرَّانِ﴾ معطوف على ما قبله.⁽⁵⁾

(1) ينظر: نظرات في كتاب الله ص: 335، والتفسير المنير 11 / 54.

(2) ينظر: أيسر التفاسير 2 / 428، والتفسير المنير 11 / 52، وتأويلات أهل السنة 5 / 489-491.

(3) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4 / 178، والجدول 11 / 39-40، وإعراب القرآن، للدعاس 2 / 8.

(4) ينظر: البحر المديد 2 / 430، و إعراب القرآن وبيانه 4 / 178.

(5) ينظر: إعراب القرآن للنحاس 2 / 135، والتبيان 2 / 661، والمجتبى 2 / 415، والتحرير والتنوير 11 / 39.

جملة: ﴿فَاسْتَبَشِرُوا﴾ "في محلّ جزم جواب شرط مقدر أي إن بايعتم الله ﷻ على الجنة فاستبشروا ببيعكم".⁽¹⁾

﴿التَّائِبُونَ﴾: يصلح أن يكون رفعه على وجوه:

- أ. أن يكون للمدح كأنه قال: هؤلاء التائبون، أو هم التائبون.
- ب. أن يكون بدل من واو فيقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، المعنى: يقاتل التائبون، وهذا مذهب أهل اللغة.
- ج. خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم التائبون، وما بعده من باب تعدد الخبر.
- د. مبتدأ، والخبر: الآمرون بالمعروف.⁽²⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. الاستعارة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ فيها استعارة مكنية تبعية حيث عبر عن قبول الله ﷻ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله وإثابته إياهم بمقابلتها بالجنة، ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد في العقد أنفس المؤمنين وأموالهم، وجعل الثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة.⁽³⁾

ب. الالتفات: في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبَشِرُوا﴾ التفات إلى الخطاب، تشريفاً لهم على تشريف، وزيادة لسرورهم على سرور، والاستبشار إظهار السرور، والسين فيه ليست للطلب كاستوقد وأوقد، والفاء لترتيب الاستبشار أو الأمر به على ما قبله أي فإذا كان كذلك فسروا نهاية السرور، وأفرحوا غاية الفرح، بما فزتم به من الجنة.⁽⁴⁾

ج. التذييل: وهو أن يذيل المتكلم كلامه بعد تمام معناه بجملة تحقق ما قبلها، وقد جاء في هذه الآية الكريمة الضربان، وهما:

• قوله تعالى: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ فإن الكلام قد تم وكمل قبل ذلك ثم أتت جملة التذييل لتحقيق ما قبلها وتؤكد.

• قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ مخرجاً ذلك مخرج المثل فسبحان المتكلم بمثل هذا الكلام.⁽⁵⁾

(1) الجدول 11 / 41.

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه 2 / 471، إعراب القرآن وبيانه 4 / 179، إعراب القرآن، للنحاس 2 / 136، التبيان 2 / 662، والمجتبى 2 / 416، والتفسير المنير 11 / 51، ومدارك التنزيل 1 / 712، والبحر المديد 2 / 432.

(3) ينظر: فتح البيان 5 / 403، والتفسير المنير 11 / 51، وإعراب القرآن وبيانه 4 / 180، والجدول 11 / 41.

(4) ينظر: التفسير المنير 11 / 51، وإعراب القرآن وبيانه 4 / 180، والجدول 11 / 41.

(5) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4 / 180، والجدول في إعراب القرآن 11 / 41-42.

- د. الجناس: قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ بينهما جناس ناقص، لاختلافهما في الشكل.
- هـ. المجاز: قوله تعالى: ﴿الرَّكْعَتِ السَّجْدَتِ﴾ أي المصلون، فيه مجاز مرسل، من إطلاق الجزء وإرادة الكل، وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفهما.
- و. قوله تعالى: ﴿وَسِرِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيها إظهار في موضع الإضمار أي بشرهم للتكريم والاعتناء بهم، وللتنبية على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من اتصف بتلك الصفات.⁽¹⁾

4. القراءات:

- قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فيه قراءتان، هما:
- أولاً: قرئ على البناء للمفعول والثاني على البناء للفاعل، (فَيُقْتَلُونَ) بضم الياء وفتح التاء، (وَيُقْتَلُونَ) بفتح الياء وضم التاء، وهي قراءة حمزة، الكسائي، وخلف.
- التوجيه: أنهم يقتل بعضهم ويقتل الباقون، ويقتلون العدو ويقتلهم العدو.
- ثانياً: قرئ على البناء للفاعل، والثاني على البناء للمفعول، (فَيُقْتَلُونَ) بفتح الياء وضم التاء، (وَيُقْتَلُونَ) بضم الياء وفتح التاء على تقديم، وهي قراءة الباقين .
- التوجيه: أنهم يقتلون الكفار أولاً ثم يستشهدون، هذا الوجه أظهر والقراءة به أكثر.⁽²⁾

نستدل من خلال القراءة الأولى على جواز العمليات الاستشهادية في الأعداء، وهذا نص صريح في شرعية العمليات الاستشهادية التي يقوم بها المجاهدون فهم يقتلون ثم يقتلون أعداءهم.⁽³⁾

رابعاً: المعنى الاجمالي:

تدل الآيات الكريمة على شراء الله ﷻ أنفس المؤمنين من شهوات الدنيا وملذاتها، وما يوجب الاشتغال عن ذكره، حتى تكون أنفسهم وأموالهم خالصة له، فمن لم يبيع لله حياته الفانية وشهواته الزائلة، كيف يعيش مع الله ﷻ؟ وكيف يحيا حياة طيبة؟ فِيرَغَبِ اللهُ ﷻ الناس في الجهاد،

(1) ينظر: التفسير المنير 51/11 - 52، وصفوة التفسير 570/1.

(2) ينظر: الكشف 314 / 2، وتفسير القرطبي 268 / 8، وتفسير البغوي 391 / 2، والمحرم الوجيز 87 / 3، وزاد المسير 302 / 2، والكشف والبيان 97 / 5، والتحرير والتنوير 39 / 11، وأضواء البيان 114 / 8.

(3) مباحث في علم القراءات مع بيان أصول رواية حفص ص: 41.

ويخبرهم بأنه سيعوض المؤمنين بالجنة عن بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله، لتكون كلمته هي العليا، وإحقاق الحق، وإقامة العدل في الأرض، فهم حين يجاهدون يقتلون أعداءهم، ويقتلون هم، وفي كلا الحالين هم مثابون على ذلك، وقد وعد الله ﷻ عباده المؤمنين بهذا الجزاء الحق، وجعله حقاً، وقد أثبتته في كتبه المنزلة التوراة والإنجيل وكذلك أثبتته في القرآن، إذا هم وقوا بما عاهدوا الله، والتتصيص على التوراة والإنجيل والقرآن في هذا السياق إنما هو تخصيص بالذكر لأشهر الكتب المنزلة التي تضمنت هذا الوعد الإلهي الكريم.

ثم يدعو الله ﷻ من التزم من المؤمنين للاستبشار بذلك الفوز العظيم، والنعيم المقيم، لأنه ليس هناك من هو أكثر من الله ﷻ وفاء بالعهد، ولا أكثر منه التزاماً بالوعد الذي قطعه على نفسه الكريمة، ولأنّ إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم، فكيف بالغنى الذي لا يجوز عليه القبيح قط، ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ، وليس هناك ربح أكبر من الربح الذي يحققه المؤمنون في هذه الصفقة، فافرحوا غاية الفرح فإنكم تبيعون فانياً بباقي.

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يقول الله ﷻ "ليس هناك ثمن لأبدانكم إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها"، وانتقل كتاب الله ﷻ إلى وصف المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، والذين أعدتهم الأقدار ليكونوا جند الله ﷻ وحزبه في كل جيل، فقال ﷻ في وصفهم تمييزاً لهم عن غيرهم، وهم: التائبون من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، القائمون بعبادة ربهم، والمحافظون عليها، والحامدون لله ﷻ على نعمه وأفضاله، الشاكرون له على فضله ومننه، المثنون عليه عند شهود جلاله وجماله، السائحون في الأرض، للاعتبار والاستبصار بما خلق الله ﷻ من العبر والآيات، والمصلون، والساجدون لله ﷻ في الظاهر بنفوسهم على بساط العبودية، وفي الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية، وهم مع ذلك كله يسعون في نفع خلق الله ﷻ، وإرشادهم إلى طاعته، بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله، وما يجب تركه طاعة لله ﷻ، ويبشر الله ﷻ المؤمنين المصدقين بما وعدهم الله إذا هم وقوا الله بعهدته والمتصفين بهذه الصفات الكريمة أنه مؤف لهم بما وعدهم بخيري الدنيا والآخرة.

ختم الآية الكريمة بقوله: **﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به، ووضع المؤمنين في هذا الموضع للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به للتعظيم، كأنه قيل: وبشرهم بما يجلب عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام.⁽¹⁾

(1) ينظر: جامع البيان 14/ 498 - 508، والکشاف 2/ 314، وتفسير ابن كثير 4/ 219، وصدق الله العظيم ص:

63-64، وبحر العلوم 2/ 89-90، ولطائف الإشارات 2/ 66-68، وتفسير التستري ص: 74، ومدارك

التنزيل 1/ 712، والبحر المديد 2/ 430-433، والتيسير في أحاديث التفسير 3/ 22-24.

خامساً: مقاصد النص وأهدافه:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ جواز العمليات الاستشهادية الجهادية:

هذه العمليات التي يقوم بها المجاهد في سبيل الله ﷻ بجسده الطاهر في الدول المغتصبة وخاصة في فلسطين أصبح لها أهمية كبيرة خاصة في هذا الوقت الذي تخاذل فيه المسلمون عن الدفاع عن الأراضي المسلمة المحتلة، وعن القدس، فأصبح القيام بالعمليات الاستشهادية وبذل النفس في سبيل الخالق خير وسيلة لزرع الرعب في قلوب الذين كفروا، وتقوية قلوب المسلمين وتكسر قلوب الأعداء، وتكثيف وتوهين أعداء المسلمين.

ويبلغ القائم بهذه العمليات مراتب الشهداء؛ لأنه قد مات في سبيل الله ﷻ، ولإعلاء كلمة الحق، فنسأل الله ﷻ أن لا يخيب رجاءً هو باعته، ولا ينگس لواءً فيه يرتفع.

◀ مكافأة المحسنين والصالحين في العمل:

1. الجزاء من جنس العمل:

إنَّ الله ﷻ أودع في هذا الكون سنناً ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، يُنسج على منوالها نظام هذه الحياة، فالعقل اللبيب من يساير سنن الله ﷻ ولا يصادمها، ومن هذه القواعد والسنن العظيمة أن الجزاء من جنس العمل، فجزاء العامل من جنس عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: 60]، ولو وضعنا هذه القاعدة نصب أعيننا لدفعتنا وأبعدتنا عن كثير من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، والعلم بهذه القاعدة هو في المقام الأول دافع للأعمال الصالحة، وناه عن الظلم، وزاجر للظالمين ومواس للمظلومين.

2. تكريم المتفوقين:

الحوافز والمكافآت لها أثر كبير على الأعمال فالحوافز سواء كانت مادية - كهدية بغض النظر عن ثمنها- أو معنوية - كالكلمة الطيبة والشكر والثناء- لها عظيم الأثر في تحسين أداء العاملين، وكذلك على أداء وتحصيل الطلاب في المراحل المختلفة من التعليم، حيث إن عدم وجود مثل هذه الحوافز والمشجعات قد يؤثر سلباً على أدائهم ويُسهم في تراجع مستواهم، وهذا يعود إلى النفس البشرية التي جبلوا عليها.

◀ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إنَّه حصن الإسلام الحصين، والدرع الواقي من الشرور والفتن، والسياح من المعاصي والمحن، يحمي أهل الإسلام من نزوات الشياطين، ودعوات المبطلين، إنه الوثاق المتين الذي تتماسك به

عرى الدين، وتحفظ به حرمان المسلمين، بارتفاع راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعلو أهل الحق والإيمان، ويندحر أهل الباطل والفجور والعصيان، يورث القوة والعزة في المؤمنين، ويذل أهل المعاصي والأهواء والمخالفين، وبالأمر بالمعروف يشد المسلمون بعضهم البعض، والنهي عن المنكر يرغم أنف المنافق والكفار والفاستق، وبالأمر بالمعروف يعرف الحلال من الحرام، ويدرك الناس الواجب والمباح والمكروه، والجهل بمنثل هذه الأمور يؤدي إلى نشر المعاصي والمحرمات، وينشأ جيل لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً - إلا من رحم الله -، ولا يكون ضياع الأمة، إلا حين يترك للأفراد العيش كما يشتهون، ويفعلون ما يريدون، يتجاوزون حدود الله ﷻ، ويعبثون بالأخلاق، ويقعون في الأعراض، وينتهكون الحرمات من غير وازع أو ضابط، ومن غير رادع لهم، وإن إفساء المنكرات يؤدي إلى سلب نور القلب، ويعدم الدفاع عن حرمان الله ﷻ تسود الفوضى، وتستفحل الجريمة، ويسلب القلب نور التمييز وقوة الإنكار؛ لأن المنكرات إذا كثر على القلب ورودها وتكرر في العين شهودها، ذهبت من القلوب وحشتها فاعتادتها النفوس، ونجد المجتمعات التي تطبق الفضيلة كالمجتمعات الإسلامية مجتمعات ثابتة مستقرة خالية من الجرائم والأمراض مقارنة بالمجتمعات الفاجرة، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

◀ حفظ حدود الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: إِنَّ الْحَافِظِينَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﷻ ما أنزل الله ﷻ على رسوله محمد ﷺ، وجميع ما فرضه من حدود يحافظون عليه محافظة كاملة شاملة، كما يحافظون على أنفسهم، وأموالهم، وأولادهم، ومن ضمن المحافظة على حدود الله ﷻ، حفظ الرأس من سماع الحرام مثل: الغيبة، وسماع الأغاني، وكذلك حفظ البصر ويدخل فيه الحرص على تجنب النظر إلى ما حرم الله ﷻ علينا، وحفظ اللسان من النميمة والكذب، ومن السب والشتم، وكذلك من نشر الإشاعات، وما يحدث في مجتمعنا اليوم أكبر آفة من آفات اللسان وهو نشر الكثير من الإشاعات التي تعمل على تشييط هم أبناء الوطن، والتي بدورها تؤدي للخوف والذعر بين أفرادهم.

وحفظ البطن ويدخل فيه تجنب أكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وأكل حقوق الناس، فيجب أن نحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وحفظ القلب عن الإصرار على ما حرم الله ﷻ، وثمره حفظ الإنسان لهذه الأمور جميعاً يحمي المجتمع من التفكك واختلاط الأنساب والأمراض، وكذلك ينال رضى الله ﷻ، وهذا مبتغى ومقصد كل مسلم.

هذه بعض صفات المؤمنين، الذين أسأل الله ﷻ أن يجعلنا منهم، ويحشرنا معهم، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

المطلب الثاني

الولاء للمؤمنين، والبراء من المشركين

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١١٣﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ [التوبة: 113-114].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

لما بيّن الله ﷻ من أول هذه السورة إلى هذا الموضع وجوب إظهار البراءة من الكفار والمنافقين من جميع الوجوه، ذكر في هذه الآية أنه لا يجوز الاستغفار لمن مات على الكفر، وإن كانوا أهل قري، كقراية الدم والنسب، كما أوجبت الآية البراءة من أحيائهم الذين أصروا على الكفر، والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات والمنع من مواصلتهم بسبب من الأسباب⁽¹⁾.

ثانياً: سبب النزول:

تعددت الأقوال في سبب نزول هذه الآية إلى أربعة أقوال، ولكن سأكتفي بذكر الصحيح منها والذي ذكر في الصحيحين، وما اتفق عليه جمهور المفسرين هو: عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ رضي الله عنه، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ: " يَا عَمُّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ " فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرَعْبُ عَنْ مَلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْضُضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مَلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُكِرْهُ مِنْكَ"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِيهِ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [التوبة: 113].⁽²⁾

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 157/16، وفتح القدير 467/2، وفي ظلال القرآن 1714/3، وغرائب القرآن 538/3.

(2) صحيح البخاري 95/2، كتاب: الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت: لا اله إلا الله، حديث رقم:

1360، وصحيح مسلم 40/1، كتاب: الإيمان، باب: دعوة الكافر إلى الإسلام، حديث رقم: 41، وأسباب

النزول ص: 261.

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

عَنْ مَوْعِدَةٍ: واختلف في ذلك إلى عدة أقوال، هي

أ. أنه كان لأجل وعد تقدم من إبراهيم عليه السلام لأبيه بالاستغفار له⁽¹⁾، وذلك قوله تعالى:

﴿سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: 47].

ب. موعدة من والد إبراهيم عليه السلام له في أنه سيؤمن، فقوي طمعه، فحمله ذلك على الاستغفار له حتى نُهي عنه، وتبين أنه عدو لله⁽²⁾.

الراجح: يقول ابن عاشور: " والوعد صدر من أبي إبراهيم لا محالة، كما يدل عليه الاعتذار لإبراهيم عليه السلام لأنه لو كان إبراهيم عليه السلام هو الذي وعد أباه بالاستغفار وكان استغفاره له للوفاء بوعده لكان يتجه من السؤال على الوعد بذلك وعلى الوفاء به ما اتجه على وقوع الاستغفار له، فالتفسير الصحيح أن أبا إبراهيم وعد إبراهيم بالإيمان، فكان بمنزلة المؤلفة قلوبهم بالاستغفار له لأنه ظنه متردداً في عبادة الأصنام لما قال له: ﴿وَأَهْجُرني مَلِيًّا﴾ [مريم: 46]، فسأل الله عز وجل له المغفرة لعله يرفض عبادة الأصنام كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأ مِنْهُ﴾⁽³⁾.

لأَوْاهٍ: لها عدة معاني، هي:

أ. كثير الدعاء، والشكوى إلى الله عز وجل، وعلى ذلك روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الأواه؟ فقال: الدعاء الخاشع المتضرع⁽⁴⁾.

ب. المؤمن بلغة الحبشة.

ج. الفقيه، الموقن.

د. المتأوه حزناً وخوفاً، وشفقةً ورفقاً ولزوماً لطاعة الله عز وجل⁽⁵⁾.

(1) ينظر: فتح القدير 2/ 467، والجواهر الحسان 3/ 222

(2) ينظر: الجواهر الحسان 3/ 222، التحرير والتنوير 11/ 45.

(3) التحرير والتنوير 11/ 45.

(4) ينظر: تفسير ابن كثير 4/ 225، وأيسر التفاسير 2/ 431، وتأويلات أهل السنة 5/ 494، والتفسير الحديث 9/

542، وغرائب القرآن 3/ 539، والجواهر الحسان 3/ 222.

(5) ينظر: فتح القدير 2/ 467، والبحر المديد 2/ 435، ومعاني القرآن وإعرابه 2/ 473، وتأويلات أهل السنة

494/5، والتفسير الحديث 9/ 542، وتفسير المراغي 11/ 35، والبحر المحيط 5/ 514.

هـ. المسبوح.⁽¹⁾

ترى الباحثة أن المعاني تتقارب من بعضها، لأن الحزين المتضرع إلى ربه، الخاشع له بقلبه، ينوبه ذلك عند مسألته ربه، ودعائه إياه في حاجاته.⁽²⁾

حليمٌ: قيل: الحليم ضد السفیه، وقيل: العليم، والحليم: هو الذي لا يغضب ولا يسفه عند سفه السفیه، وهو الصابر المحتمل، عظيم العقل، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه.⁽³⁾

2. الإعراب:

جملة قوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا﴾ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.⁽⁴⁾

المصدر المؤول ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا﴾ في محل رفع اسم كان، والجار ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ متعلق بالخبر، والواو في ﴿وَلَوْ﴾ حالية، وهي للعطف على حال محذوفة؛ أي: ما كانوا أن يستغفروا في كل حال، ولو في هذه الحال؛ وهذا لاستقصاء الأحوال، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله، والجملة حالية من ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁵⁾، وجواب لو محذوف دلّ عليه الكلام المتقدم أي لو كانوا، فما كان لهم أن يستغفروا، وجملة: ﴿كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ "في محلّ نصب حال من المشركين".⁽⁶⁾

قوله تعالى: ﴿لَاؤَاهُ﴾ اللام المزحلقة وأواه خير ﴿حَلِيمٌ﴾ خير ثان والجملة مستأنفة.⁽⁷⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. الجناس: قوله تعالى: ﴿مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا﴾ بينهما جناس اشتقاق.⁽⁸⁾

(1) ينظر: جامع البيان 14/524-536، وزاد المسير 2/30، وتأويلات أهل السنة 5/494، والبحر المحيط 514/5.

(2) ينظر: جامع البيان 14/536.

(3) ينظر: أيسر التفاسير 2/431، وتأويلات أهل السنة 5/494، وغرائب القرآن 3/539، والجواهر الحسان 3/222، وتيسير الكريم الرحمن ص: 353.

(4) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4/183.

(5) ينظر: المجتبى 2/416، وإعراب القرآن، للدعاس 2/9، وإعراب القرآن وبيانه 4/183، والجدول 11/43.

(6) الجدول 11/44.

(7) ينظر: إعراب القرآن، الدعاس 2/10، وإعراب القرآن وبيانه 4/184.

(8) ينظر: التفسير المنير 11/57، وصفوة التفاسير 1/570.

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ "هذا نفي بمعنى النهي، فهو أبلغ من النهي المجرد، وهذا التعبير فيه يسمى نفي الشأن، وهو أبلغ في نفي الشيء نفسه، لأنه نفي معلل بالسبب المقنضي له".⁽¹⁾

رابعاً: المعنى الاجمالي:

توضح الآيات الكريمة بأنه ما صح ولا ينبغي للنبي محمد ﷺ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين في حكم الله ﷻ وحكمته، ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ أي ولو كان لهم حق البر وصلة الرحم، وكانت عاطفة القرابة تقتضي الحذب والإشفاق عليهم، فهؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين، وعندما قال بعض الأفراد من المؤمنين إن إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك قال ﷺ جواباً: ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ﴾ وهي قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: 47]، لكنه ﷺ لما تبين له من جهة الوحي أن أباه عدو لله ﷻ أي مات على الشرك تبرأ منه ولم يستغفر له، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ تعليل لمواعدة إبراهيم أباه بالاستغفار له؛ لأن إبراهيم كان كثير الدعاء والتضرع والتأسف والتحسر فلذا واعد أباه، بالاستغفار له.⁽²⁾

خامساً: مقاصد النص وأهدافه:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ الولاء والبراء:

ولاء المؤمن الصادق يجب أن يتضمن الإخلاص لله ﷻ ودينه، وكتابه وسنة نبيه محمد ﷺ، والذي عقد معه الصفة، وعلى أساس هذا الولاء الموحد تقوم كل رابطة، وهذا بيان من الله ﷻ للمؤمنين يحسم كل شبهة ويعصم من كل ضلالة، وحسب المؤمنين ولاية الله ﷻ لهم ونصرته فهم بها في غنى عن كل ما عداه، وهو مالك الملك ولا قدرة لأحد سواه⁽³⁾، والبراء، يكون من كل طاغوت عبد من دون الله ﷻ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ

(1) تفسير المنار 11 / 46.

(2) ينظر: جامع البيان 14 / 509، وتفسير ابن كثير 4 / 224 - 225، وفتح القدير 2 / 467، وأيسر التفاسير 2 / 431 - 432، ومحاسن التأويل 5 / 515، وتيسير الكريم الرحمن ص: 353، ومدارك التنزيل 1 / 713 - 714، ولطائف الإشارات 2 / 68 - 69.

(3) ينظر: في ظلال القرآن 3 / 1714، صدق الله العظيم وكذبت النبوءات ص: 65.

أَسْتَمَسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا أَنْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ [البقرة:256]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَدُّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرْتُمْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْخِذُوا مِنْهُمْ وَليًا وَلَا نَصِيرًا ﴿ [النساء:89].

التحذير من التعصب:

لا يصلح التعصب لدين الآباء والأجداد إذا كان يخالف ما جاءت به الرسل، فإن الذي حمل أبا طالب على الموت على غير دين محمد ﷺ هو التعصب لدين آبائه وأجداده، فهو سبب لسوء الخاتمة - أعاننا الله وإياكم -، فيجب علينا الحذر من هذا، والواجب على المسلم أن يقبل الحق ولو خالف ما عليه آباؤه وأجداده، أما إذا كان آباؤه وأجداده على حق، فاتباعهم في هذه الحالة حق، عن البراء بن عازب رضي الله عنه⁽¹⁾، قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فقال: "أي عرى الإسلام أوثق؟"، قالوا: الصلاة، قال: "حسنة، وما هي بها؟" قالوا: الزكاة، قال: "حسنة، وما هي بها؟" قالوا: صيام رمضان، قال: "حسن، وما هو به؟" قالوا: الحج، قال: "حسن، وما هو به؟" قالوا: الجهاد، قال: "حسن، وما هو به؟" قال: "إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله، وتبغض في الله"⁽²⁾، وهذا بيان للزمام البغض وهو المعاداة في الله ﷻ، أي إظهار العداوة بالفعل والجهاد لأعداء الله ﷻ، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطنًا وظاهرًا إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه، وعدم الضعف أمام الأصحاب والأهل بالعاطفة، لأن الذي يحدد العلاقات هو الإسلام لا غيره، وهذا من جهة علاقة الأمة بعضها ببعض، والذي يحددها واجب الولاء.

عدم الركون للكفار أو المنافقين، والفاستدين:

يندرج تحت ذلك مشاركة اليهود أو النصارى دياناتهم، حتى أننا نرى اليوم كيف يُهنئ الحكام المسلمين - إلا من رحم ربي - النصارى في أعيادهم المبتدعة التي لم تكن في دينهم، وأيضاً الإجازات التي تقوم بها بعض المؤسسات في أعيادهم ومناسباتهم التي يحتفلون بها، وفعل ذلك ولو كان مُجاملة أو تودُّدًا أو حياءً أو لغير ذلك من الأسباب فهو من عوامل تقوية نفوس الكفار وفخرهم بدينهم، ويحدد هذه العلاقات بين المجتمعات واجب البراء، فقد أوجب الله ﷻ على الأمة

(1) البراء بن عازب: بن الحارث بن عدي بن مجدعة بن حارثة الأوسي أبو عمارة ويقال أبو عمرو ويقال أبو الطفيل المدني الصحابي نزل الكوفة ومات بها زمن مصعب بن الزبير، وروى عن النبي ﷺ وجمع من الصحابة، وقال ابن حبان استصغره النبي ﷺ يوم بدر، مات سنة (72) غزا مع النبي ﷺ خمسة عشر غزوة أول مشاهدته الخندق وشهد مع علي رضي الله عنه الجمل وصفين والنهروان. [ينظر: تهذيب التهذيب 1/ 425 - 426]

(2) مسند أحمد 30/ 488، مسند الكوفيين، مسند: حديث البراء بن عازب، حديث رقم: 18524، [حديث حسن بشواهد].

البراء من الكفر وأهله، وذلك صيانة لوحدة الأمة الثقافية والسياسية والاجتماعية، وجعل ﷺ مطلق موالاته الكفار خروجاً عن الملة وإعراضاً عن سبيل المؤمنين، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُ وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ تُقَاتُوا وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:28]، فبموالاته للكافرين يكون قطع كل العلاقات بينه وبين الله ﷻ، فليس من الله في شيء، ونجد في أيامنا هذه كيف تتحد وتتجمع ولآيات النصر والتأييد للكافرين على المسلمين، والإسلام لا يقبل أن يقف المسلم في خندق واحد مع الكافر ضد إخوانه المسلمين، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ جَعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء:144]، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة:81]، نسأل الله ﷻ أن يُعزَّز المسلمين بدينهم، ويرزقهم الثبات عليه، وينصرهم على أعدائهم، ويجنبنا الشرك وأهله، اللهم لا تجعلنا ممن يتشبهون بأعدائك، اللهم احفظ المسلمين من كل ما يخدش عقيدتهم ودينهم، إنك قويٌّ عزيز.

المطلب الثالث

شروط المؤاخذة (العقاب) على الذنب

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ [التوبة: 115-116].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

هذه الآية الكريمة نزلت تعقيباً على عتاب الله ﷻ لرسوله ﷺ والمؤمنين الذين استغفروا الله ﷻ لأقربائهم الذين ماتوا على الشرك، ولغير الأقرباء، فقرر الله ﷻ في ختام هذا الحكم هذه القاعدة الشرعية العظيمة وهي أن المؤاخذة دائماً بعد العلم، وهذا من فضل الله ﷻ ورحمته فله الحمد، وهذه الآية تشد المؤمنين بالله ﷻ إليه، وتقيم وجوههم له، دون التفات إلى غيره، فموقع هذه الآية بعد جميع الكلام المتقدم جعلها كلاماً جامعاً.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

يوجد قولان في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾:

أولاً: قال مقاتل والكلبي: عندما أنزل الله ﷻ على الرسول ﷺ آية الفرائض، وجاء النسخ، وقد غاب قوم وهم يعلمون بالأمر الأول مثل: أمر القبلة، وشرب الخمر، ومات منهم أقوام على ذلك، فلم يبلغهم ذلك، وعندما عملوا بالمنسوخ سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية.⁽²⁾

ثانياً: قال مجاهد: إن الآية نزلت في الاستغفار للمشركين؛ فإن جماعة من الصحابة ﷺ كانوا استغفروا لأبائهم ولم يعلموا أن ذلك لا يجوز، وأيضاً فإن أقواماً من المسلمين الذين استغفروا للمشركين، كانوا قد ماتوا قبل نزول هذه الآية، فلما أنزل النهي عنه خافوا على أنفسهم خوفاً شديداً؛ فأنزل الله ﷻ هذه الآية مؤنسة لهم.⁽³⁾

(1) ينظر: البحر المحيط 5/ 515، والتفسير القرآني للقرآن 6/ 908، والتحرير والتنوير 11/ 48، والحد الفاصل بين الإيمان والكفر ص: 81.

(2) ينظر: فتح البيان 5/ 415، وزاد المسير 2/ 306، وبحر العلوم 2/ 92، والكشف والبيان 5/ 104، وتفسير السمعاني 2/ 355، وتفسير البغوي 2/ 396، والمحزر الوجيز 3/ 92، والبحر المحيط 5/ 514-515، والبحر المديد 2/ 436، والنكت والعيون 2/ 411.

(3) ينظر: فتح القدير 2/ 469، وتفسير السمعاني 2/ 355، والمحزر الوجيز 3/ 92، ومفاتيح الغيب 16/ 160، البحر المحيط 5/ 514-515، والجواهر الحسان 3/ 223، والتفسير الواضح 2/ 23، وفتح البيان 5/ 415.

الراجع: ما تميل إليه الباحثة وترتضيه هو القول الثاني؛ لأن سياق الآيات السابقة كانت تتحدث عن استغفار المؤمنين لمن مات من أقرانهم وكانوا من المشركين، أما القول الأول فقد نقل عن الكلبى، وهو مشهور بالوضع.

ثالثاً: التفسير التحليلي

1. معاني الكلمات:

مَائِتُونَ: ما يجب اتقاؤه للنهي من محرمات الشرع، فأما ما يعلم بالعقل كالصدق في الخبر، وردّ الوديعة فغير موقوف على التوقيف.⁽¹⁾

يُحْيِي وَيُمِيتُ: تأتي بعدة معانٍ، هي:

- أ. يحيى من يشاء بعرفانه وتوحيده، ويميت من يشاء بكفرانه وجحوده، وغفلته.⁽²⁾
- ب. "يحيى من أقبل عليه بتفضله، ويميت من أعرض عنه بتكبره".⁽³⁾
- ج. "يحيى من يريد إبرازه لعالم الشهادة، ويميت من يريد رده لعالم الغيب".⁽⁴⁾
- د. أن الله ﷻ يحيى الجماد، ويميت الحيوان؛ لأنهم ظنوا أن الحياة هي الحس والحركة التي نراها أمامنا من حركة وكلام وذهاب وإياب، ونسوا أن الحياة هي ما أودعه الله ﷻ في كل ذرة في هذا الكون، مما تؤدي به مهمتها.⁽⁵⁾

2. الإعراب:

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ ﴾ في قوله تعالى: (إِذْ فِيهِ وَجْهَانِ، هَمَا:

- أ. أن (إِذْ) بمعنى (أَنْ).
 - ب. أنها ظرف بمعنى وقت أي بعد أن هداهم أو بعد وقت هدايتهم.
- جملة: ﴿ يَبَيِّنُ لَهُمْ مَآئِتُونَ ﴾ صلة وإن واسمها وخبرها وبكل شيء متعلقان بعليم.

(1) ينظر: الكشف 2/ 316، وفتح القدير 2/ 469، ومدارك التنزيل 1/ 714، والبحر المديد 2/ 435.

(2) ينظر: البحر المديد 2/ 436، ولطائف الإشارات 2/ 70، ولباب التأويل 2/ 414.

(3) لطائف الإشارات 2/ 70.

(4) البحر المديد 2/ 436.

(5) تفسير الشعراوي 9/ 5546-5547.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: إن واسمها وله خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ مؤخر، وجملة: ﴿يُحْيِي﴾ خبر ثان لـ (إن) والخبر الأول جملة: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

جملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا محل لها من الإعراب في حكم التعليل.

قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ومن زائدة وولي مبتدأ مؤخر محلا ولا نصير عطف على من ولي. (1)

جملة: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في محل رفع خبر إن. (2)

3. الجوانب البلاغية:

أ. بين (يضل، وهداهم) طباق، وكذلك بين قوله تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. (3)

ب. قال ابن الأنباري (4): "في الآية حذف واختصار، والتأويل: حتى يتبين لهم ما يتقون، فلا يتقونه، فعند ذلك يستحقون الضلال فحذف ما حذف لبيان معناه، كما تقول العرب: أمرتك بالتجارة فكسبت الأموال يريدون: فتجرت فكسبت". (5)

رابعاً: المعنى الإجمالي:

يخبر الله ﷻ عن نفسه الكريمة وحكمه العادل أنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، وما كان الله ﷻ ليقضي عليكم، في استغفاركم لموتاكم المشركين، بالضلال، بعد إذ رزقكم الهداية، ووفقكم للإيمان به وبرسوله محمد ﷺ، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه، فتتركوا الانتهاء عنه، فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهي عنه، ثم تطبقون ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، لأن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، فأما من لم يؤمر ولم ينه، فغير كائنٍ مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه، والله

(1) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4 / 184، والجدول 11 / 48.

(2) ينظر: الجدول 11 / 48-49، وإعراب القرآن للدعاس 2 / 10.

(3) ينظر: صفوة التفاسير 570/1.

(4) أبو بكر: محمد بن أبي محمد القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن بن بيان بن سماعة ابن فروة بن قطن بن دعامة الأنباري النحوي، ولد في 11 / رجب سنة إحدى وسبعين ومائتين، صاحب التصانيف في النحو والأدب؛ كان علامة في الآداب وأكثر الناس حفظاً لها، وكان صدوقاً ثقة من أهل السنة، وصنف كتباً كثيرة في: علوم القرآن وغريب الحديث والمشكل، وكتاب الزاهر. [ينظر: وفيات الأعيان 4 / 341، وتاريخ بغداد 4 / 299].

(5) زاد المسير 2 / 306.

رَبِّكَ ذُو عِلْمٍ بِمَا خَالَطَ أَنْفُسَكُمْ عِنْدَ نَهْيِهِ إِيَّاكُمْ مِنَ اسْتِغْفَارِ لِمَوْتَاكُمْ الْمَشْرِكِينَ، وَمَنِ الْجَزَعِ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْكُمْ مِنَ اسْتِغْفَارِ لَهُمْ قَبْلَ تَقَدُّمِهِ إِلَيْكُمْ بِالنَّهْيِ عَنْهُ، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سِرَائِرِ أُمُورِكُمْ وَأُمُورِ عِبَادِهِ وَظَوَاهِرِهَا، فَيُبَيِّنُ لَكُمْ حِلْمَهُ فِي ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، لِيُضَعَّ عَنْكُمْ ثِقَلُ الْوَجْدِ بِذَلِكَ.

يُذَكِّرُ اللَّهُ ﷻ عِبَادَهُ بِأَنَّ لَهُ سُلْطَانَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَلِكُهُمَا، وَكُلَّ مَنْ دُونَهُ مِنَ الْمُلُوكِ فَعَبِيدِهِ وَمَمَالِكِهِ، بِيَدِهِ حَيَاتُهُمْ وَمَوْتُهُمْ، يَحْيِي وَيُمِيتُ، فَلَا تَجْزَعُوا، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، مَنْ قَاتَلَ مِنْ كُفْرٍ بِاللَّهِ ﷻ، وَاغْزَوْهُمْ وَجَاهَدُوهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، فَإِنَّهُ الْمَعْرُوفُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ وَمِنْكُمْ، وَالْمَذَلُّ لِمَنْ يَشَاءُ، وَهَذَا حِصٌّ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ كُلِّ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنَ الْمَمَالِكِ، وَإِغْرَاءٍ مِنْهُ لَهُمْ بِحَرْبِهِمْ.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ تقوية لما تقدم من التبرؤ منهم، وما لكم من أحد هو لكم حليفٌ من دون الله ﷻ يظاھرکم علیه، إن أنتم خالفتم أمر الله فعاقبكم على خلافكم أمره، يستنقذكم من عقابه ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ينصرکم منه إن أراد بكم سوءاً، يقول: فبالله ففقوا، وإياه فارهبوا، وجاهدوا في سبيله من كفر به، وهذا ترغيب في الجهاد لكي لا يمتنعوا مخافة الموت والقتل، وتنبية على لزوم امتثال أمره، والانقياد لحكمه، والتوجه إليه وحده، إذ لا ينأتى لهم ولاية ولا نصر إلا من الله ﷻ. (1)

خامساً: مقاصد النص وأهدافه:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ التثبُّت قبل تقرير العقوبة:

من طبيعة البشر الإصابة أحياناً، والخطأ أحياناً أخرى، فيجب علينا عدم إيقاع العقوبات قبل معرفة أسبابها وتوضيحها، والتأكد من وقوعها، وعدم التسرع فيها، لأننا قد نقع في نتيجة قد لا نحمد عقابها.

◀ التربية بالعقوبة:

التربية بالعقوبة أمر طبيعي بالنسبة للبشر عامة والطفل خاصة، فلا ينبغي أن نستنكر هذه العقوبة من باب التظاهر بالعطف على الطفل ولا من باب التظاهر بالعلم، والعطف الحقيقي على الطفولة هو الذي يراعى صالحها في مستقبلها لا الذي يدمر كيانها ويفسد مستقبلها، إن كان ولا بد من العقوبة فعلينا أن نراعي احترامنا لكيان الصغير وتقديرنا له كإنسان، وقبل أن

(1) ينظر: جامع البيان 536/14 - 538، وتفسير ابن كثير 227/4، وعقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة

326/1، وأنوار التنزيل 3/100، والبحر المحيط 5/515، ومحاسن التأويل 5/517.

نشرع في العقوبة، يجب علينا التوجيه والإرشاد، ومن ثم التوبيخ، وإن لم نجد استجابة فنقوم بالتهديد وبعد ذلك التنفيذ، وهذا ما اتبعه الله ﷻ مع عباده في التدرج بالحكم عليهم بالضلال، وهو العالم بما في نياتهم وخفايا صدورهم.

◀ ثمرة اليقين والإيمان بالله ﷻ:

إنَّ الإيمان لا يكون مجرد نطق باللسان، وإنما هو عقيدة حية تملأ القلب وتُعمره، فتصدر عنها آثارها كما تصدر عن الشمس أشعتها، ومن آثار الإيمان وثماره أن يكون الله ﷻ ورسوله ﷺ أحب إلي المرء من كل شيء، وأن يظهر ذلك في أقواله، وتصرفاته، وأخلاقه، فإن كان ثمة شيء أحب إلى المرء من الله ورسوله، فالإيمان مدخول، والعقيدة مهزوزة، فالحياة بما فيها من أهل وعشيرة وأموال وتجارة ومساكن ومناصب وجاه وسلطان لا يجب أن تكون أحب للمؤمن من الله ﷻ ورسوله ﷺ، والشريعة التي أوحاها إليه، وإن ثمرة هذه العقيدة السليمة والإيمان الكامل بها يكون قوة دافعة لكل سلوك خير للإنسان، بدءاً من جهاد النفس ومغالبة الهوى والانتصار عليهما، ثم الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ﷻ ومنع الظلم والفساد في الأرض، وانتهاء بإماطة الأذى عن الطريق وما بينهما من كل أمر بمعروف وكل نهى عن منكر، فإذا عرف الإنسان به وامتلأت حياته بالإيمان الكامل كانت لذلك آثار عظيمة في حياته، والإيمان يحرر النفس من سيطرة غير، لأن الله ﷻ هو المحيي المميت، النافع الضار، وأن الله ﷻ واهب العمر وأنه لا ينقص بالإقدام، ولا يزيد بالإحجام، لذا فإنه يبعث في نفس المؤمن روح الشجاعة والإقدام، ويكون بذلك لا يخشى الموت، ولا تتنى عزيمته المحن، وتكون طمأنينة للقلب، وسكينة للنفس، فإذا شعر الإنسان بذلك يجد حلاوة اليقين، ويحتمل الأهوال بشجاعة، ويثبت أمام الصعوبات مهما اشتدت، وكل ذلك يؤدي إلى سمو الإنسان عن الماديات، ويرتفع عن الشهوات، ويستكبر عن لذائذ الدنيا، ويرى أن الخير والسعادة في النزاهة والشرف، وتحقيق القيم الصالحة، ومن ثم يتجه الإنسان تلقائياً لخير نفسه، وأمته، والناس جميعاً.

المطلب الرابع التوبة العامة وشروطها

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 117].
أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

إنَّ هذه الآية متممة لما تقدم سابقاً في السورة من شرح أحوال غزوة تبوك، وبين أحوال المتخلفين عنها، وأطال القول في ذلك على الترتيب، عاد في هذه الآية الكريمة إلى شرح ما بقي من أحكامها، وأخرت الآية على سنة القرآن الكريم في تفريق الآيات في الموضوع الواحد، لأنه أدنى ألا يسأم التالي لها في الصلاة وغيرها، وأقوى في تجديد الذكرى والتأثير في النفس، وهو مناسب لما قبله من النهي عن الاستغفار للمشركين وهو مما يتاب منه، وكلّ عثرة يطلب منها الصفح.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

لم يروِ المفسرون حادثة معينة في سبب نزول الآية وإنما رووا وصفاً لظروف غزوة تبوك وما كان فيها من شدة الأمر حيث كانت في سنة مجدبة، كادت قلوب فريق من أصحاب رسول الله ﷺ تزيغ منها على حدّ التعبير القرآني، والمتبادر أن توبة الله ﷻ المعلنة في هذه الآية هي متصلة بذلك.⁽²⁾

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ: التوبة من الله ﷻ تخرج على وجوه:

أ. التوفيق: وفقهم للتوبة وأكرمهم بها.

ب. التوبة منه قبولها منهم، أي: يقبل منهم التوبة.

ج. "تجاوز عنهم وعفا وصفح عنهم".⁽³⁾

(1) ينظر: تفسير المنار 11 / 52، والتفسير الوسيط لطنطاوي 6 / 418، تفسير المراغي 11 / 39.

(2) ينظر: تفسير ابن كثير 4 / 228، والتفسير الحديث 9 / 547.

(3) تأويلات أهل السنة 5 / 504.

الراجح: ترى الباحثة بأن التوبة قد تكون في هذا الموضع من السورة قد شملت الأنواع الثلاثة في البداية وفقهم الله ﷻ للتوبة، وبعد توفيقه ﷻ لهم تجاوز وصفح وغفر لهم ذنوبهم التي ارتكبوها، وهذا من باب التدرج.

سَاعَةُ الْعُسْرَةِ: غزوة تيوك، والعسرة الشدة والضيق، وكانت عسرة في الزاد إذ كانت عند انتهاء فصل الصيف الذي نفذت فيه مؤنتهم، وأول فصل الخريف الذي بدأ فيه موسم جديد ولا يمكن حمل شيء منه، وعسرة في الظَّهر حتى كان العشرة يعنقون بعيداً واحداً، وعسرة في الزمن إذ كانت في شدة الحر والقيظ؛ ولعل التعبير بساعة العسرة للتذكير بذلك الوقت العصيب.⁽¹⁾

يَزِيغُ: يتلف بالجهد والمشقة والشدة، أو يعدل ويميل عن المتابعة والنصرة، وقيل معناه يهيم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة.⁽²⁾

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ﴾: في فاعل كاد ثلاثة أوجه:

أ. ضمير الشأن، والجملة بعده في موضع نصب.

ب. فاعلها مضمرة تقديره: من بعد ما كاد القوم، والعائد على هذا الضمير في منهم.

ج. فاعلها القلوب، ويزيغ في نية التأخير، وفيه ضمير فاعل، ويحسن هذا الوجه من الإعراب على القراءة بالناء، أما القراءة بالياء فلا يصح عليه هذا الوجه.⁽³⁾

جملة: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على جملة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ﴾ أي تاب على غير هذا الفريق مطلقاً، وتاب على هذا الفريق بعد ما كادت قلوبهم تزيغ، فتكون ثم على أصلها من المهلة.

جملة: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ جاءت تعليلاً لما قبلها.⁽⁴⁾

(1) ينظر: جامع البيان 14 / 540، وتفسير القرطبي 8 / 278-279، والكشاف 2 / 318، وتفسير المنار 11 /

52-53، والأنوار الكاشفة ص: 266، والموسوعة القرآنية 10 / 43، والجواهر الحسان 3 / 223.

(2) ينظر: فتح البيان 5 / 418، وفتح القدير 2 / 470، وبحر العلوم 2 / 93، وتفسير العز بن عبد السلام 2 / 56،

والتحرير والتنوير 11 / 51.

(3) ينظر: التبيان 2 / 662.

(4) ينظر: التحرير والتنوير 11 / 51.

قال تعالى: ﴿يَزِيغُ﴾ فيها قراءتان، وهي علي النحو التالي:

أولاً: قرئ بالياء المفتوحة، وهي قراءة حمزة، وحفص.

ثانياً: بالتاء المفتوحة، وهي قراءة باقي السبعة.⁽¹⁾

التوجيه: من قرأ بالياء المفتوحة بلفظ التذكير، قال الفراء: الفعل المسند إلى المؤنث إذا تقدم عليه جاز تذكيره وتأنيثه، فذكر (يزيغ) كما ذكر (كاد) لتشابه الفعلين، ومن قرأ بالتاء بلفظ التأنيث، ولفظ التأنيث إذا لم يكن حقيقياً، جاز التأنيث والتذكير، لأن الفعل مقدم فيجوز التذكير والتأنيث.⁽²⁾

رابعاً: المعنى الاجمالي:

أخبر الله ﷺ نبيه محمداً ﷺ، أنّ من لطفه وإحسانه رزق الإنابة إلى أمره وطاعته، وأنه تاب عليه بعدما أذن للمنافقين في التخلف عنه، والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسوله الذين اتبعوا رسول الله ﷺ في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء، وكان جيش العسرة من المهاجرين والأنصار ومن غيرهم من القبائل التي حول المدينة ومكة، ولكنهم خصوا بالتناء لأنهم لم يترددوا ولم يتثاقلوا ولا شحوا بأموالهم، فكانوا أسوة لمن اقتدى بهم من غيرهم من القبائل، وكرر ذكر التوبة لأنه ليس في ابتداء الآية ذكر ذنبهم، فقدم الله ﷺ ذكر التوبة فضلاً منه، ثم ذكر ذنبهم، ثم أعاد ذكر التوبة، ولقد رزقهم الله ﷺ الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كاد يلتبس عليهم، وإن الله ﷺ بالذين خالط قلوبهم ذلك لما نالهم في سفرهم من الشدة والمشقة رعوف بهم، ورحيم من أن يهلكهم فينزع منهم الإيمان بعد ما قد أبلؤا في الله ﷺ ما أبلؤا مع رسوله ﷺ، وصبروا عليه من البأساء والضراء.⁽³⁾

خامساً: مقاصد النص وأهدافه:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

- (1) ينظر: فتح القدير 2/ 470، وتفسير القرطبي 8/ 280، وفريدة الدهر 2/ 859-860، تفسير البغوي 397/2، تفسير المنار 11/ 53، والتحرير والتنوير 11/ 50، الموسوعة القرآنية 5/ 298.
- (2) ينظر: بحر العلوم 2/ 93، والوسيط في تفسير القرآن المجيد 2/ 529، وتفسير المنار 11/ 53، وتفسير القرطبي 8/ 280.
- (3) ينظر: تفسير ابن كثير 4/ 228-229، وفتح البيان 5/ 416-417، وفتح القدير 2/ 470، والوسيط في تفسير القرآن المجيد 2/ 529، وتفسير العز بن عبد السلام 2/ 56، وتفسير المراغي 11/ 40-41.

← إقالة العثرات:

يجب إقالة العثرة، وخصوصاً بين المتحابين في الله ﷻ، بين من يعملون في سبيل نصرته دينهم، والدعوة لإعلاء كلمة الحق، فالله ﷻ عفو، ومن أثار الإيمان بهذا الاسم وجوب التحلي بصفة العفو لأن الخطأ وارد، والإساءة محتملة من كل شخص، والخطأ على ضربين اجتهاد وتعمد، من منا لا يخطئ؟؟ فكلنا نخطئ ونصيب، وقد تنزل القدم، ويفلت اللسان فلسنا معصومين، فقد زل من قبلنا، ولن يسلم من بعدنا، وما كان اجتهاداً فقد يكون للعوامل النفسية دورٌ في حصوله من مرید الخير، فالله ﷻ كريم يقبل عثرات الكرام.

← الصديق وقت الضيق:

ها نحن نرى كيف تكون الصداقة الحقة والإيمان الثابت وكيف كانت صحابة رسول الله ﷺ، والصداقة مشاركة في السراء والضراء وهي بذل وعطاء، فالصديق الحق هو الذي يكون بجوار صديقه وقت الشدة ولا يتخلى عنه حين يحتاج إليه، وهذا ما حدث مع الصحابة الكرام في جيش العسرة، حيث آثروا الجهاد ونصروا الدين الإسلامي على مطالبهم وحياتهم، ولذا يجب علينا أن نحسن اختيار الصديق لأن الصديق مرآة لصديقه، فيجب علينا اختيار الصديق المتأدب بالأخلاق والملتزم بالسلوك الحسن والجميل، والذي يأخذ بيدنا إلى طريق الأمن والسلام، الصديق الحقيقي هو الذي يؤثر على نفسه ويتمنى لك الخير دائماً قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الحشر: 9]، وينصحك إذا رأى عيبك ويشجعك إذا رأى منك الخير ويعينك على العمل الصالح، ويوسع لك في المجلس ويسبقك بالسلام إذا لقيك، ويسعى في حاجتك إذا احتجت إليه، وهو الذي يحبك بالله وفي الله ﷻ دون مصلحة مادية أو معنوية، وهذا ما نحتاجه اليوم في زمن كثرت فيه الفتن، وصعبت فيه الحياة، وتشابكت فيه الطرقات، عن أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ، كَمَثَلِ الْمِسْكِ وَالنَّافِثِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْدِثَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِثُ الْكَبِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً". (1)

(1) صحيح البخاري 7/ 96، كتاب: الذبائح والصيد، باب: المسك، حديث رقم: 5534.

المطلب الخامس

التوبة الخاصة على الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك

قَالَ تَعَالَى ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ [التوبة: 118-119].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

يقول الرازي في تفسيره: "إن الآية معطوفة على الآية الأولى، والتقدير: لقد تاب الله ﷻ على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة وعلى الثلاثة الذين خلفوا، والفائدة في هذا العطف أننا بيننا أن من ضم ذكر توبته إلى توبة النبي ﷺ، كان ذلك دليلاً على تعظيمه وإجلاله، وهذا العطف يوجب أن يكون قبول توبة النبي ﷺ وتوبة المهاجرين والأنصار في حكم واحد، وذلك يوجب إعلاء شأنهم وكونهم مستحقين لذلك".⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

ورد في صحيح البخاري سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ - وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تَيَّبَ عَلَيْهِمْ، أَنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ، غَيْرَ غَزْوَتَيْنِ غَزْوَةِ الْعُسْرَةِ، وَغَزْوَةِ بَدْرٍ قَالَ: فَأَجْمَعْتُ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحَى، وَكَانَ قَلَمًا يَفْدَمُ مِنْ سَفَرٍ سَافَرَهُ إِلَّا ضَحَى، وَكَانَ يَبْدَأُ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ رَكَعَتَيْنِ، وَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ كَلَامِي، وَكَلَامِ صَاحِبِي، وَلَمْ يَنْهَ عَنْ كَلَامِ أَحَدٍ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ غَيْرِنَا، فَاجْتَنَبَ النَّاسُ كَلَامَنَا، فَلَبِثْتُ كَذَلِكَ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ الْأَمْرُ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ فَلَا يُصَلِّيَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، أَوْ يَمُوتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَكُونَ مِنَ النَّاسِ بِنَتِكَ الْمَنْزِلَةِ فَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا يُصَلِّيَ وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيَّ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَوْبَتَنَا عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، حِينَ بَقِيَ الثَّلَاثُ الْأَخْرُ مِنَ اللَّيْلِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ أُمَّ سَلَمَةَ، وَكَانَتْ أُمَّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي مَعْنِيَةً فِي أَمْرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " يَا أُمَّ سَلَمَةَ تَيَّبَ عَلَيَّ كَعْبٌ " قَالَتْ: أَفَلَا أُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأُبَشِّرُهُ؟ قَالَ: " إِذَا يَحْطِمُكُمُ النَّاسُ فَيَمْنَعُونَكُمُ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلِ " حَتَّى إِذَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْفَجْرِ آذَنَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا، وَكَانَ إِذَا اسْتَبَشَرَ اسْتَبَشَرَ وَجْهَهُ، حَتَّى كَانَتْهُ

(1) مفاتيح الغيب 16/ 164.

قِطْعَةً مِنَ الْقَمَرِ، وَكُنَّا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خَلَفُوا عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي قُبِلَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اعْتَدَرُوا، حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ لَنَا التَّوْبَةَ. (1)

الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة هم: كعب بن مالك الأنصاري، ومرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، كلهم من الأنصار. (2)

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ " قَوْلَهُ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ [التوبة: 117]، إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119] ". (3)

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

خَلَفُوا: ورد فيها قولان، هما:

أ. خلفوا، عن التوبة؛ نحو قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ [التوبة: 117]، وتأخر أمرهم عن توبة أبي لبابة وأصحابه رضي الله عنهم حيث تيب عليهم بعدهم، فكانوا يبتهلون ويدعون الله عز وجل حتى تاب الله عز وجل عليهم فتابوا.

ب. خلفوا عن غزوة تبوك ولم يخرجوا مع رسول الله فيها لما تقدمهم القوم، فهم المخلفون بتقدم أولئك. (4)

الراجح: قال كعب بن مالك رضي الله عنه: خلفوا عن قبول العذر، وليس بتخلفنا عن الغزو، ويقوي ذلك كونه جعل: (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض) غاية للتخلف، أي: خلفوا عن قبول العذر، وأخروا

(1) صحيح البخاري 6/ 70، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾، [التوبة: 118]، حديث رقم: 4677.

(2) ينظر: الرحيق المختوم ص: 401، والسيرة النبوية والدعوة في العهد المدني ص: 631، وجامع البيان 544/14.

(3) صحيح البخاري 6/70، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119]، حديث رقم: 4678.

(4) ينظر: الكشاف 2/ 318، مفاتيح الغيب 16/ 164، ولباب التأويل 2/ 415، وزاد المسير 2/ 308، وتأويلات أهل السنة 5/ 504، وتفسير العز بن عبد السلام 2/ 57، أنوار التنزيل 3/ 101، وبحر العلوم 2/ 96.

حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت⁽¹⁾، ورَجَّحت الباحثة هذا المعنى بسبب ما ذكر على لسان أحد المتخلفين عن الغزوة مع رسول الله ﷺ وهو كعب بن مالك ؓ.

صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ: يحتمل هذا على التحقيق، ويحتمل أن يكون على التمثيل، وللتحقيق وجهان:
أ. ما ذكر أنهم شدوا أنفسهم بالسواري.

ب. لما حبسوا أنفسهم عن أراضيهم، وتركوا شهواتهم وأمانيتهم وما يتلذذون به؛ ذلك ضيق الأرض.

وَصَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ: تحتمل وجهين، هما:

أ. لما شدوا أنفسهم بالأسطوانات.

ب. يحتمل أن يكون على التمثيل؛ وذلك أن الخوف إذا اشتد بالإنسان وبلغ غايته حتى يمنعه عن القرار في الأرض والتلذذ فيها.⁽²⁾

الصَّادِقِينَ: المراد بالصادقين في الآية الكريمة ذكر فيه ثمانية أقوال، ولكن سأكتفي بذكر خمسة منها، وهي ما أراها موافقة للنص القرآني:

أ. النبي ﷺ وأصحابه.

ب. أبو بكر وعمر ؓ.

ج. الثلاثة الذين خُلفوا، صدقوا النبي ﷺ عن تأخرهم.

د. المهاجرون، لأنهم لم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ في الجهاد، وقيل: إن أبا بكر الصديق ؓ

احتج بهذه الآية يوم السقيفة، فقال: يا معشر الأنصار، إن الله ﷻ يقول في كتابه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ

الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ

الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: 8] من هم؟ قالت الأنصار: أنتم هم، قال: فإن الله ﷻ يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ

وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، فأمركم أن تكونوا معنا، ولم يأمرنا أن نكون معكم،

فنحن الأمراء وأنتم الوزراء.

هـ. المسلمون عامة.⁽³⁾

(1) البحر المديد في 2/ 437، والبحر المحيط 5/ 519.

(2) ينظر: تأويلات أهل السنة 5/ 505.

(3) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي 2/ 598، وزاد المسير 2/ 308، وتفسير العز بن عبد السلام 2/ 57.

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ﴾: يأتي إعرابها بعدة وجوه:

أولاً: أنها معطوفة على النبي ﷺ أي: تاب على النبي وعلى الثلاثة

ثانياً: معطوفة على ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ثم تاب عليهم وعلى الثلاثة.⁽¹⁾

قوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: جازّ ومجرور متعلق بملجأ بحذف مضاف أي من عذاب الله ﷻ، أو من سخط الله ﷻ.⁽²⁾

المصدر المؤول ﴿بِمَا رَحِبَتْ﴾: في محلّ جرّ بالباء والجازّ والمجرور حال من الأرض، أي ضاقت حال كونها رحبة، أي: مع رحبها.

جملة: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾ في محلّ جرّ مضاف إليه، وجملة: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ في محلّ جرّ معطوفة على جملة: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾.

جملة: ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط المقدرّ أي لجأوا إليه ثم تاب الله ﷻ عليهم.

جملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ لا محلّ لها من الإعراب وهي جملة تعليلية.

جملة النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وهي جملة استئنافية.⁽³⁾

﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب بدل من أيّ، أو عطف بيان ﴿ءَامِنُوا﴾.⁽⁴⁾

3. الجوانب البلاغية:

المجاز: في قوله تعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾، أي قلوبهم، وعبر عنها بذلك مجازاً لأن قيام الذات بها، ومعنى ضيقها غمها وحرزها كأنها لا تسع.⁽⁵⁾

الصورة هنا تجسّم الحالة النفسية، وما كانوا فيه من ضيق وكرب، بسبب تخلفهم عن المعركة ومشاركتهم مع الرسول ﷺ، فالأرض على سعتها تضيق بهم، وتأخذ بخناقهم، فلا يجدون فيها

(1) ينظر: التبيان 2/ 663، والجدول 11 / 51.

(2) ينظر: إعراب القرآن، الدعاس 2 / 11، الجدول 11 / 52.

(3) ينظر: الجدول 11 / 52 - 55.

(4) إعراب القرآن الدعاس 2 / 11، والجدول 11 / 55.

(5) البحر المحيط 5 / 519، والجدول 11 / 53.

إلا الضيق والكره، حتى نفوسهم، أيضاً ضاقت عليهم، فشحروا بالاختناق في أعلى مداه، فهم لا يجدون سروراً ولا أنساً بعد مقاطعة المجتمع الإسلامي لهم، فالأرض تضغط عليهم من الخارج، ونفوسهم تضغط عليهم من الداخل، وليس لمثل حالتهم إلا الله ﷻ، وبعد هذا الكرب الخانق، يأتي الفرج، وتتفتح غمتهم.⁽¹⁾

4. القراءات:

أ. قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قرأ ابن مسعود وابن عباس (وَكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ)، (مع) تأتي بمعنى: (من).⁽²⁾

5. استنباطات فقهية:

في هذه الآيات دليل على أنه لا يقبل خبر الكاذب ولا شهادته، قال مالك: "لا يقبل خبر الكاذب في حديث الناس وإن صدق في حديث رسول الله ﷺ".

قال غيره: "يقبل حديثه، والقبول فيه مرتبة عظيمة، وولاية لا تكون إلا لمن كرمت خصاله، ولا خصلة هي أشد من الكذب، فهي تعزل الولايات، وتبطل الشهادات".⁽³⁾

رابعاً: المعنى الإجمالي:

ذكرت الآية الكريمة الثلاثة الذين لم تنزل توبتهم مع أبي لبابة وأصحابهم ﷺ، وأخرها الله ﷻ حتى أنهم ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾ مع سعتها، والسبب في ذلك أن المسلمين مُنعوا من معاملتهم وكلامهم، وأمروا باعتزال أزواجهم، وكان النبي ﷺ مُعرضاً عنهم، ويقوا على هذه الحالة خمسين يوماً، وهذا مثلٌ لشدة الحيرة التي كانوا فيها، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ بالهمم والغم، ومجانبة الأولياء والأحباء، ونظر الناس لهم بعين الإهانة، بحيث لا يسعها أنس ولا سرور، وعلموا يقيناً بأنه لا عاصم من الله ومن عذابه إلا هو، والاستغفار إليه، ثم أعاد الله ﷻ التوبة عليهم تأكيداً، لِيَتُوبُوا وَيَسْتَقِيمُوا، والله ﷻ هُوَ النَّوَّابُ لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة، وهو الرَّحِيمُ المتفضل عليهم بالنعمة.

يوجه الله ﷻ الخطاب لهم ويقول يا أيها الذين آمنوا اثبتوا على التقوى والإيمان، واتقوا الله فيما لا يرضاه، ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، وكونوا في الدنيا من أهل ولايته وطاعته تكونوا في الآخرة مع الصادقين في الجنة، وهذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد

(1) وظيفة الصورة الفنية في القرآن ص: 251.

(2) ينظر: الكشف 2/ 319، وزاد المسير 2/ 308، والمحرم الوجيز 3/ 95.

(3) أحكام القرآن لابن العربي 2/ 599.

قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المناققين، فجاء هذا الأمر اعتراضاً في أثناء الكلام لأن في القصة ما يجب التنبيه على امتثاله.⁽¹⁾

خامساً: مقاصد النص وأهدافه:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ الصدق مفتاح النجاة:

نرى هذا جلياً فيما قام بفعله كعب بن مالك رضي الله عنه بأنه صدق في حديثه مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يختلق الأعذار الكاذبة لتخلفه عن الغزو، فكان له النجاة ونزول المغفرة له والتوبة عليه من رب العباد، فلذلك يجب علينا في كل زمان ومكان أن نتحلى بالصدق في المعاملة مع المسلمين، فهو منجاة، والكذب خيبة وخسران وأجمل ما يتحلى به الإنسان صفة الصدق التي تورث صاحبها الاحترام والمحبة، وقد كان رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم صديقاً وسمى الصادق الأمين فما أجمل أن يتحرى الإنسان الصدق في أقواله وأفعاله حتى يكتب عند الله صديقاً، مصداقاً لذلك حديث خير البرية محمد صلى الله عليه وسلم، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا."⁽²⁾

إنَّ الصدق لا يكون في القول فقط، الصدق يكون في النية والإرادة، وفي العزم، وفي الوفاء بالعهد، وتحقيق مقامات الدين كلها، والكذب آفة تهدم المجتمعات، وهو خصلة ذميمة وصفة قبيحة وعمل رذيل وظاهرة اجتماعية انتشرت مع الأسف في أوساط الكثيرين، في المنتديات والمجالس والعلاقات والمعاملات وقلَّ أن يسلم منه الصغير والكبير والذكر والأنثى، والناس فيه بين مُقَلِّ ومستنكث - إلا من رحم الله-، حتى أنَّ الكذب كاد أن يكون بضاعة التجار والأزواج والأولاد، والكتَّاب والإعلاميين، ويكاد الواحد لا يعرف الصادق من غيره وذلك لكثرة الكاذبين.

الصدق من الأخلاق الحميدة والصفات الجميلة، وهو أصل الإيمان وأساس النجاة من عذاب الواحد الديان، والكذاب آثم وعواقب الكذب خطيرة على الفرد والمجتمع، ودليل على ضعف النفس ودناءة الشأن وقلة التقوى، والكذاب مهين لنفسه بعيد عن عزتها، وكم من كذبة أوقعت

(1) ينظر: جامع البيان 14/ 543-544، ومفاتيح الغيب 16/ 165، والكشاف 2/ 319، وزاد المسير 2/ 308،

أنوار التنزيل 3/ 101، ومدارك التنزيل 1/ 715، ومحاسن التأويل 5/ 520، ومراح لبيد لكشف معنى القرآن

المجيد 1/ 473، وتفسير المنار 11/ 53، والمحرم الوجيز 3/ 93-95، والبحر المديد 2/ 438.

(2) صحيح البخاري 8/ 25، كتاب: الأدب، باب: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ

الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119] وَمَا يُنْهَى عَنِ الْكُذْبِ، حديث رقم: 6094.

بين الناس عداوة وبغضاً، وكم من كذاب فقد الناس الثقة به وعاملوه على خوف وارتياح، فلذلك يجب رفع شعار الصدق لأنه كالسيف إذا وضع على شيء قطعه وإذا واجه باطلاً صرعه، وإذا نطق به عاقل علت كلمته، وسمت محجته، فهو مفتاح لجميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية، وهو من أفضل أعمال القلوب بعد الإخلاص لله ﷻ، فلنتحرر الصدق في القول والفعل لنفعل في الدنيا والآخرة.

◀ أعداء الإسلام يتربصون بالدين الإسلامي:

يجب علينا استخدام أسلوب الشدة والهجر تارة، والعطف والرحمة بمرتكبي الأخطاء تارة أخرى، وذلك تأديباً لهم لينزجروا عن أفعالهم وارتكاب المعاصي، ويكونوا عبرة لغيرهم، ولمن تسول لهم أنفسهم العمل مثلهم، ولكن في الوقت نفسه يجب أن نحذر من أعداء الإسلام والذين يتربصون بنا الدوائر، ويرصدون ما وقع بين المسلمين، فإنهم ينتظرون اللحظة المناسبة للإيقاع بالمسلمين، لئلا يسم بينهم، وهذا ما نلمسه ونراه جلياً في قصة الصحابي كعب بن مالك ﷺ عندما أرسل له ملك غسان بالقول له "الحق بنا نواسك"، وهذا ما يحدث في واقعنا المعاصر من محاولة من الكيان الصهيوني للإيقاع بالمعاقبين في وحل العمالة والتخابر مع الاحتلال، فيجب الحذر من ذلك.

◀ هجران أهل المعاصي تأديباً لهم:

التأديب يكون بسخط المجتمع وتعنيفه للمسيء، واتخذ رسول الله ﷺ المجتمع وسيلة للتأديب، وفي الآية الكريمة دليل على أن النقد الاجتماعي من أساليب التربية الاجتماعية في الإسلام، ولكن لا يُلجأ إليها إلا عند الضرورة القصوى، وهذا يدل على أن مؤدب الناشئين، يحق له بل يجب عليه أحياناً، أن يحرم المخطئين من معايشة زملائهم فترة من الزمن، عقوبة وردعاً لهم حتى يشعروا بندمهم وتوبتهم، ورجوعهم إلى الصواب، أو يأخذ عليهم العهد بذلك، شريطة أن يعرفوا أخطاءهم، وسبب إنزال هذه العقوبة بهم، وأن يتوسم فيهم الاستفادة من هذه العقوبة، فقد ترك رسول الله ﷺ المنافقين لم يعاقبهم على تخلفهم، وخص هؤلاء الثلاثة بهذه العقوبة، لعلمه بأنها هي الأنفع لهم، وأنهم أجدر أن يتعظوا بها⁽¹⁾، ويمكننا تطبيق هذا الأسلوب في الأسرة وخاصة في تربية الأبناء في مختلف المراحل العمرية التي يمرون بها، بأن الابن إن أخطأ يتم عزله عن إخوته ووالديه لفترة من الزمن حتى يعترف بخطئه، ويندم على فعله الذي ارتكبه، والإصرار على عدم الرجوع لمثل ذلك، وأيضاً يمكن للمعلم في الفصل أن يطبق ذلك مع تلاميذه الذين يخطئون ويقع منهم بعض التصرفات، ويتم ذلك بأن يحرم المعلم الطالب المشاركة في بعض الأنشطة الصفية أو حرمانه من الأنشطة اللاصفية، وإلى غير ذلك من الأساليب التي يراها المعلم مناسبة حسب الموقف التعليمي، الذي يجده.

(1) ينظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها ص: 146.

المبحث الثاني

المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية

(120-123) الجهاد في سبيل الله ﷻ

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: فريضة الجهاد على أهل المدينة والأعراب، وجزاؤه.

المطلب الثاني: الجهاد فرض كفاية، وطلب العلم فريضة.

المطلب الثالث: السياسة الحربية في قتال الكفار.

المطلب الأول

فريضة الجهاد على أهل المدينة والأعراب وجزاؤه

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ [التوبة: 120-121].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

عندما بين أن ما حدث للمسلمين من الأهوال إنما نالهم ذلك بتخلفهم عن أشرف الخلق محمد ﷺ، والذي التفت بهم إلى مراتب الإقبال إنما هو الصدق، فالله ﷻ نهاهم بصيغة الخبر ليكون أبلغ، وجامعاً إليهم من كان على مثل حالهم في مطلق التخلف.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾: أي لا يؤثروا أنفسهم على نفسه، لا ينبغي أن يكونوا بأنفسهم أبرّ وأشفق من نفس محمد ﷺ، وأن يتركوا محبته، أو لا يركنوا بإبقاء أنفسهم على إبقاء نفسه.⁽²⁾

﴿ يَطَئُونَ ﴾: "الوطء هو الدوس بالأرجل، والموطئ: مصدر ميمي للوطء، والوطء في سبيل الله ﷻ هو الدوس بحوافر الخيل وأخفاف الإبل وأرجل الغزاة في أرض العدو، فإنه الذي يغيظ العدو ويغضبه لأنه يأنف من وطء أرضه بالجيش".⁽³⁾

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿ حَوْلَهُ ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول.

الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ متعلق بحال وأن وما في حيزها اسم كان المؤخر.⁽⁴⁾

(1) ينظر: نظم الدرر 9 / 43.

(2) ينظر: التفسير الوسيط 4 / 31، وبحر العلوم 2 / 97.

(3) التحرير والتنوير 11 / 56.

(4) ينظر: المجتبى 2 / 419، وإعراب القرآن وبيانه 4 / 193.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ الواو عاطفة ويرغبوا يجوز فيه النصب على العطف على أن ﴿وَلَا﴾ نافية، والجزم على أن ﴿وَلَا﴾ ناهية، و﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ حال أي عليهم أن يصحبوه على كل حال، وفي البأساء والضراء وأن يكابدوا مع الأهوال ويحتملوا المشاق والمكاره وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه فكأنه لم يصن نفسه ولم يربأ بها عندما ناهز الشدائد، وكابد الأهوال فما أجدرهم بالحدو حدوه واقتفاء آثار خطاه.⁽¹⁾

قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الجملة حال من الهاء أو صفة لمخمصة.⁽²⁾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾، "مَوْطِئًا" إما اسم مكان فيعرب مفعولا به أي يدوسون مكانا وإما ظرف فيعرب مفعولا مطلقاً وجملة يغيظ الكفار صفة لموطئاً.⁽³⁾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، جملة ﴿كُتِبَ﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿ظُلماً﴾ فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال.⁽⁴⁾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ عطف على ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾، و﴿نَفَقَةً﴾ مفعول به أي: ولو تمررة فما فوق.

جملة: "﴿كُتِبَ﴾ حال من ﴿وَادِيًا﴾، وجازت الحال من النكرة لسبقها بالنفي".⁽⁵⁾

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الهاء في ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ مفعول به أول و ﴿اللَّهُ﴾ فاعل و﴿أَحْسَنَ﴾ مفعول به ثان أو مفعول مطلق بمعنى أي يجزيهم أحسن جزاء.⁽⁶⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾، الرغبة تعدي بحرف (في) فتفيد معنى مودة تحصيل الشيء والحرص فيه، وتعدي بحرف (عن) فتفيد معنى المجافاة للشيء، وفي هذه الآية تعدت ب (عن)، أريد بها برغبتهم عن نفسه، أي: محبتهم أنفسهم وحرصهم على سلامتها دون الحرص على سلامة نفس الرسول ﷺ، فكأنهم رغبوا عن نفسه إذ لم يخرجوا معه محتفظين لأنفسهم، لأنهم بمقدار من يتخلف منهم يزداد تعرض نفس الرسول ﷺ من الخطر قربا،

(1) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4 / 193.

(2) ينظر: إعراب القرآن للدعاس 2 / 11.

(3) التبيان 2 / 663.

(4) ينظر: المجتبي 2 / 419، والتحرير والتتوير 11 / 57.

(5) المجتبي 2 / 419.

(6) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4 / 194.

فتخلف واحد منهم عن الخروج معه عون على تقريب نفس الرسول ﷺ، من التلّف فلذلك استعير لهذا التخلف لفظ الرغبة عنه.⁽¹⁾

ب. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ قطع الوادي يعني اجتيازه وعبوره، وحقيقة القطع تكون بتفريق أجزاء الجسم، وأطلق على الاجتياز على وجه الاستعارة.⁽²⁾

ج. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَّوِّئُونَ مَوْطِئًا﴾ فيها جناس ناقص وكذلك بين ينالون ونيلاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنَ عَدُوِّ نِيْلًا﴾.

4. الناسخ والمنسوخ:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ اختلف المفسرون في حكم هذه الآية إلى قولين، هما:

الأول: إنّ الآية محكمة، وإنما كان ذلك لرسول الله ﷺ خاصة، لم يكن لأحد أن يتخلف إذا غزا خلافه فيقعد عنه، إلا من كان ذا عُدْرٍ، فأما غيره من الأئمة والولاة، فإن لمن شاء من المؤمنين أن يتخلف خلفه، إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة.

الثاني: قال آخرون: هذه الآية كانت حكماً عاماً، وعندما كان أهل الإسلام قلة، فلما كثروا نسخها الله ﷻ وأباح التخلف لمن شاء عن الجهاد والغزو، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: 122].⁽³⁾

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

الآية استئناف ابتدائي لإيجاب وتأكيد الغزو مع رسول الله ﷺ وما فيه من الأجر العظيم، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه، بما فيه من تفضيل أنفسهم على نفسه، وخص هؤلاء بالذكر وهم أهل المدينة سكان مدينة رسول الله ﷺ ومن حولها من الأعراب سكان البادية ويقال هم: مزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، وقيل هو عام في كل الأعراب لأن اللفظ عام وحمله على العموم أولى، وإنما خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا فلم ينفروا بخلاف غيرهم من العرب فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ، وإن استوى كل الناس في ذلك لقربهم منه لأنهم لا يخفى عليهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة يغزوها، ومصاحبته ومعاونته والجهاد، ولا يرضون الخفض والدعة ورسول الله ﷺ في الحر والمشقة ومقاساة

(1) ينظر: زهرة التفاسير 7/ 3479، التحرير والتنوير 11/ 56.

(2) ينظر: التحرير والتنوير 11/ 58.

(3) ينظر: جامع البيان 14/ 562-563، وفتح البيان 5/ 424، والتحرير والتنوير 11/ 55، وتفسير البغوي 4/ 110.

التعب، وذلك النهي عن التخلف، ولا يصيبهم العطش الشديد وذلك لقلّة الماء، ولا إعياء وتعب لبعده الشقة أو قلة الظهر، ولا جوع ومجاعة لقلّة الزاد في سبيل إعلاء كلمة الله ﷻ ورفع راية الدين الإسلامي، ولا يقفون موقفاً ولا يضعون قدماً في موضع ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف راحلهم وأرجلهم، فذلك يغضب الكفار ويضيق صدورهم، ولا يصيبون من عدوهم أسراً أو قتلاً أو غنيمة أو هزيمة، قليلاً ولا كثيراً إلا كان ذلك قريناً لهم عند الله ﷻ، والله لا يبطل ثوابهم، وذلك لمبادرتهم إلى أمره ﷻ، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم، ولا ينفقون نفقة في سبيل الله وهو الجهاد مهما كانت صغيرة وقليلة ولو كانت ثمرة وما دونها، أو كبيرة وكثيرة مثلما فعل عثمان بن عفان ؓ، وتجهيزه لجيش العسرة، ولا يقطعون ولا يجاوزون وادياً في مسيرهم إلى أعدائهم مقبلين غير مدبرين، إلا آثارهم الله ﷻ، وأعطاهم وكافأهم بأحسن وأفضل من الذي كانوا يعملونه، فهذه الآيات أشد ترغيباً وتشويقاً للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله ﷻ، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجرٌ كبير. (1)

رابعاً: مقاصد النص وأهدافه:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

➤ الجهاد في سبيل الله ﷻ:

إن الآيات الكريمة تضمنت الحث على الجهاد وبيان فضله، وتحدثت عن أثره ووقعه في نفوس المجاهدين، فقد بيّن المولى ﷻ أن حركات المجاهدين كلها مثابون عليها.

1. فضل الغدوة والروحة في سبيل الله ﷻ:

إن الجاهد في سبيل الله ﷻ، والرباط على الثغور، وسهر الليالي والناس نائمون، إن هذا كله لا يذهب هباءً منثوراً فلهم أجرٌ كبير عند الله ﷻ، وإن لم يقدره عبيد الله ﷻ، ولنا استئناس بذلك حديث رسول الله ﷻ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "الْغَدْوَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا". (2)

(1) ينظر: جامع البيان 14/ 561 - 562، وفتح البيان 5/ 421 - 424، وتفسير ابن كثير 4/ 234 - 235،

التفسير الوسيط للواحدي 2/ 534، وتفسير البغوي 4/ 109 - 110، ومدارك التنزيل 1/ 716 - 717،

وتفسير المنار 11/ 60 - 61، وتيسير الكريم الرحمن ص: 355، وتأويلات أهل السنة 5/ 507 - 508.

(2) صحيح البخاري 4/ 16، كتاب: الجهاد والسير، باب: الغدوة والروحة في سبيل الله، وَقَابِ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ،

حديث رقم: 2792.

2. رسالة للجرحى:

مجاهدون دخلوا ميدان الجهاد والاستشهاد، ولا يعلمون ما هو مخبوء لهم في صفحات القدر إنهم الجرحى، كل الكلمات المسخرة للتعبير والوصف تعجز أمام الواقع الذي يعيشه الجرحى الذين تسبب الاحتلال الصهيوني ببتتر أجزاء من أجسادهم خلال اجتياحاته واعتداءاته المتكررة على الأراضي الفلسطينية لكن ما يواسيهم هو الأجر الذي أعده الله ﷻ لهم.

أيها الجريح إنَّ لك مكانةً كبيرةً عند الله ﷻ، ويوضح ذلك ما ذكر على لسان النبي ﷺ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصَدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كَلِمٍ، لَوْثُهُ لَوْثُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْرُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْرُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْرُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْرُو فَأُقْتَلُ".⁽¹⁾

كذلك حديث عن جُنْدَبِ بْنِ سُفْيَانَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ الْمَشَاهِدِ وَقَدْ دَمِيَتْ إِصْبَعُهُ، فَقَالَ: "هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيَتْ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَتْ".⁽²⁾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا مِنْ مَجْرُوحٍ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجْرَحُهُ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ جُرْحِ، اللَّوْنُ لَوْثُ دَمٍ، وَالرَّيْحُ رِيحُ مِسْكٍ".⁽³⁾

3. كلمة للأسرى:

أيها القابضون على الجمر في سجون الاحتلال إن كل ما يصيبكم في الله ﷻ لكم أجر كبير، وثواب عظيم عليه عند الله ﷻ، ولقد أسر وسجن من هو خير منكم فاصبروا واحتسبوا فالله ﷻ معكم، عن عُرْوَةَ بِنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوَّجَ النَّبِيَّ ﷺ،

(1) صحيح مسلم 3/ 1495، كتاب: الإمارة، باب: فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم: 1876.

(2) صحيح البخاري 4/ 18، كتاب: الجهاد والسير، باب: من ينكب في سبيل الله، حديث رقم: 2802.

(3) سنن ابن ماجه 2/ 934، كتاب: الجهاد، باب: القتل في سبيل الله ﷻ، حديث رقم: 2795، [حكم الألباني: حسن صحيح].

قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا". (1)

4. الكلمة جهاد في سبيل الله ﷻ:

فليرغب العبد إلى مولاه الذي خلقه وهداه، وعافاه وأغناه، وليرغب في دينه وشرعه الذي به يحصل له الفوز والفلاح، وليرغب في جزيل الأجر والثواب الذي أعده مولاه لمن أطاعه واتبع هداه، فما أوحج العباد إلى ربهم، وما أشد رغبتهم إليه في جلب ما ينفعهم، ودفع ما يضرهم.

الإعراض عن الجهاد من دلائل النفاق:

إن المنافقين جعلوا الجهاد جريمة، حذروا أتباعهم منه، فكيف يحدث نفسه بالجهاد من هذه طريقتة؟! وكيف له أن يبذل ماله ونفسه في سبيل الله ﷻ، وهو يكن لهم في نفسه البغض والكراهية، وعن أبي هريرة ؓ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ". (2)

الإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ:

إنَّ الإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ مِنْ أَبْرَزِ عِلَامَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَجْدَى وَسَائِلِ قِيَاسِ مَنْسُوبِهِ فِي الْقَلْبِ، ذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ نَنفِقَ أَمْوَالَنَا نَشْتَرِي بِهَا الْجَنَّةَ؛ وَهِيَ غَيْبٌ لَمْ نَرَاهَا، جَاءَ خَبْرُهَا عَلَى لِسَانِ رَسُولِ الْأَنْبَاءِ، الْمَبْعُوثِ لَنَا مِنْ إِلَهٍ جَلِيلٍ وَكُلِّ ذَلِكَ لَمْ نَرِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ آمَنَّا وَأَيَّقْنَا، وَصَدَّقْنَا فَعَلْنَا قَوْلَنَا، وَتَثَبَّتْ إِيْمَانُنَا وَتَثَقَّلَ مَوَازِينُنَا بِإِخْرَاجِ الْمَالِ، وَذَلِكَ لِتَقْدِيمِ الدَّلِيلِ الظَّاهِرِ عَلَى صِدْقِ الإِيْمَانِ الْبَاطِنِ؛ وَيَجِبُ عَلَى النَّاسِ الْبَذْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ وَإِيْثَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ وَشِرَاءَ مَوْعِدِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 261]، وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ ؓ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ". (3)

إِغَاظَةُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ:

بَيَّنَّ ﷻ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ إِغَاظَةَ الْكُفَّارِ وَالنَّيْلِ مِنْهُمْ وَخَاصَّةً الَّذِينَ يَحَارِبُونَ اللَّهَ ﷻ وَرَسُولَهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ ؓ، أَمْرٌ مَقْصُودٌ مِنَ الشَّارِعِ الْحَكِيمِ، فَإِغَاظَتُهُمْ لَا تَأْتِي إِلَّا عَنِ طَرِيقِ الْبَغْضِ وَالْعَدَاوَةِ لَهُمْ وَلِكُفْرِهِمْ وَهَذَا الْبَغْضُ هُوَ الَّذِي يُولَدُ الرِّغْبَةَ فِي حَرْبِهِمْ بِلَا هَوَادَةٍ، وَلَا تَرَاجُعٍ، وَلَا

(1) صحيح البخاري 7/ 114، كتاب: المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرض، حديث رقم: 5640.

(2) صحيح مسلم 3/ 1517، كتاب: الإمارة، باب: ذم من مات، ولم يغزو، ولم يحدث، حديث رقم: 1910.

(3) صحيح مسلم 3/ 1505، كتاب: الإمارة، باب: فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها، حديث رقم: 1892.

استسلام ومفهوم المخالفة في هذه الآية يدل على أن الذي لا يغيظ الكفار ولا ينال منهم، ويتولاهم ويحرص على رضاهم مخالف لصفات المحسنين - أعاذنا الله ﷻ - من ذلك.⁽¹⁾

لقد نسي المسلمون في عصرنا الحاضر هذه العبارات - إغاظة الكفار -، وأخذت تتطمس وتخفي من حياتهم اليومية رافعين شعارات براقية وبعيدة عن تعاليم الدين الإسلامي كل البعد ومنها ما يسمى باسم التسامح، أو الحرية الدينية، أو العولمة، أو التعايش السلمي، وغيرها من المسميات والألفاظ التي ظاهرها الرحمة وباطنها الدمار للدين، متناسبين ومتجاهلين ما كان يفعله قذوتنا وحبينا المصطفى ﷺ وكيف كان يحرص على إغاظة الكفار والنكاية بهم أشد الحرص، لقد ذكر الله ﷻ فعل الإغاظة بصيغة المدح في سورة الفتح حين وصف المؤمنين، فقال ﷻ: ﴿يُحِبُّ الزَّعَاعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح 29]، ولنا قدوة بصحابة رسول الله ﷺ ما قام به ابن مسعود رضي الله عنه والذي جعله يذهب ليقراً سورة الرحمن على كفار مكة فيقوموا لضربه، ولو تساءلنا في خلجات نفوسنا ما الذي دعاه لفعل ذلك، وتحمله الشدائد؟! لكنه أعلن الحق أمامهم فلو لم يكن للمسلمين قدرة على المواجهة بالسلاح فقد واجهوهم بالقرآن وهذا من باب إغاظة الكفار وإسماعهم ما يكرهون وينكرون، وكذلك الهجرة من مكة إلى المدينة كان بها مغاظة ومراغمة للكفار فحاولوا منعها بشتى السبل والوسائل.

مفهوم الإغاظة لا ينحصر فقط بالقتل والتدمير والمضايقة والكراهية للعدو، خاصة وأننا نمر في عصر التطور والتكنولوجيا فيمكن أن تكون الإغاظة بالقوة التكنولوجية والصناعية، وهذا ما يفعله المجاهدون والمقاومون على أرض الرباط حيث يقوموا باختراق المواقع العسكرية للكيان الصهيوني وإرسال الرسائل التي تغيظهم وتبثُ الرعب في قلوبهم، وإغاظة بالحضارة الإنسانية والتقدم العلمي، وتكون الإغاظة الحققة لهم باستقلالنا مادياً وصناعياً، والاكتفاء بمنتجاتنا المحلية.

انتصار المبدأ:

للمؤمنين مفهوم خاص للنصر، فانتصارهم مرتبطٌ بدينهم، فالمؤمن لا يقاقل حمية ولا عصبية، ولا ليقال شجاع، ولا لأرض ولا لقبيلة أو حزب، إنما يقاقل لتكون كلمة الله ﷻ العليا، وانتصار المؤمن انتصار لدينه، ولا معنى عند المؤمنين لنصر لا يعز الله ﷻ فيه الدين، وإنه معنى لا يزعه التهديد ولا الترغيب، إنه معنى يوجه المؤمن نحو إيمانه وعمله الصالح، وأن يكون ذلك محط نظره الأول، وأن تكون أولويات حياته منطلقاً من هذا الهدف من أجل تحقيق الفوز الكبير، وبهذا يتحرر المؤمن من ريقه الجاهلية التي تحاصره بماديتها الضخمة من أجل طعنه

(1) ينظر: المولاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية ص: 95.

برمح اليأس ونزع الأمل من قلبه؛ عسى أن يكلّ عن العمل لدينه، أو يمل من الثبات على مبدئه.⁽¹⁾

الجهاد اليوم الذي على أرض فلسطين جهاد لإعلاء كلمة الله ﷻ ولاسترداد الأراضي التي سلبها الكيان الصهيوني غصباً وظلماً وعدواناً، وكذلك ما يقع من ثورات ضد الحكام إنما لإعلاء كلمة الله ﷻ، ومحاربة للطغيان والفساد.

(1) ينظر: مجلة البيان 190 / 28.

المطلب الثاني

الجهاد فرض كفاية، وطلب العلم فريضة

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَنْفِقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعدما تواترت النواهي للمتخلفين وتواصلت الزواجر وتعاضم التبكيت والتهديد، طارت القلوب وأشفتت النفوس، فكان ذلك مظنة أن لا يتخلف بعدها أحد عن رسول ﷺ إذ كان قد عرفهم في الآية السابقة اللازم لهم من فرض النفر، والمباح لهم من تركه في حال غزو رسول الله ﷺ، وشخصه عن مدينته لجهاد عدو، وناقشهم نقاشاً عنيفاً كشف فيه أستار النفاق وأعلمهم أنه لا يسعهم التخلف خلفه إلا لعذر، بعد استنهاض بعضهم وتخلف بعضهم، ناسب أن يكون عقيب ذلك، تعريفهم الواجب عليهم عند مقام رسول الله ﷺ بمدينته، وأشخاص غيره عنها، أن يكون فريق من المؤمنين عند رسول الله ﷺ للفقهاء في الدين ليكونوا مرشدين لأقوامهم الذين دخلوا في الإسلام، كما كان الابتداء بتعريفهم الواجب عند شخصه وتخليفه بعضهم.⁽¹⁾

ثانياً سبب النزول:

تعددت الروايات في أسباب نزول الآية الكريمة ولكن سأكتفي بذكر الصحيح منها:

1. قال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله ﷻ الآية الكريمة.⁽²⁾

2. قال: عبد الله بن عبيد بن عمير: كان المؤمنون يحرضهم على الجهاد إذا بعث رسول الله ﷺ سرية خرجوا فيها وتركوا النبي ﷺ بالمدينة في رقة من الناس فأنزل الله ﷻ الآية.⁽³⁾

(1) ينظر: جامع البيان 14 / 572، نظم الدرر 9 / 47، والتفسير الواضح 2 / 29، والتحرير والتوير 11 / 59.

(2) تفسير ابن كثير 4 / 236، والدر المنثور 4 / 324.

(3) الدر المنثور 4 / 323.

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

لَيَنْفَقَهُوا: يقول محمد ابن عاشور في تفسيره: "أن النفقة هو: تكلف الفقاهة، وهي مشتقة من فقه (بكسر القاف) إذا فهم ما يدق فهمه فهو فاقه، فالفقه أخص من العلم، ولذلك نجد في القرآن استعمال الفقه فيما يخفى علمه كقوله تعالى: ﴿لَا نُنْفِقُهُونَ سَيِّحُهُمْ﴾ [الإسراء: 44]، ويجيء منه فقهه (بضم القاف) إذا صار الفقه سجيته، فقاهة فهو فقيه".⁽¹⁾

وَلَيُنذِرُوا: وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في النفقة اخبار قومهم بما يتوقع منه شر، وإرشادهم والنصيحة لهم.⁽²⁾

2. الإعراب:

جملة: ﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً﴾ لا محل لها من الإعراب، وهي معطوفة على جملة: ﴿مَا كَانِ لِأَهْلِ﴾ ما كان لأهل، ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة.⁽³⁾

لكن ما تراه الباحثة وترتضيه بأن الواو عاطفة لتتأسق الكلام فإنهم لما وبخهم الله ﷻ بقوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الآية، وأرسل النبي ﷺ سرية فنفروا جميعاً، نزلت الآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ الفاء فصيحة، الجار ومجرور ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ متعلقان ب (نفر)، و ﴿مِنْهُمْ﴾ حال لأنه كان في الأصل صفة لطائفة، ويجوز أن يكون صفة لفرقة.

﴿لَيَنْفَقَهُوا﴾: اللام للتعليل ويتفقها منصوب بأن مضمرة و ﴿فِي أَلْيَيْنِ﴾ جار ومجرور متعلقان ببيتفقها فالمعنى على الطلب كأنه قال لتخرج طائفة وتبقى أخرى.⁽⁴⁾

المصدر المؤول: ﴿لَيَنْفَقَهُوا﴾ في محل جر باللام متعلق ب﴿نَفَرَ﴾، والمصدر المؤول: ﴿وَلَيُنذِرُوا﴾ في محل جر معطوف على المصدر المؤول الأول ومتعلق بما تعلق به.⁽⁵⁾

(1) التحرير والتنوير 11 / 61.

(2) ينظر: الموسوعة القرآنية 10 / 44، التحرير والتنوير 11 / 62.

(3) ينظر: إعراب القرآن للدعاس 2 / 12، والجدول 11 / 61، وإعراب القرآن وبيانه 4 / 195.

(4) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4 / 195، والجدول 11 / 60، وإعراب القرآن للدعاس 2 / 12، والتبيان 2 / 663، والمجتبى 2 / 419.

(5) ينظر: الجدول 11 / 60.

جملة: ﴿ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ لا محل لها من الإعراب، وهي مستأنفة. (1)

جملة: ﴿ رَجَعُوا ﴾ في محل جر مضاف إليه.

جملة: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (عل) حرف مشبه بالفعل للترجي، ممكن أن تكون جملة تعليلية لا

محل لها من الإعراب، أو جملة مستأنفة. (2)

جملة: "﴿ يَحْذَرُونَ ﴾ في محل رفع خبر لعل". (3)

3. الناسخ والمنسوخ:

ورد عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ فَأَنْفِرُوا فِرَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء: 71]، وفي قوله

تعالى: ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة: 41-42]، قال: إنها نسخت بآيات العذر وهي قوله

تعالى: ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَنْفِقَهُوا فِي الدِّينِ

وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: 122]، ومن الذين قالوا بالنسخ في الآية

ابن عباس ومحمد بن كعب، وعطاء الخراساني وغيرهم. (4)

ما تميل إليه الباحثة القول الذي ذكره الزرقاني (5): "إن الآية الأخيرة في النفر للتعليم والتفقه لا

للحرب والآيات قبلها مخصصتان لا ناسختان للآية الأولى كأنه قال من أول الأمر لينفر منكم

خفافاً وثقالاً كل من احتيج إليه وهو قادر لا عذر له". (6)

4. استنباطات فقهية:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَنْفِقَهُوا فِي

الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

أولاً: جواز قبول خبر الواحد العدل.

الفرقة في الآية الكريمة يراد بها الثلاثة فأكثر، والطائفة تصدق على الواحد والاثنتين فهي جزء

من الفرقة، ومن ذلك أن الله أمر بتشكيل واحد أو اثنين للخروج من كل فرقة تضم ثلاثة أفراد

(1) ينظر: المجتبى 2/ 419، والجدول 11/ 61.

(2) ينظر: الجدول 11/ 61، والمجتبى 2/ 419.

(3) إعراب القرآن، الدعاس 2/ 12.

(4) ينظر: أحكام القرآن، للجصاص 3/ 150، البداية والنهاية 5/ 6، ودراسات في علوم القرآن ص: 274.

(5) الزرقاني: محمد عبد العظيم الزرقاني: من علماء الأزهر بمصر، تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرساً لعلوم القرآن

والحديث، وتوفي بالقاهرة سنة (1367هـ - 1948م)، من كتبه: مناهل العرفان في علوم القرآن، و بحث في الدعوة

والإرشاد. [ينظر: الأعلام 6/ 210].

(6) مناهل العرفان، الزرقاني 2/ 266.

من أجل التفقه في الدين ومن أجل الإنذار بعد العودة، فدل ذلك على صحة أخذ العلم عن خبر الواحد العدل على وجوب الأخذ بحديث الأحاد في العقيدة، فَلَوْ كَانَ خَيْرَ الْوَاحِدِ لَا يُفِيدُ الْعِلْمَ لَكَانَ ذَلِكَ الْإِنذَارَ أَمْرًا بِمَا لَا فائدة فيه.⁽¹⁾

ثانياً: وجوب طلب العلم، وأنه من فروض الكفاية في بعض المعلومات، وفرض عين في بعض.

الآية الكريمة حجة في أن النفي والتفقه فرضان على الكفاية، فأخبر أن النفي على بعضهم دون بعض، وأن التَّفَقُّهَ إنما هو على بعض دون بعض، وكذلك ما عدا الفرض في معظم الفرائض التي لا يسع جهلها، وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصوداً به قصد الكفاية فيما ينوب، فإذا قام به من المسلمين مَنْ فِيهِ الكفاية خرج من تخلف عنه مِنَ المَأْتَمِ.⁽²⁾

رابعاً: المعنى الإجمالي:

بَيَّنَّ اللهُ ﷻ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْفِرُوا جَمِيعًا لِلْغَزْوِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، وَيَتْرَكُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَحْدَهُ، وَوَجَّهَ اللهُ ﷻ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الطَّرِيقِ السَّلِيمِ وَالصَّوَابِ وَإِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ وَأَمْتَلٌ وَهُوَ أَنَّ عَلَيْهِمْ إِذَا سَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَةً أَنْ يَنْفِرَ مَعَهَا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ وَهِيَ الْفِرْقَةُ، وَذَلِكَ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى مَا بَلَغَ مِنَ الْعَدَدِ، أَيَّ أَنَّهُ مِنْ كُلِّ جَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ جَمَاعَةٌ قَلِيلَةٌ مِنْهُمْ يَكْفُونَهُمُ النَّفِيرَ، لِأَنَّ خُرُوجَهُمْ جَمِيعًا يُؤَدِّي إِلَى تَعْطُلِ الْمَنَافِعِ الْآخَرَى الَّتِي لَا بَدَّ لِلْإِسْلَامِ مِنَ الْقِيَامِ بِهَا، وَالْأَنْسَبُ بِالذِّينِ وَالدُّنْيَا مِنْ انْقِسَامِ النَّاسِ قَسْمَيْنِ: قَسْمٌ لِلْجِهَادِ، وَقَسْمٌ لِلتَّفَقُّهِ وَحِفْظِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، كُلُّ ذَلِكَ بِأَمْرِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْعَمَلُ بِمَا يَرْضَاهُ، وَلَا يَخْفَى ذَلِكَ عَلَى الْمُخْلِصِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوْا﴾ الضمير فيه للفرق الباقية بعد النافرة من بينهم، وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ وَلِيُنذِرَ الْفِرْقَ الْبَاقِيَةَ قَوْمَهُمُ الْنَافِرِينَ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ عَلِمُوا إِخْوَانَهُمْ بِمَا حَصَلُوا فِي أَيَّامِ غَيْبَتِهِمْ، وَمَا فَاتَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَأَسْرَارِ الشَّرْعِ، وَكَذَلِكَ الطَّائِفَةُ الْبَاقِيَةُ بِمَا تَعَايَنَ مِنْ نَصْرِ اللهِ ﷻ لِأَهْلِ دِينِهِ وَأَصْحَابِ رَسُولِهِ ﷺ، عَلَى أَهْلِ عِدَاوَتِهِ وَالْكَفْرِ بِهِ، فَيَفْقَهُ بِذَلِكَ مِنْ مُعَايِنَتِهِ حَقِيقَةَ عِلْمِ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَظَهْرَهُ عَلَى الْأَدْيَانِ، مَنْ لَمْ يَكُنْ فَقْهَهُ، وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ فَيَحْذَرُوهُمْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ مِثْلَ الَّذِي نَزَلَ بِمَنْ شَاهَدُوا وَعَايَنُوا مِمَّنْ ظَفَرَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ، إِذَا هُمُ رَجَعُوا إِلَيْهِمْ مِنْ غَزْوِهِمْ،

(1) ينظر: موسوعة الألباني في العقيدة 1/ 317، وحجية خبر الأحاد ص: 20، وإتحاف الجماعة 1/ 7، توضيح

المقاصد 1/ 210، النكت الدالة على البيان 1/ 582، أحكام القرآن للكنيا الهراسي 4/ 221.

(2) ينظر: تفسير الإمام الشافعي 2/ 961-962، والنكت الدالة على البيان 1/ 582، وأحكام القرآن، للكنيا الهراسي

221/4.

﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي لعل قومهم، إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك، يحذرون فيؤمنون بالله ﷻ ورسوله ﷺ، حذراً أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبروا خبرهم ويتجنبونه، وفي هذا خير للجميع.⁽¹⁾

خامساً: مقاصد النص وأهدافه:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ دور المجاهد:

إنَّ دور المجاهدين اليوم أن يمنعوا انهزام الأمة أمام الطوفان الصهيوني، وأن يوقفوا بعثرة الكتلة الحضارية العربية الإسلامية.

كذلك من أهم أدوارهم صد العدوان الغاشم على الأهالي العزل، قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فمن واجب المقاومين أنهم عندما يحدث معهم فتوحات ربانية وهم في ميدان القتال عليهم عند الرجوع إلى أهليهم الإخبار بها حتى يُقوُّوا العزيمة عند أفراد المجتمع، ويُحيوا فيهم دور الجهاد وينذروا العملاء والمتخابرين مع الأعداء.

◀ دور المتعلم:

إنَّ إسلامنا العظيم الذي شرعه الله ﷻ جاء لسعادة الإنسان ولرفقيه وتطوره، قد حث على طلب العلم بالكثير من آيات القرآن الكريم وسنة النبي العظيم ﷺ، ومن جملة الآيات الواردة في هذا المجال قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:11]، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:9]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:28].

ومن الأحاديث الواردة في هذا المقام ما روي عن ابن شهاب، قال: قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ، خَطِيبًا يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ"⁽²⁾، وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ، قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم"⁽³⁾.

(1) ينظر: جامع البيان 14 / 565 - 573، الكشاف 2 / 323، وبحر العلوم 2 / 98، وأيسر التفاسير 2 / 438، ومحاسن التأويل 5 / 528، ونظم الدرر 9 / 47.

(2) صحيح البخاري 1 / 25، كتاب: العلم، باب: مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، حديث رقم: 71.

(3) سنن الترمذي 5 / 50، أبواب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حدث رقم: 2685، [حكم الألباني: صحيح].

العلم لا يقتصر على العلوم الشرعية فقط، بل هناك علوم أخرى، يجب على أفراد المجتمع تعلمها وتفقها للوصول إلى الاكتفاء الذاتي، مثال على ذلك الطلاب الذين يرتحلون إلى الدول الأوروبية لتعلم الطب، فهؤلاء ينبغي عليهم العودة إلى وطنهم لعلاج أبناء شعوبهم ليخففوا عليهم مشاق السفر للعلاج، فهذا على سبيل الذكر لا للحصر، وهذا لا يعني غض النظر عن تعلم العلوم الشرعية، لأنه فرض كفاية على أفراد المجتمع، وكما أن الوطن بحاجة إلى العلوم الدنيوية، فهو بحاجة أيضاً إلى العلوم الشرعية، خاصة في الوقت الحاضر وذلك لما يتعرض له الدين الإسلامي من هجمة شرسة عليه وعلى أبنائه، فكل من تفقه وتعلم لهذا الغرض كان على المنهج القويم والصراط المستقيم، ومن عدل عنه وطلب الدنيا بالدين كان من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

المطلب الثالث

السياسة الحربية في قتال الكفار

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 123].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعدما أمر الله ﷻ فيما سبق من الآيات في السورة بقتال المشركين كافة، وخصّ المؤمنين على التفقه في الدين، أرشدهم في هذه الآية إلى طريق السداد في هذا الباب، وهو أن يبدؤوا بقتال من يليهم وبذلك يكون قد جمع من الجهاد جهاد الحجة وجهاد السيف.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

يَلُونَكُمْ: يَلُونُكُمْ من الولي وهي بمعنى القرب، تقول جلست مما يلي فلان أي: يقاربه، وهم القريبون من البلاد وحدودها، وهم من يتصلون بكم بالجوار⁽²⁾، والمقصود بالذين يلونكم على خمسة أقوال، هي:

أ. "بني قريظة والنضير وخيبر وفدك ونحوها".⁽³⁾

ب. "الروم".⁽⁴⁾

ج. الديلم.

د. العرب.

هـ. أنه عام في قتال الأقرب فالأقرب.⁽⁵⁾

(1) ينظر: البحر المحيط 5/ 527، وتفسير المراغي 11/ 49، والتفسير المنير 11/ 80.

(2) ينظر: الموسوعة القرآنية 10/ 45، وأيسر التفاسير 2/ 439، والتفسير الوسيط لطنطاوي 6/ 428، والتفسير

الواضح 2/ 31، والتفسير المنير 11/ 80، و إعراب القرآن وبيانه 4/ 195.

(3) الكشف 2/ 323، وبحر العلوم 2/ 99، وتفسير البغوي 2/ 406.

(4) جامع البيان 14/ 574، والكشاف 2/ 323، وتفسير البغوي 2/ 406، وأنوار التنزيل 3/ 102.

(5) ينظر: فتح البيان 5/ 426، وتفسير القرطبي 8/ 297، وزاد المسير 2/ 311، والنكت والعيون 2/ 415-

الراجح: ما تميل إليه الباحثة وترتضيه أن المقصود بالذين يلونهم القول الخامس، وهو بأنه عام في جميع الأحوال من مقاتلة الأقرب فالأقرب.

2. الإعراب:

جملة النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا محل لها من الإعراب، وهي استئنافية.

وجملة: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ لا محل لها من الإعراب، جواب النداء، وجملة: ﴿يَلُونَكُمْ﴾ صفة.

الجارّ ومجرور: ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ متعلقان بمحذوف حال من فاعل ﴿يَلُونَكُمْ﴾.

جملة: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ لا محل لها من الإعراب، وهي معطوفة على جواب النداء.

جملة: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ لا محل لها معطوفة على جواب النداء، والمصدر المؤول أنّ واسمها في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي اعلموا، و﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (مع) ظرف مكان متعلق بمحذوف خبرها. (1)

3. القراءات:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فُرِأت ﴿غِلْظَةً﴾ على النحو التالي:

أولاً: بكسر الغين ﴿غِلْظَةً﴾، وهي لغة أسد، وبها قرأ الجمهور.

ثانياً: بفتح الغين (غِلْظَة)، وهي لغة الحجاز، وبها قرأ الأعمش، وأبان بن تغلب، والمفضل، كلاهما عن عاصم.

ثالثاً: بضم الغين (غِلْظَة)، وهي لغة تميم وبها قرأ أبو حيوة، وأبو عبد الرحمن السلمي، وابن أبي عبلة.

(الكسر والضم) لغتان ومعناهما واحد. (2)

(1) ينظر: الجدول 11 / 62، وإعراب القرآن وبيانه 4 / 196، وإعراب القرآن للدعاس 2 / 13.

(2) فتح البيان 5 / 427، وتفسير القرطبي 8 / 298، والموسوعة القرآنية 5 / 299، والمحزر الوجيز 3 / 97، وزاد المسير 2 /

312، والبحر المحيط 5 / 528، وتأويلات أهل السنة 5 / 512.

4. الناسخ والمنسوخ:

روي عن بعض العلماء ومنهم الحسن أنه قال: أنزلت هذه الآية قبل الأمر بقتال المشركين كافة فلما نزل قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ لَا مَيلَ لَهَا﴾ [التوبة: 5]، صارت ناسخة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

قال المحققون من العلماء: ولا وجه للنسخ إذ لا تعارض بين هذه الآية والآيات التي زعمها الحسن ناسخة، فإنه ﷺ أمرهم بقتال المشركين جميعاً في أي مكان كانوا، وأرشدهم الطريق الأصوب والأصلح وهو أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب، قريباً مكانياً لا قريباً نسبياً حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد، وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لأن قتالهم في دفعة واحدة لا يتصور، ولهذا السبب قد قاتل رسول الله ﷺ أولاً قومه، ثم انتقل منهم إلى قتال سائر العرب ثم إلى قتال أهل الكتاب.⁽¹⁾

5. الإشارات الغيبية:

يقول ابن عاشور في كتابه: "إنَّ في توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبي ﷺ إيماء إلى أن النبي ﷺ لا يغزو بعد ذلك وأن أجله الشريف قد اقترب، ولعل في قوله: واعلموا أن الله مع المتقين إيماء إلى التسلية على فقد نبينهم ﷺ وأن الله معهم كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]."⁽²⁾

رابعاً: المعنى الإجمالي:

يقول الله ﷻ للمؤمنين به وبرسوله ﷺ: يا أيها الذين صدقوا الله ﷻ ورسوله ﷺ، ابدأوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم داراً، دون الأبعد فالأبعد، وذلك لأن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة إلى الدين والدفاع عن أهله، ويجب على أهل كل ناحية قتال من يليهم ويقربهم من الأعداء دون الأبعد منهم، وذلك ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى من نواحي بلاد الإسلام، فإن اضطروا إليهم، لزمهم عونهم ونصرهم، لأن المسلمين يدُّ على من سواهم، ويُعلم الله ﷻ عباده المؤمنين أسلوب القتال وكيفية المعاملة بأن يجد هؤلاء الكفار الذين تقاتلونهم منكم شدةً عليهم، وشجاعةً وصبراً على القتال والحرب، وأيقنوا عند قتالكم إياهم، أن الله ﷻ معكم، وهو ناصركم عليهم، فإن اتقيتم الله ﷻ

(1) ينظر: فتح البيان 5/ 427، وتفسير آيات الأحكام للسايس ص: 476، وتأويلات أهل السنة 5/ 511-

512، ولياب التأويل 2/ 423.

(2) التحرير والتنوير 11/ 63.

وخفتموه بأداء فرائضه واجتتاب معاصيه، فإنه ﷺ ناصر من اتقاه ومعينه على عدوه وغالبه عليهم. (1)

خامساً: مقاصد النص وأهدافه:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ ترتيب الأولويات في جميع مجالات الحياة:

إنَّ الحديث عن هذه القضية يعتبر من أهم ما يُتكلّم عنه، ويكتب فيه، إذ إن المسلم والداعية جميعاً لا بد أن يفهموا هذا المبدأ، وفي الحقيقة أن الجميع محتاج إليه التاجر في تجارته والمزارع في مزرعته، حتى الأب والمربي في بيته، إذ لا بد أن يفهم ما هو الأولى في هذه المرحلة، فيقدم الأهم على المهم ويبدأ به حتى ينجح في عمله، ولأنه داعمة للنجاح واختصار الوقت، وإن مشكلة تحديد نقطة البدء هي التي يقع فيها كثير من الناس، وتقديم الأهم فالمهم، فيجب أن يدرس ويفهم جيداً المحيط الذي يعيش فيه، وذلك لترتيب أولوياته.

1. الأولويات في القتال:

يجب على الإنسان العمل بكل إمكاناته وطاقاته من أجل مرضات الله ﷻ وذلك باتباع أوامره واجتتاب نواهيه، وإعلاء كلمة الله ﷻ ورفع راية الدين، وجعلها عالية خفاقة، فهذه هي أهم قضية يجب أن يعيش لأجلها المسلم وأن يقدمها على كل ما عداها من قضايا، وأن يضحي من أجلها بالغالي والرخيص، فيجب في البداية تطهير المجتمع من الأشخاص المندسين فيه من العملاء وضعيفي النفوس، وكذلك تربية أفراد المجتمع على الأخلاق الحميدة، حتى يكونوا عوناً للمجاهدين والمقاومين في النصره ويكونوا لهم سنداً في محاربة العدو الصهيوني، ويجب تأمين الحدود التي تربطنا مع الغزاة والمستعمرين، ومن ثم ضربهم في داخل أرضهم.

2. الأولويات في التربية:

على الإنسان البدء بنفسه، والتحلي بأخلاق القرآن الكريم، واتباع سنة الرسول ﷺ، ولقد علمنا الرسول ﷺ أنه يجب أن تتبع الأولويات في جميع أمور حياتنا وأقل ما يستهان به وهو البدء في الأكل، ودليل ذلك قوله ﷺ للغلام الذي أكل معه، عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، وَهُوَ ابْنُ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: أَكَلْتُ يَوْمًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَعَامًا، فَجَعَلْتُ أَكُلُ مِنْ نَوَاحِي الصَّخْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كُلْ مِمَّا يَلِيكَ"⁽²⁾، فَإِنَّ أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ بترتيب الأولويات

(1) ينظر: جامع البيان 14 / 574 - 576، والكشاف 2 / 323، وتفسير السمعاني 2 / 361، ومدارك التنزيل 1 /

718، والبحر المديد 2 / 443، والتفسير الواضح 2 / 31، ونيل المرام ص: 349

(2) صحيح البخاري 7 / 68، كتاب: الأطعمة، باب: الأكل مما يليه، حديث رقم: 5377.

في الطعام فمن باب أولى أن تتقدم الأولويات والبدء بالقرب فالأبعد فالأبعد بجميع ما يحيط بنا، فبدأ عمل الإنسان على نفسه من ثم ينتقل في تغيير ما يحيط به من أسرته وأبنائه الأقرب فالأقرب له، حتى يصل إلى المجتمع ككل.

إنّ مراعاة هذه القاعدة مهم جداً حتى في التدريس سواء كان علوماً دينوية أو دينية كتحفيظ القرآن الكريم، حيث إنه ينبغي أن يراعى أعمار الطلاب والفروق الفردية، ويبدأ مع كل ما يناسبه بحسب السن والذكاء والمستوى، وهكذا تثمر الدعوة، وتثمر الجهود ولا تضيع هباءً.

◀ الغلظة على الكافرين والمنافقين:

يكون ذلك في ساحات القتال والحرب وميادينه، فينبغي على المسلم أن يظهر الشجاعة والشدة والغلظة على الآخرين المحاربين، وعلى هذه الساحات تُحمل النصوص الشرعية التي تحض على الشدة والغلظة على الكافرين المحاربين، فإن القوة والمنعة ترد قلوباً كثيرة إلى الصواب، وترهبهم آيات الله في نصرته المؤمنين، وجند الله الغالبين، فيؤمنون بالله، وتُحِبُّ له قلوبهم.

إنّ من المعلوم أن سورة التوبة متأخرة النزول، لذلك فإنها تتضمن الأحكام النهائية للعلاقات الدولية، ولا سيما في وجوب إنهاء المعاهدات مع المشركين العرب، إلا من استقاموا لكم، فلم ينقصوكم شيئاً، ولم يظاهروا عليكم أحداً، فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم، والقسوة يجب ان نعامل بها هؤلاء الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: 10]، ولا يقيمون وزناً لأية وشائج من قرابة، أو جوار، أو إنسانية، فهي المعاملة بالمثل، وجزاء السيئة بمثلها، وحتى لا يتمكنوا من رقابكم، فيستبيحوا كل الحرمات، ويهلكوا الحرث والنسل، لذلك قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا تَشَفَّعْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَدَبُهُمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: 57]، وإذا لقيتموهم فَضْرَبْ الرقاب، ومع كل ذلك فإن تغيرات كثيرة وكبيرة تجري من حولنا، تبشر بأن الله ﷻ سيرد الاحتلال الغاشم بغيظهم ولن ينالوا خيراً، وسيكفي المؤمنين القتال، فالهزائم التي تدمغ أمريكا، مع تصاعد المقاومة، وتغير بعض السياسات العربية، وكل ذلك وغيره يوحي بأننا ذاهبون إلى نصرٍ من الله ﷻ، وفتحٍ قريب، وبشر المؤمنين.

المبحث الثالث

المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية

(124-129) نزول القرآن على أمين الأنام

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تثبت قلوب المؤمنين عند نزول القرآن الكريم.

المطلب الثاني: موقف المنافقين من نزول السور القرآنية.

المطلب الثالث: صفات الرسول ﷺ ذات الصلة بأمتة.

المطلب الأول

تثبت قلوب المؤمنين عند نزول القرآن الكريم

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن ذكر الله ﷻ ضرباً من مخازي المنافقين، وأعمالهم القبيحة، كتخلفهم عن غزوة تبوك، وتعلُّهم لذلك بالإيمان الفاجرة، ذكر هنا ضرباً أخرى من تلك المثالب وهي أخطر مما سبق، كتهكمهم واستهزائهم بالقرآن الكريم وتسللهم حين سماعه، وهذا آخر ما نزل مما يبين تأثير القرآن فيهم وفي المؤمنين.⁽¹⁾

ثانياً سبب النزول:

لم يرد سبب نزول لهذه الآية ولكن الإجماع من المفسرين على أن هذه الآية نزلت في المنافقين.

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا: يحتمل أن يكون:

أولاً: قول بعض المنافقين لبعض، ومقصودهم تثبيبتهم على النفاق، وهذا على وجه الإنكار.

ثانياً: أو أن يكون لقوم من قراباتهم من المؤمنين، وغرضهم صرفهم عن الإيمان، وتزهيدهم فيه، وتشكيكاً لهم.⁽²⁾

فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا: أي زادته خشيةً من الله ﷻ، ويقيناً.⁽³⁾

2. الإعراب:

جملة: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ في محل جر مضاف إليه.

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 16/ 174، والتفسير المنير 11/ 84، وتفسير المراعي 11/ 51.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب 16/ 174، فتح القدير 2/ 475، فتح البيان 5/ 428، وغرائب القرآن 3/ 549، والجواهر الحسان 3/ 231، وتفسير المراعي 11/ 51، والمحرم الوجيز 3/ 98، والنكت والعيون 2/ 416.

(3) ينظر: جامع البيان 14/ 578، وتفسير البغوي 2/ 406.

جملة: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ﴾ لا محلّ لها من الإعراب وهي جواب شرط غير جازم.

جملة: ﴿أَيْكُمْ زَادَتْهُ﴾ في محلّ نصب مقول القول.

جملة: ﴿زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ في محلّ رفع خبر المبتدأ ﴿أَيْكُمْ﴾⁽¹⁾، و ﴿زَادَتْهُ﴾ خبر، و (الهاء) مفعول به، و ﴿هَذِهِ﴾ فاعل و ﴿إِيمَانًا﴾ مفعول به ثانٍ.⁽²⁾

جملة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا محلّ لها من الإعراب وإما ان تكون استئنافية، أو صلة الموصول

جملة: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ في محلّ رفع خبر المبتدأ ﴿الَّذِينَ﴾، وإيماناً مفعول به ثانٍ أو تمييز.⁽³⁾

وجملة: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ في محلّ نصب حال من الهاء في ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾.⁽⁴⁾

وجملة: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ في محلّ رفع خبر المبتدأ ﴿وَهُمْ﴾.⁽⁵⁾

3. استنباطات عقائدية:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ثبت بهذه الآية الكريمة بأن الإيمان قابل للزيادة، وإذا كان قابلاً للزيادة فعدم الزيادة كان نقصاناً.⁽⁶⁾

قال الشافعي -رحمه الله-: "ولو كان هذا الإيمان كله واحداً لا نقصان فيه ولا زيادة، لم يكن لأحدٍ فيه فضل، واستوى الناس، وبطل التفضيل، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالإضافة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله في الجنة، وبالنقصان من الإيمان دخل المُفْرَطُونَ النار، وإن الله جل وعز، سابق بين عباده كما سبق بين الخيل يوم الزمان، ثم أنهم على درجاتهم من سبق عليه، فجعل كل امرئ على درجة سبقه، لا يُنقصه فيها حقه، ولا يُقدّم مسبقاً على سابق، ولا مفضول على فاضل، وبذلك فضل أول هذه الأمة على آخرها، ولو لم يكن لمن سبق إلى الإيمان فضل على من أبطأ عنه، للحق آخر هذه الأمة بأولها".⁽⁷⁾

(1) الجدول 11/ 64، إعراب القرآن وبيانه 4/ 196، إعراب القرآن للدعاس 2/ 13، وغرائب القرآن 3/ 549.

(2) إعراب القرآن وبيانه 4/ 196، والمجتبى 2/ 420.

(3) ينظر: الجدول 11/ 64، إعراب القرآن وبيانه 4/ 196، إعراب القرآن للدعاس 2/ 13.

(4) ينظر: المجتبى 2/ 420، وفتح البيان 5/ 428، التفسير المنير 11/ 83.

(5) الجدول 11/ 64، وإعراب القرآن للدعاس 2/ 13.

(6) ينظر: أحكام القرآن، لابن العربي 2/ 604، وشعب الإيمان 1/ 127.

(7) تفسير الإمام الشافعي 2/ 964.

رابعاً: المعنى الإجمالي:

يقول الله ﷻ: إذا أنزل الله ﷻ سورة من سور القرآن على نبيه محمد ﷺ، فمن هؤلاء المنافقين الذين ذكرهم الله ﷻ في هذه السورة من يقول: أيها الناس، أيكم زادت هذه السورة إيماناً؟ أي تصديقاً بالله، وهذا من باب الإنكار والاستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به، وهنا يجيء الرد الحاسم الذي يخرس ألسنتهم، فيجيب الله ﷻ عليهم بأن الذين آمنوا زادتهم نزول السورة القرآنية إيماناً، لتتویر قلوبهم، وتصفية سرائرهم، وهم يفرحون بما أعطاهم الله ﷻ من الإيمان واليقين، وبما أنزل من القرآن، وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية، فهم يعدون زيادة التكليف بشارة التشريف.⁽¹⁾

خامساً: مقاصد النص وأهدافه:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ المنافقون وأثرهم على المجتمع:

هذه الآية إشارة إلى وجود تلك الأجسام الغريبة الفاسدة - المنافقون - التي تعيش في كيان المجتمع الإسلامي، وأنه إذا كان للمسلمين عدو ظاهر يعرفون وجهه، ويأخذون حذرهم منه، ويعملون على قهره وكسر شوكته، فإن ذلك ينبغي ألا يشغلهم عن عدو خفي يندس فيهم، بل إن عليهم أن ينتبهوا إلى هذا العدو المتخفي، وأن يرصدوا تحركاته، وأن يضربوه الضربة القاضية، كلما أطل برأسه من جحره.⁽²⁾

لم يقتصر بث المنافقين للإشاعات وتحبيط المسلمين في عهد الرسول ﷺ بل إننا ما زلنا نلمسه في وقتنا الحاضر كيف أن المنافقين (العملاء) يقومون بنشر الإشاعات والإحباط بين أفراد المجتمع فما أشبه الماضي بالحاضر وما أشبه اليوم بالأمس، فلذلك يجب علينا أن نكون على حذر من أمثال هؤلاء.

◀ الإيمان يزيد وينقص:

إن سأل سائل هل الإيمان يزيد وينقص، وبم يحصل ذلك؟

فالجواب نعم إن الإيمان يزيد وينقص فيزيد بالطاعة وينقص بالمعصية كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: 4]، وقول النبي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

(1) ينظر: جامع البيان 14/ 577، والكشاف 2/ 324، وفتح القدير 2/ 475، وبحر العلوم 2/ 99، وتفسير البغوي

406/2 - 407، ومدارك التنزيل 1/ 718، والبحر المديد 2/ 444، ومحاسن التأويل 5/ 531.

(2) ينظر: التفسير القرآني للقرآن 6/ 921.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ"⁽¹⁾، وسبب الزيادة فعل الخير والطاعة، وسبب النقصان فعل المعاصي.

للزيادة أسباب منها معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، فإن الإنسان كلما ازداد معرفة بالله، وبأسمائه، وصفاته ازداد إيماناً بلا شك، ولهذا تجد أهل العلم الذين يعلمون من أسماء الله وصفاته ما لا يعلمه غيرهم تجدهم أقوى إيماناً من الآخرين من هذا الوجه، كذلك النظر في آيات الله الكونية، والشرعية، فإن الإنسان كلما نظر في الآيات الكونية التي هي المخلوقات ازداد إيماناً قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 20 - 21]، ويوجد آيات كثيرة دالة على أن الإنسان بتدبره وتأمله في هذا الكون يزداد إيمانه، وكثرة الطاعات فإن الإنسان كلما كثرت طاعاته ازداد بذلك إيماناً سواء كانت هذه الطاعات قولية، أم فعلية.

للقصان أسباب منها الجهل بأسماء الله ﷻ وصفاته يوجب نقص الإيمان؛ لأن الإنسان إذا نقصت معرفته بأسماء الله وصفاته نقص إيمانه، والإعراض عن التفكير في آيات الله الكونية والشرعية، فإن هذا يسبب نقص الإيمان، أو على الأقل ركوده وعدم نموه ومن المعلوم أن العضو الذي لا يتحرك يذبل ويموت، وكذلك إيمان الفرد إن لم يعزز ويقوى فهذا سبب للنقصان، وهو سبب الحياد عن طريق الحق.

إِنَّ لِّلْمَعْصِيَةِ آثَارًا عَظِيمَةً عَلَى الْقَلْبِ وَعَلَى الْإِيمَانِ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ"⁽²⁾، وترك الطاعة فإن ترك الطاعة سبب لنقص الإيمان، لكن إن كانت الطاعة واجبة وتركها بلا عذر، فهو نقص يلام عليه ويعاقب، وإن كانت الطاعة غير واجبة، أو واجبة لكن تركها بعذر فإنه نقص لا يلام عليه.

(1) صحيح مسلم 1/ 63، كتاب: الإيمان، باب: شعب الإيمان، رقم الحديث 35.

(2) صحيح البخاري 157/8، كتاب: الحدود، باب: لا يشرب الخمر، حديث رقم: 6772، (جزء من حديث طويل).

المطلب الثاني

موقف المنافقين من نزول السور القرآنية

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوْلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرْفَ اللَّهِ قُلُوبِهِمْ يَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ [التوبة: 125-127].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن ذكر الله ﷻ حال المؤمنين عند نزول آيات من القرآن الكريم، وضح حال المنافقين وهو استهزاؤهم بالقرآن وتهريبهم حين سماعه لأنه كلما نزلت سورة مشتملة على تبيان فضائحهم وعيوبهم تأذوا من سماعها، وكذلك كلما سمعوا سورة وإن لم يذكر فيها شيء عنهم، استهزءوا بها وطعنوا فيها، وأخذوا في التغامز على سبيل الطعن والهزاء، وفي هذا يبين التفاوت ما بين الفريقين.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

رِجْسًا: الرجس: المقصود به: أنه الشك والريب، أو الإثم، أو النفاق، أو الكفر، لأنهم كلما كفروا بسورة زاد كفرهم⁽²⁾، وترى الباحثة أن جميع المعاني متقاربة من بعضها البعض وتؤدي نفس المعنى.

يُفْتَنُونَ: معنى (الفتنة) التي ذكرها الله ﷻ في هذا الموضع أن هؤلاء المنافقين يفتنون بها:

أ. ذلك اختبار الله إياهم بالقحط والشدة، والسنة والجوع.

ب. يبتلون بالعذاب في كل مرة أو مرتين.

ج. أنهم يختبرون بالغزو والجهاد في سبيل الله ﷻ.

د. أنهم يختبرون بما يُشيع المشركون من الأكاذيب على رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ، فيفتنن

بذلك الذين في قلوبهم مرض.⁽³⁾

(1) ينظر: التفسير المنير 11 / 84، وتيسير الكريم الرحمن ص: 356.

(2) ينظر: تفسير ابن كثير 4 / 239، وتفسير القرطبي 8 / 299، وزاد المسير 2 / 312، وأيسر التفاسير 2 / 441، وتفسير

العز بن عبد السلام 2 / 59، ومعاني القرآن وإعراجه للزجاج 2 / 476.

(3) ينظر: فتح القدير 2 / 475، والكشف والبيان 5 / 113، وتفسير ابن كثير 4 / 240، ومفاتيح الغيب 16 / 175-176،

وتفسير السمعاني 2 / 361، وتفسير العز بن عبد السلام 2 / 59.

الراجح: ترجح الباحثة ما ذكره الطبري: "أنه لا خبر يوجب صحة بعض ذلك دون بعض، من الوجه الذي يجب التسليم له، ولا قول في ذلك أولى بالصواب من التسليم لظاهر قول الله وهو: أو لا يرون أنهم يختبرون في كل عام مرة أو مرتين، بما يكون زاجراً لهم، ثم لا ينزجرون ولا ينتظون؟" (1).

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ جارّ ومجرور وهو صفة لـ ﴿رِجْسًا﴾ أي: مضموماً إلى رفسهم.

جملة: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ في محلّ رفع خبر المبتدأ ﴿الَّذِينَ﴾.

جملة: ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ من المبتدأ والخبر في محلّ نصب حال من فاعل ﴿وَمَا تَأْتُوا﴾ (2).

المصدر المؤول ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ﴿يَرَوْنَ﴾.

جملة: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ في محلّ رفع خبر أنّ.

جملة: ﴿يَذَكَّرُونَ﴾ في محلّ رفع خبر المبتدأ ﴿هُمْ﴾ (3).

قوله تعالى: ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ﴾ لا محلّ لها من الإعراب واقعة في جواب الشرط غير جازم.

الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ متعلقان بنظر أي: تغامزوا بالعيون من غيظهم.

جملة: ﴿هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ في محلّ نصب مقول القول لقول محذوف، وهذا القول

المقدر في محلّ نصب حال من فاعل نظر أي: يقولون هل يراكم .

المصدر المؤول ﴿يَأْتِيَهُمْ قَوْمٌ﴾ في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ ﴿صَرَفَكَ﴾، والباء للسببية.

جملة: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ في محلّ رفع صفة لقوم. (4)

3. الجوانب البلاغية:

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

في الآية الكريمة استعارة ظاهرة، وذلك أن السورة لا تزيد الأرجاس رجساً، ولا القلوب مرضاً، بل هي شفاء للصدور، وجلاء للقلوب ولكنّ المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عمى وعمها، وازدادت

(1) جامع البيان 14 / 581.

(2) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4 / 196، والجدول 11 / 64 - 65، والمجتبى 2 / 420، وإعراب القرآن للدعاس 2 / 13.

(3) ينظر: المجتبى 2 / 420، وإعراب القرآن وبيانه 4 / 197، وإعراب القرآن للدعاس 2 / 14، و الجدول 11 / 66.

(4) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4 / 198 - 199، والمجتبى 2 / 421، وإعراب القرآن للدعاس 2 / 14، والجدول 11 / 67.

قلوبهم ارتياباً ومرضاً، والمشابهة بين مرض الأجساد والنفاق، فهو يفسد القلوب، والعقول والمدارك، كما يفسد المرض الأجساد ويضعف الحركات وقد يشلها، ومعها الوهن دائماً.⁽¹⁾

4. القراءات:

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ اختلف في قراءتها على النحو الآتي:

أولاً: قرأته عامة القراءة في الأمصار: ﴿أُولَٰئِكَ﴾، بالياء، على المغايبة.

التوجيه: أولاً يرى هؤلاء الذين في قلوبهم مرضُ النفاق؟ وهم المنافقون ولا يعتبرون

ثانياً: قرأ ذلك حمزة، ويعقوب: (أَوْ لَا تَرَوْنَ)، بالتاء.

التوجيه: أولاً ترون أنتم، أيها المؤمنون، أنهم يفتنون؟ ويكون الخطاب للنبي ﷺ وأصحابه ﷺ.⁽²⁾

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

إنَّ الذي في قلبه نفاق وشك فهذا إنما يتبع هواه ولا يتبع الدليل، وهذا يُصاب بالزيف والانحراف في الدين والعقيدة والأخلاق وفي كلِّ شيء عقوبةً له من الله ﷻ، فإنَّ السورة التي أنزلت زادتهم رجساً إلى رجسهم، وذلك أنهم شكوا في أنها من عند الله ﷻ، فلم يؤمنوا بها ولم يصدقوا، فكان ذلك زيادة شكٍّ حادثه في تنزيل الله ﷻ، لزمهم الإيمان به، فكان ذلك زيادة نكثٍ من أفعالهم، إلى ما سلف منهم نظيره من النتن والنفاق، وهؤلاء المنافقين هلكوا وهم كافرون بالله ﷻ وآياته، بعد ذلك يأتي الاستفهام الإنكاري التوبيخي لهم بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي ألا يرى هؤلاء المنافقون أنهم يختبرون في بعض الأعوام مرة، وفي بعضها مرتين، ثم هم مع البلاء الذي يحلُّ بهم من الله ﷻ، والاختبار الذي يعرض لهم، لا ينيبون من نفاقهم، ولا يتوبون من كفرهم، ولا هم يتذكرون بما يرون من حجج الله ﷻ ويعاينون من آياته، يتعظون بها، ولكنهم مصرُّون على نفاقهم؟، وإذا ما أنزل الله ﷻ سورة من القرآن، فيها عيبٌ هؤلاء المنافقين الذين وصفهم به الله ﷻ في هذه السورة، وهم في مجلس رسول الله ﷻ يتناظرون إلى بعضهم البعض، وتغامزون بالعيون إنكاراً للوحي، وسخرية به قائلين هل يراكم من أحدٍ من المسلمين لننصرف، فإننا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك، فنخاف الافتضاح بينهم، أو تراهم يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال ويقولون: هل يراكم من أحد، إن تكلمتم أو تتاجيتم بمعاييب القوم يخبرهم به، ثم قاموا فانصرفوا من عند رسول الله

(1) ينظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور 3/ 301، والمعجزة الكبرى القرآن ص: 190، والتفسير المنير 11/ 83-84، وصفوة التقاسير 1/ 570.

(2) ينظر: تفسير القرطبي 8/ 299، والكشاف 2/ 324، وجامع البيان 14/ 579، ومفاتيح الغيب 16/ 175، والجواهر الحسان 3/ 231، المحرر الوجيز 3/ 99، والتحرير والتنوير 11/ 67، وبحر العلوم 2/ 100، والكشف والبيان 5/ 113، وتفسير البغوي 2/ 407.

ﷺ، ولم يستمعوا قراءة السورة التي فيها معائبهم، ثم ابتدأ الله ﷻ فقال: صرف الله ﷻ عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ﷻ ورسوله ﷻ قلوب هؤلاء المنافقين، وفعل الله بهم هذا الخذلان، وصرف قلوبهم عن الخيرات، من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شدة عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه، استكباراً ونفاقاً.⁽¹⁾

رابعاً: مقاصد النص وأهدافه:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

﴿ بيان علامات مرض القلب وصحته:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُُنْفِقِينَ يُصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: 61]، لقد خلق الله ﷻ كل عضو من أعضاء البدن لفعل خاص به، وجعل كماله في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب والنقص، فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، والعين أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان أن يتعذر عليه النطق، والبدن أن تتعذر عليه حركته الطبيعية، أو يضعف عنها، والقلب أن يتعذر عليه ما خلق له من المعرفة بالله ﷻ، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على جميع شهواته، فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئاً، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها، ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه، والأنس به، فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان قلب العبد خالياً عن ذلك، عادت تلك الحظوظ واللذات عذاباً له ولا بداً، فيصير معذباً بنفس ما كان منعماً به من جهتين:

من جهة حسرة فوته، وأنه حيل بينه وبينه مع شدة تعلق روحه به، ومن جهة فوت ما هو خير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له.⁽²⁾

﴿ عدم الاعتبار بضرب الأمثال:

نرى الكثير ممن يبتليهم الله ﷻ بأمراض، أو بموت غيرهم، وإلى غير ذلك ومع هذا كله لا يكون رادعاً لهم ليبتعدوا عن المعاصي ولكن للأسف الشديد يصرون على فعل الكبائر والمحرمات، وإن العظة والتذكير من خلال تلك الابتلاءات والاختبارات من حين لآخر إنما هي

(1) ينظر: جامع البيان 14 / 578-582، وتفسير ابن كثير 4 / 241، والكشاف 2 / 325، وبحر العلوم 2 /

99-100، وتفسير السمعاني 2 / 361-362، وتفسير البغوي 2 / 407، ومدارك التنزيل 1 / 719، والبحر

المحيط 5 / 531، وإعانة المستفيد 2 / 115.

(2) ينظر: موسوعة فقه القلوب 2 / 1367.

للرقى، ومن الأساليب التربوية العلمية، وهي إيضاح وبيان لكشف المستور الخفي بالمعلوم الجلي.

إنَّ المؤمن يتَّبَع الدليل ويفرح به إذا حصل عليه، والحق ضالَّة المؤمن أتى وجده أخذه، أما الذي في قلبه زيع أو نفاق فهذا إنما يتَّبَع هواه ولا يتَّبَع الدليل.

﴿ إظهار بشاعة إعراض المنافقين عن ذكر رب العالمين:

يعتبر ذكر الله ﷻ من أعظم القربات إلى الله ﷻ فهو حياة القلوب كما قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: "الذكر للقلب كالماء للسّمك فكيف يكون حال السمك إذا فقد الماء"، والحديث النبوي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ﷺ، أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "لَا يَفْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَعَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ". (1)

إنَّ المنافق من يرى مجالس الذكر فيعرض عنها، فكثرة المعاصي تضيق صدورهم وتكرههم في مجالس الصالحين، وتحرمهم الخير، وخير شاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: 45].

(1) صحيح مسلم 4/ 2074، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، حديث رقم: 2700.

المطلب الثالث

صفات الرسول ﷺ ذات الصلة بأتمته

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿التوبة: 128-129﴾.

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

لقد اختار الله ﷻ أن يكون موضع هاتين الآيتين في آخر سورة براءة؛ ولذلك حكمة وهي أنها جاءت في ختام سورة كلها في النفاق والمنافقين؛ وذكر بما يهون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة، ولينبه القارئ إلى أن القتال وكشف النفاق رحمة للعالمين.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

مِّنْ أَنْفُسِكُمْ: تأتي بمعانٍ متعددة:

- أ. من جنسكم، أي: من جنس العرب، ولم يأت به من الروم أو من فارس، لكن اختار لكم من هو أعلم بطبائعكم.
- ب. من نفس القبيلة التي تنتمون إليها معشر قريش، ومن أنسابكم، وهو أيضاً موضع الامتتان عليهم؛ حيث بعثه من أنسابهم يعرفون نسبه ومولده ومنشأه من بين أظهرهم سليماً من جميع الآفات بريئاً من جميع المطاعن والعيوب.
- ج. أنكم تعلمون تاريخه، وتعرفون أنه أهل لتحمل أمانة السماء للأرض، كما تحمل أماناتكم من الأرض للأرض؛ ولأن هذا هو سلوكه، فهو قادر على أن يتحمل أمانة السماء للأرض.
- د. من البشر وهو امتتان منه عليهم؛ حيث بعث الرسول من البشر وله أن يبعث من غير البشر؛ ليعرفوا الآيات التي يأتي بها من التمويهات؛ لأنهم يعرفون مبلغ وسع البشر في مثل هذه الأشياء.
- هـ. من المكان الذي أنتم فيه وهو الحرم.⁽²⁾

(1) ينظر: فتح البيان 5/ 431، وزهرة النقاسير 7/ 3494.

(2) ينظر: تفسير الشعراوي 9/ 5604-5608، وتأويلات أهل السنة 5/ 516-518، ومعاني القرآن وإعرابه

الراجح: ما تراه الباحثة وتميل إليه أن جميع المعاني الواردة صحيحة وكلها محتملة.

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ: تأتي بعدة معاني، هي:

أ. عزيز عليه ما ضللتكم، قول ابن عباس رضي الله عنه.

ب. عزيز عليه عنت مؤمنكم.⁽¹⁾

الراجح: ترجّح الباحثة ما رجّحه الطبري، حيث يقول: "أنّ أولى القولين في ذلك بالصواب، قولُ ابن عباس، [القول الأول]، وذلك أن الله عمّ بالخبر عن نبيّ الله أنه عزيز عليه ما عنت قومه، ولم يخص أهل الإيمان به، فكان ﷺ عزيزاً عليه عنت جمعهم".⁽²⁾

2. الإعراب:

والجارّ والمجرور في قوله تعالى: **﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾** متعلق بصفة لـ **﴿رَسُولٌ﴾**.

قوله تعالى: **﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾**: فيه وجهان:

أحدهما: هو صفة لرسول، و (ما) مصدرية، موضعها رفع بعزير.

الثاني: أن **﴿مَا عَنِتُّمْ﴾** مبتدأ، و **﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾** خبر مقدم، والجملة صفة لـ **﴿رَسُولٌ﴾**.

﴿حَرِيصٌ﴾: صفة ثالثة.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: يتعلق بـ (رعوف).⁽³⁾

قوله تعالى: **﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾**: " (لا) نافية للجنس، و (إله) اسمها، و (إلا) للحصر، والخبر محذوف تقديره: مستحق للعبادة".⁽⁴⁾

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

يوجه الله ﷻ الخطاب لعباده بأني أرسلت إليكم رسولا تعرفون نسبه وحسبه، وهو عربي قرشي مثلكم، لا من غيركم، فنتهموه على أنفسكم في النصيحة لكم، وهذا الرسول المرسل لكم عزيزاً عليه دخول المشقة عليكم والمكروه والأذى، وشديد عليه ما يلحقكم من الضرر بترك الإيمان، وحريص على هُدَى ضلالتكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم،

(1) ينظر: جامع البيان 14 / 585 - 586، وتفسير البغوي 4 / 115، وتفسير العز بن عبد السلام 2 / 59.

(2) جامع البيان 14 / 586.

(3) ينظر: التبيان 2 / 663، والمجتبى 2 / 421.

(4) المجتبى 2 / 421.

رفيق بالمطيعين ورحيم بالمدنبيين، أرحم عليهم من والديهم، وبعد ذلك يوجه الله ﷻ الخطاب للرسول ﷺ قائلاً له: **فَإِنْ تَوَلَّى، يَا مُحَمَّدُ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَنَّتُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ مِنْ قَوْمِكَ، فَادْبِرُوا عَنْكَ وَلَمْ يَقْبَلُوا مَا أُتَيْتُمْ بِهِ مِنَ النَّصِيحَةِ فِي اللَّهِ ﷻ، وَمَا دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ مِنَ النُّورِ وَالْهُدَى، فَقُلْ: يَكْفِينِي رَبِّي وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ ﷻ وَفُوضْ إِلَيْهِ أُمُورَكَ فَهُوَ كَافِيكَ مَعْرَتَهُمْ وَنَاصِرَكَ عَلَيْهِمْ، فَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَبِهِ وَتَقَّتْ، وَعَلَى عَوْنِهِ اتَّكَلْتُ، وَإِلَيْهِ وَإِلَى نَصْرِهِ اسْتَدْتَدْتُ، فَإِنَّهُ نَاصِرِي وَمَعِينِي عَلَى مَنْ خَالَفَنِي وَتَوَلَّى عَنِّي مِنْكُمْ وَمَنْ غَيْرَكُمْ مِنَ النَّاسِ، وَهُوَ الَّذِي يَمْلِكُ كُلَّ مَا دُونَهُ، وَالْمَلُوكُ كُلُّهُمْ مَمَالِيكُهُ وَعَبِيدُهُ، وَخَصَّ الْعَرْشَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ الْأَعْظَمُ فَيَدْخُلُ فِيهِ الْأَصْغَرُ.**⁽¹⁾

رابعاً: مقاصد النص وأهدافه:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ التولية تكون لصاحب الأهلية:

ينبغي على من يتولى الأمر أن يكون من أهل الدين والأمانة للنظر في أمور الأمة، ويحسُن أن يختار من أفراد الوطن نفسه لأنه يكون عالم بأحوال أمته، ويدرك نقاط القوة عند أفراد مجتمعه فيعززها، وكذلك يعرف بنقاط الضعف فيعالجها ويقويها، وهذه من أهم واجبات من يتولى ويمسك زمام وأمور الحكم، والتولي على الأمر لا يكون في الرئاسة فقط، بل يشمل أيضاً التولي في الأعمال من مؤسسات، ومراكز وإلى غير ذلك.

◀ الشعور بالمسؤولية:

إن أسباب التخلف في حياتنا كثيرة، ومن أهم هذه الأسباب ضعف الشعور بالمسؤولية عند كثير من الناس، وفقدانه عند آخرين، ولو شعر كل فرد بمسؤوليته وقام بواجبه، لاستقامت أمورنا على الجادة السوية، ولزالت معظم الشكاوى والمظالم والمشاكل، والإسلام يُشرك الناس جميعاً في تحمُّل المسؤولية؛ وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **"كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْأَمِيرُ رَاعٍ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"**⁽²⁾، المسؤولية تتفاوت من إنسان إلى آخر تبعاً للتفاوت في الإمكانيات والأنتباع، والمسلم الحق إنساناً مثالي، ومواطن صالح، يقوم بما عليه دون أن تحمله على ذلك الرهبة من ملاحقة القانون، أو الخشية من أن تُدركه عيون رجال الدولة، بل إنه يقوم بذلك

(1) ينظر: جامع البيان 14/ 584-587، وتفسير ابن كثير 4/ 241، وفتح البيان 5/ 431-433، والتفسير

الوسيط، الواحدي 2/ 536، وتفسير البيهقي 4/ 115-116، وتفسير العز بن عبد السلام 2/ 59-60،

ومدارك التنزيل 1/ 719، وتيسير الكريم الرحمن ص: 356.

(2) صحيح البخاري 7/ 31، كتاب: النكاح، باب: المرأة راعية في بيت زوجها، حديث رقم: 5200.

ابتغاء مرضاة الله ﷻ وتثبيناً من نفسه، وقد يكون هذا الواجب يقتضيه أن يتجرد من ماله أو أن يوجد بروحه، فيفعل ذلك دون تردد، لا يرجو إلا ثواب الله ﷻ، وفي ظل هذا الشعور اليقظ كان يحيا الخلفاء الراشدون، والعلماء العاملون، والدعاة المصلحون، يضربون الأمثلة الحية الخالدة على قيمة الشعور بالمسؤولية، ولا يُبالون بما يمكن أن يلاقوا في سبيل ذلك من ضروب العنت والمشقة والمصاعب، ولنا دليل بذلك قصة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ أيام خلافته لا ينام إلا خفقات برأسه وهو جالس، سواء في ذلك ليله ونهاره، ويبلغ الشعور بالمسؤولية عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ مستوى عالياً جعله يقول: "والله لو عثرت بغلة في العراق لوجدتني مسئولاً عنها".⁽¹⁾

لقد حمل هذا الشعور بالمسؤولية سلفنا الصالح على الاهتمام بالوقت والانتفاع منه، بما يعود على الفرد والأمة بالخير العميم؛ رغبة في النجاة يوم القيامة، عن ابن مسعود ؓ، عن النبي ﷺ قال: "لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيْمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيْمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيْمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمَلَ فِيْمَا عَلِمَ".⁽²⁾

بهذا الخلق النبيل وأمثاله كان لأمتنا دورٌ عظيم في تاريخ الدنيا، وبذلك ارتقت أمتنا سلم المجد حتى بلغت الذروة، فما أجدرنا اليوم أن نكون على هذا النهج القويم سائرين؛ حتى نكون أعزة في الدنيا ناجين يوم الدين.

التوضيح للمؤمن أن الله كافي:

يجب أن ندرك جيداً ونؤمن أنه إن تخلى عنا الجميع فلنا رب عينه لا تنام، وهو مطلع على جميع الأحوال، وهذا خير مواساة للمظلومين في كل مكان وفي كل بقعة من بقاع الأرض، فالإيمان بأن الله ﷻ عالمٌ بأحوالنا وشاهدٌ علينا يخفف عن المؤمنين مصائبهم التي تحيط بهم من كل جانب وها نحن نرى اليوم كيف الحصار الخانق على أهل الشام المرابطين الثابتين على دينهم لا يرفعون شعاراً سوى من لنا سواك يا الله، نسأل الله لهم الثبات وأن يظهرهم على عدوهم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

(1) كيف نتعامل مع القرآن 177/1، وموارد الظمان لدروس المنان 555/3.

(2) سنن الترمذي 4 / 190، أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: في القيامة، حديث رقم: 2416، [حكم

الألباني: حسن].

الفصل الثالث

المقاصد والأهداف لسورة يونس

من الآية (1-25)

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المقاصد والأهداف لسورة يونس من الآية (1-10)، القدرة الإلهية

المبحث الثاني: المقاصد والأهداف لسورة يونس من الآية (11-18)، سنن الله في الإستخلاف وموقف الناس منه

المبحث الثالث: المقاصد والأهداف لسورة يونس من الآية (19-25)، حال المكذبين مع عدل رب العالمين

المبحث الأول

المقاصد والأهداف لسورة يونس

من الآية (1-10) القدرة الإلهية

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: الحروف المقطعة.

المطلب الثاني: إنكار العرب مهمة الرسول ﷺ.

المطلب الثالث: العبادة لخالق السموات والأرض.

المطلب الرابع: وعد الله حق.

المطلب الخامس: إثبات القدرة الإلهية في السنن الكونية.

المطلب السادس: المؤمن والكافر وعاقبة كل منهما.

المطلب الأول الحروف المقطعة

أولاً: المقصود بالحروف المقطعة:

مما علم باستقراء كتاب الله ﷺ أن تسعاً وعشرين سورة من القرآن الكريم قد افتتحت بحروف مقطعة، وسورة يونس التي نحن بصدد دراستها من ضمن هذه السور، والحروف من جنس كلام العرب، وإن هذه الحروف لم ينقل عن العرب دلالات لها، ولو كانت لها دلالات لتواتر النقل عليها، ولنقل ذلك علماء الصحابة رضي الله عنهم وأئمتهم، وافتتاح السور بها لهو في حد ذاته نوع من التحدي للقيام بالكشف عن أسرارها والتفكير فيها، ولما لم يذكر عن العرب لها دلالات فقد كان للعلماء بشأنها موقفان:

1. ذهب الشعبي وسفيان الثوري، وجماعة من أهل الحديث إلى أنها سر الله في القرآن، وهي من المتشابهة، وأن هذا علم مستور، وسرّ محبوب، استأثر الله تبارك وتعالى به فهو من المتشابهة.

ويقول طنطاوي في تفسيره: "إنّ من الاعتراضات التي وجهت إلى هذا الرأي، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس، لأنه من المتشابهة، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهملة، أو مثله كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها، وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس، فالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يفهم المراد منها، وكذلك بعض أصحابه المقربين ولكن الذي ننفيه أن يكون الناس جميعاً فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة في أوائل بعض السور.⁽¹⁾

2. ما ذهب إليه الجمهور من أهل العلم: أنه يجب أن يتكلم فيها، وتلتمس الفوائد التي تحتها والمعاني التي تتخرج عليها، واختلفوا في ذلك على عدة أقوال، ولم يرتض هذا كثير من المحققين وقالوا: لا يجوز أن يرد في كتاب الله ﷺ ما لا يكون مفهوماً للخلق، واحتجوا بأدلة عقلية ونقلية.⁽²⁾

ثانياً: معنى الحروف المقطعة:

لقد كان لابن عباس - ترجمان القرآن - النصيب الأوفر من الأقوال في هذه الأحرف، وجاء المفسرون من بعده، فتوسعوا في تحديد معاني هذه الفواتح، منها:

(1) التفسير الوسيط 1/ 38.

(2) ينظر: الجواهر الحسان 1/ 180، ومحاسن التأويل 1/ 242، وإعراب القرآن وبيانه 1/ 21، ولباب التأويل

22/1 - 23، والتفسير الوسيط، الطنطاوي 1/ 38.

اسم من أسماء القرآن.

1. هو فَوَاتِحُ يَفْتَحُ اللهُ ﷻ بِهَا الْقُرْآنَ .
2. قَسَمَ أَقْسَمَ اللهُ بِهِ، وَهُوَ مِنْ أَسْمَائِهِ.
3. أمَّا أهل العربية، فإنهم اختلفوا في معنى ذلك، فقال بعضهم: هي حروف من حُرُوفِ الْمُعْجَمِ، اسْتَعْنِيَ بِذِكْرِ مَا ذُكِرَ مِنْهَا فِي أَوَائِلِ السُّورِ عَنْ ذِكْرِ بَوَاقِيهَا، الَّتِي هِيَ تَتِمَّةُ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ حَرْفًا؛ كَمَا اسْتَعْنِيَ الْمُخْبِرُ - عَمَّنْ أَخْبَرَ عَنْهُ أَنَّهُ فِي حُرُوفِ الْمُعْجَمِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ حَرْفًا - بِذِكْرِ "أَب ت ث"، عَنْ ذِكْرِ بَوَاقِي حُرُوفِهَا الَّتِي هِيَ تَتِمَّةُ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ.
4. ابْتَدَأَتْ أَوَائِلُ السُّورِ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ لِيَفْتَحَ لِاسْتِمَاعِهِ أَسْمَاعَ الْمُشْرِكِينَ - إِذْ تَوَاصَلُوا بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْقُرْآنِ - حَتَّى إِذَا اسْتَمَعُوا لَهُ، ثَلَّى عَلَيْهِمُ الْمُؤَلِّفُ مِنْهُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوَى فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَلَبَّوْنَ﴾ [فصلت: 26]، فَأَرَادَ أَنْ يَسْمَعَهُمْ شَيْئًا لَمْ يَكُونُوا سَمِعُوهُ، لِيَحْمِلَهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْاسْتِمَاعِ حَتَّى تَلْزِمَهُمُ الْحُجَّةَ.
- لكن هذا القول فيه نظر؛ لأنه لو كان كذلك لكان هذا في كل السور؛ مع أن أكثر السور غير مبتدئ بمثل هذه الحروف؛ وأيضاً لو كان كذلك ما صارت في السور المدنية، مثل: سورة البقرة؛ لأن السور المدنية ليس فيها أحد يلغو في القرآن.⁽¹⁾
5. "علامات لأهل الكتاب أنه سينزل على محمد كتاب يفتتح بالحروف المقطعة".⁽²⁾
6. معنى "الر" أنا الله أرى، أنا الله أعلم.⁽³⁾

الراجع: إن أرجح الأقوال في الحروف المقطعة أنها لبيان إعجاز القرآن الكريم ومن الذين قالوا بهذا القول من السلف ابن كثير، والذين اتبعوه من الخلف طنطاوي وسيد قطب، ويقول الطنطاوي في تفسيره: "لعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال: إن هذه الحروف المقطعة قد وردت في افتتاح بعض السور للإشعار بأن هذا القرآن الذي تحدى الله ﷻ به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التي يعرفونها، ويقدرّون على تأليف الكلام منها، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، فذلك لبلوغه في الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة، وفضلاً عن ذلك فإن تصدير السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار

(1) ينظر: جامع البيان 1/ 205-210، والجواهر الحسان 1/ 181، وبحر العلوم 1/ 21، ولباب التأويل 1/ 23، وتفسير البيهقي 1/ 80-81، وتأويلات أهل السنة 1/ 370-372.

(2) الجواهر الحسان 1/ 181.

(3) ينظر: تفسير القرطبي 8/ 304، والنكت والعيون 2/ 420، ولباب التأويل 2/ 426، وبحر العلوم 2/ 102، والكشف

والبيان 5/ 116، وتفسير السمعاني 2/ 364، وزاد المسير 2/ 314.

المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر، لأنه يطرق أسماعهم في أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة في مجاري كلامهم، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها، فيستمعوا حكماً وحججاً قد تكون سبباً في هدايتهم واستجابتهم للحق".⁽¹⁾

ثالثاً: الحكمة من وجود الحروف المقطعة:

في وجود هذه الحروف المقطعة وأمثالها في القرآن الكريم تبييناً وإشارة إلى بيان إعجاز القرآن فإنه منظومٌ من عين ما ينظمون منه كلامهم، وأن هذا القرآن لم يأت بكلمات، أو بحروف خارجة عن نطاق البشر؛ وإنما هو من الحروف التي لا تعدو ما يتكلم به البشر؛ ومع ذلك فقد أعجزهم، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن، وأنه وحي من الله ﷻ.⁽²⁾

رابعاً: الحروف المقطعة آية:

اتفق القراء على أن (الر) ليس بآية، وعلى أن (طه) آية، وفي مقنع أبي عمرو والداني أن العاديين لـ " طه " آية هم الكوفيون فقط، ولعل الفرق أن (الر) لا تشاكل مقاطع الآي التي بعدها.⁽³⁾

خامساً: الإعراب:

اختلف في موقع إعراب الحروف المقطعة إلى عدة أقوال، هي كالتالي:

1. أسماء مدلولها حروف المعجم، ولذلك نطق بها نطق حروف المعجم، وهي موقوفة الآخر، لا يقال إنها معربة لأنها لم يدخل عليها عامل فتعرب ولا يقال إنها مبنية لعدم سبب البناء، لكن أسماء حروف المعجم قابلة لتكوين العوامل عليها فتعرب.⁽⁴⁾
2. أحرف مقطعة مبنية غير معربة، وكذلك سائر حروف الهجاء في أوائل السور.⁽⁵⁾
3. هذه الحروف المقطعة كل واحد منها اسم، لأن كل واحد منها يدل على معنى في نفسه، وهي مبنية، وفي موضع (الر) ثلاثة أوجه:
أ- الجر بحرف قسم محذوف، كما قالوا: الله ليفعلن -في لغة من جر-.

(1) التفسير الوسيط 1/ 39.

(2) ينظر: صفوة التفاسير 1/ 25، وتفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة 1/ 22-23، والتفسير المنير 1/ 73، والتفسير الميسر 1/ 2.

(3) ينظر: فتح البيان 6/ 9، وغرائب القرآن 3/ 554.

(4) البحر المحيط 1/ 56.

(5) ينظر: التفسير المنير 1/ 72، والجدول 11/ 70، وإعراب القرآن للدعاس 2/ 15.

- ب- النصب: وفيه وجهان: أحدهما على تقدير حذف القسم كما تقول الله لأفعلنّ. والناصب فعل محذوف تقديره: التزمت الله، أي اليمين به، والثاني هي مفعول به تقديره: اتل: الر.
- ج- الرفع: وفيه وجهان: على أنها مبتدأ وما بعدها الخبر كما تقول: زيد ذلك الرجل، أو تكون رفعاً على أنها خبر ابتداء مضمر، أي هذه (الر).⁽¹⁾

سادساً: القراءات:

فأمّا قوله تعالى: (الر) فيها قراءات:

1. قرأت بفتح الراء، قرأها ابن كثير.
2. قرأت بإمالة الراء، قرأها بذلك أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي.⁽²⁾

(1) ينظر: الجدول 71/11، وإعراب القرآن، الدعاس 9/1، ومحاسن التأويل 4/6.

(2) ينظر: فتح القدير 2/479، وبحر العلوم 2/102، وزاد المسير 2/314.

المطلب الثاني

إنكار العرب مهمة الرسول ﷺ

قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّيَّةَ الْكَيْبِ الْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝﴾ [يونس: 1-2].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

إنَّ الله ﷻ لما أنزل سورة، وذكر تكذيب المنافقين ثم قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ۝﴾ وهو محمد ﷺ، أتبع ذلك بذكر الكتاب الذي أنزل، والنبى الذي أرسل، وأن ديدن الضالين واحد في التكذيب بالكتب الإلهية وبمن جاء بها، ولما كان ذكر القرآن مقدماً على ذكر الرسول في آخر السورة، جاء في أول هذه السورة كذلك فتقدم ذكر الكتاب على ذكر الرسول ﷺ، وناسب أيضاً أن تجيء سورة يونس، بعد سورة التوبة، إذ كانت خاتمة التوبة أشبه بسؤال، وكان بدء يونس أشبه بجواب لهذا السؤال، أو كانت خاتمة التوبة تقريراً لحكم، وكان بدء يونس تعقيباً على هذا الحكم.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

سبب نزول الآية الكريمة ما ذكر عن ابن عباس أنه قال: " لما بعث الله ﷻ محمداً رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد" فأنزل الله ﷻ هذه الآية.⁽²⁾

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

أَيْتٌ: فيها ثلاثة أقوال:

أ. تلك آيات التوراة.

ب. أن الإشارة إلى الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل، والمعنى: هذه الأفاصيص التي تسمعونها، تلك الآيات التي وصفت في التوراة والإنجيل.

ج. الكتب التي كانت قبل القرآن، مثل الزبور.

د. الإشارة إلى الآيات التي جرى ذكرها، من القرآن.⁽³⁾

(1) ينظر: البحر المحيط 6 / 8، والتفسير القرآني للقرآن 6 / 928-929.

(2) أسباب النزول ص: 231، وجامع البيان 12 / 107، وتفسير ابن كثير 4 / 245، وتفسير القرطبي 8 / 306، والنكت والعيون 2 / 421، ولباب التأويل 2 / 427، وزاد المسير 2 / 315.

(3) ينظر: جامع البيان 12 / 105، وتفسير القرطبي 8 / 305، وفتح البيان 6 / 9، وزاد المسير 2 / 314-315، والنكت والعيون 2 / 421.

الراجح: أولى الأقوال وأرجحها صواباً القول الرابع، هذه آيات القرآن⁽¹⁾، لأن سياق الآيات يتناول الحديث عن القرآن والرسول ﷺ.

قَدَّمَ صِدْقٍ: اختلف المفسرون في معناها إلى عدة أقوال، هي:

- أ. أن لهم أجراً حسناً بما قدموا من صالح الأعمال.
- ب. صلاتهم، وصومهم، وصدقتهم، وتسبيحهم.
- ج. أن لهم سابق صدق في اللوح المحفوظ من السعادة، أي سلف صدق عند ربهم، وسبقت لهم السعادة في الذكر الأول.
- د. إن لهم الجنة عند ربهم.
- هـ. إن لهم سلف صدق تقدموهم بالإيمان.
- و. شفيع صدق، وهو محمد ﷺ يشفع لهم يوم القيامة.⁽²⁾

قد وردت معاني كثيرة في كتب التفسير، وما قمت بذكره على سبيل الذكر وليس للحصر.

الراجح: وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول من قال: معناه أن لهم أعمالاً صالحةً عند الله ﷻ تستأهلهم للثواب؛ وذلك أنه محكي عن العرب: هؤلاء أهل القدم في الإسلام؛ أي هؤلاء الذين قدموا فيه خيراً، فكان لهم فيه تقديم، ويقال: له عندي قدم صدق وقدام سوء، وذلك ما قدم إليه من خير أو شر، يُقال: فلان قدم في الشجاعة، وقدام في العلم، ويُقال: فلان وضع قدمه في كذا، إذا شرع فيه بعمله.⁽³⁾

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ تلك مبتدأ، و﴿آيَاتُ﴾ خبر، أي تلك التي جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم.

قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال لأنه تقدم على الصفة، و﴿للناس﴾ حال من عجب؛ لأن التقدير أكان عجباً للناس، وقيل: هو متعلق بكان، وقيل: هو يتعلق بـ (عجب) ويكون ذلك على التبيين.

(1) ينظر: جامع البيان 105/12، وتفسير القرطبي 8/305.

(2) ينظر: جامع البيان 107/12-111، وفتح البيان 11/6، وتأويلات أهل السنة 4/6-5، والنكت والعيون

421/2-422، وبحر العلوم 2/102-103، وزاد المسير 2/315.

(3) ينظر: جامع البيان 111/12، وتفسير السمعاني 2/365.

﴿عَجَبًا﴾: خبر كان مقدم، واسمها أَنْ أَوْحَيْنَا.

﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾: يجوز أن تكون أن مصدرية، فيكون موضعها نصباً بأوحينا، وأن تكون بمعنى أي، فلا يكون لها موضع.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ﴾: أن مفسرة وهي الواقعة بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه أو مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن.⁽¹⁾

وجملة: ﴿أَنْذِرَ النَّاسَ﴾ لا محل لها من الإعراب وهي جملة تفسيرية، وجملة واقعة في مقول القول محذوف هو في محل رفع خبر إن على معنى أن الشأن قولنا أنذر الناس.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّحْرُ مِثْنُ﴾ الجملة مستأنفة كأنه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجب، وقال الكافرون فعل وفاعل وإن واسمها وخبرها واللام المزحلقة، و(مبين) صفة لساحر والجملة واقعة في مقول القول.⁽²⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قال تعالى: ﴿الْكَذِبِ الْحَكِيمِ﴾ الْحَكِيم بمعنى مفعول، أي المحكم الذي لا يتطرق إليه الفساد ولا يعتريه الكذب ولا نقص.

ب. قال تعالى: ﴿أَنْذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بين كلمة (أَنْذِرِ، وَبَشِّرِ) طباق.⁽³⁾

ج. قال تعالى: ﴿أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ مجاز مرسل، أي سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم، وعبر عنها إذ بها يحصل السبق والوصول إلى المنازل الرفيعة، لأن العادة جارية بتقدم الساعي على قدميه، كما يُعبر عن النعمة باليد، لأن العطاء يكون بها.⁽⁴⁾

4. القراءات:

قال تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّحْرُ مِثْنُ﴾ كلمة (ساحر) فيها قراءتان، كالتالي:

أولاً: قرأ ابن كثير، وعاصم والكوفيون (ساحر) بفتح السين وألف بعدها، وكسر الحاء، اسم فاعل.

(1) ينظر: إعراب القرآن للنحاس 2/ 139-140، والتبيان 2/ 664، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 202.

(2) ينظر: الجدول 11/ 70-73، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 202، وإعراب القرآن، للدعاس 2/ 15.

(3) ينظر: التفسير المنير 11/ 96، وصفوة التفاسير 1/ 577-578.

(4) ينظر: التفسير القرآني للقرآن 6/ 931، والجدول 11/ 74، وزاد المسير 2/ 316، وصفوة التفاسير 1/ 578.

التوجيه: أن الإشارة للنبي ﷺ، وهو في الآخرين نبينا ﷺ، وفي الأولين عيسى عليه السلام، أي: قالوا: ما هو إلا ساحر ظاهر السحر.

ثانياً: قرأ الباقر بكسر السين وإسكان الحاء، ومن غير ألف.

التوجيه: أن الإشارة للمعجزة، أي: ما هذا الخارق إلا سحر ظاهر، أو بمعنى: ذو سحر. (1)

رابعاً: المعنى الإجمالي:

يقول الله ﷻ هذه علامات ودلالات القرآن الكريم، وهو المحكم لاشتماله على الحكمة إذ إنه جمع التكاليفات كلها والشرائع المصلحة للبشرية والمنظمة للعلاقات الإنسانية، وكان خليفاً بالمشركين أن يؤمنوا إذ تحداهم وأعجزهم، ولكن لم يدفعهم العجز إلى الإيمان بل دفعهم إلى الجحود والعناد، ليس لحجة عندهم بل لأنه كان غريباً لم يألفوه أو يعرفوه، ولذا قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ والاستفهام هنا لإنكار الواقع وهو بمعنى التعجب منهم، والتوبيخ والتقريع لهم على أنهم اتخذوا إرسال رجل منهم وبشراً مثلهم موضعاً للعجب، فالرسول لا يمكن أن يكون إلا رجلاً منهم فلا يصح أن يكون ملكاً من الملائكة، وكأنهم لم يعلموا أن الله ﷻ قد أوحى من قبله إلى مثله من البشر، والله ﷻ يبشر الذين آمنوا بالله ورسوله أن لهم قدم صدق؛ ﴿ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ أي أوحينا إليه بأن أنذر الناس كافة وأعلمهم بالتوحيد والبعث وسائر مقاصد الدين مع التخويف بعاقبة ما هم فيه من كفر وضلال، وبشر الذين آمنوا بما أوحينا إليك بأن لهم أعمالاً صالحة استوجبوا بها الثواب منه تعالى، ومنزلة رفيعة نالوها بصدق القول وحسن النية، فلما أتاهم بوحى الله ﷻ وتلاه عليهم، قال المنكرون توحيد الله ﷻ ورسالة رسوله ﷺ إن هذا الذي جاءنا به محمد لسحر مبين؛ أي يبين لكم عنه أنه مبطل فيما يدعيه. (2)

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

﴿ إثبات نبوة محمد ﷺ وتقريرها بالوحي ﷻ على مر العصور والأزمان:

استنكر واستكثر الكفار على أن يكون رسول الله ﷻ من البشر في بداية البعثة النبوية، وأن يتصل الله ﷻ به - عن طريق الوحي - فيكلفه هداية الناس، فأما في هذا العصر الحديث فيقيم

(1) ينظر: الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر 2/ 181، والوافي في شرح الشاطبية ص: 285-286،

وفريدة الدهر 3/ 1، وشرح طيبة النشر للنويري 2/ 292، وسراج القارئ المبتدي ص: 242.

(2) ينظر: جامع البيان 12/ 105-113، وفتح البيان 6/ 9-10، وتفسير القرطبي 8/ 305-306، وزهرة

التفاسير 7/ 3507-3508، وتفسير السمعاني 2/ 364-365، وتفسير المراغي 11/ 59-61.

بعض الناس من أنفسهم لأنفسهم شبهة أخرى لا تقل تهافتاً عن تلك! حيث إنهم يسألون: كيف يتم الاتصال بين بشر ذي طبيعة مادية وبين الله ﷻ المخالف لطبيعة كل شيء مما خلق، والذي ليس كمثلته شيء؟ وهو سؤال لا يحق لأحد أن يسأله إلا أن يكون قد أحاط علماً بحقيقة الله سبحانه وطبيعة ذاته الإلهية، كما أحاط علماً بكل خصائص الإنسان التي أودعها الله إياه، وهو ما لا يدعيه أحد يحترم عقله، ويعرف حدود هذا العقل، بل يعرف أن خصائص الإنسان القابلة للكشف ما يزال يكشف منها جديد بعد جديد، ولم يقف العلم بعد حتى يقال: إنه أدرك كل الخصائص الإنسانية القابلة للإدراك، فضلاً على أنه ستبقى وراء إدراك العلم والعقل دائماً آفاق من المجهول بعد آفاق! ففي الإنسان إذن طاقات مجهولة لا يعلمها إلا الله ﷻ، والله أعلم حيث يجعل رسالته في الإنسان ذي الطاقة التي تحملها. (1)

إنَّ الإيحاء إلى رجل من البشر ليؤدي رسالة الله ﷻ إلى الناس والبشرية أمر طبيعي ومنطقي، وهذا ليس محل تعجب واستغراب، وإنما هو موافق للحكمة والعقل والواقع الذي نعيشه، وليست مقومات اختيار الأنبياء بحسب معايير الناس ومفاهيمهم كالمال والغنى والثروة والجاه والزعامة والمكانة التي يحتلها الشخص، وإنما المعيار هو ما في علم الله ﷻ من كون النبي محمد ﷺ هو الأهل ومن الأكفاء الأجدر بتحمل أعباء الرسالة، والأوفق لتحقيق المصلحة وتبليغ الوحي إلى الناس، ومثال ذلك على واقعنا الذي نعيشه اليوم الدعاة وحاملو راية الإسلام، نجد الكثير من يستنكر بعض الدعاة، وكذلك رجال الدين.

﴿ بيان صفات أهل الكفر (الكذب والتضليل):

من عادات أهل الكفر دائماً الكذب والتضليل منذ بداية الدعوة الإسلامية حتى عصرنا الحالي حيث إننا نرى كيف يكون التحريف أو التضليل الإعلامي، وتحويل المعلومات عن مؤدائها الطبيعي ومسارها الحقيقي؛ بغرض التأثير على الرأي العام الذي لا يتحقق بسير المعلومات في اتجاهها الطبيعي؛ لذلك تلجأ شياطين وسائل الإعلام إلى التحريف والتضليل ولوي أعناق المعلومات حتى تتلاءم مع الأهداف التي وضعتها الجهات الداعمة والمسيطرة والمالكة للمؤسسات الإعلامية، والتكتم أو التعتيم، حيث تعمد إلى إخفاء المعلومات التي يؤدي نشرها إلى التعذر أو الصعوبة في تحقيق أهدافها المرسومة لها.

(1) ينظر: في ظلال القرآن 3/ 1759-1760.

المطلب الثالث

العبادة لخالق السموات والأرض

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: 3].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

عندما أخبر الله ﷻ عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة، أزال وأبطل الله ﷻ في هذه الآية الكريمة ذلك التعجب بأنه لا يستبعد البتة في أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولاً يبيشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب، وعلى الأعمال الباطلة الفاسدة بالعقاب، وهو الخالق والمدبر لهذا الكون.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: يقضي القضاء وحده، وينظر في تدبير الخلق فيختار للعبد ما هو خير له وعلى حسب مقتضى الحكمة، ويتحرى الصواب لئلا يلقاه ما يكره آخرًا.⁽²⁾

2. الإعراب:

جملة قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ صلة الموصول.

﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾: الجار والمجرور متعلقان باستوى.⁽³⁾

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: يجوز أن تكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب، وأن تكون خبر ثانٍ في محل رفع، وأن تكون حالا من اسم الجلالة الله.⁽⁴⁾

جملة: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ﴾ خبر ثالث.

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 17/ 188، وفتح القدير 2/ 481، وفتح البيان 6/ 12.

(2) ينظر: جامع البيان 15/ 19، والكشاف 2/ 328، وتفسير التستري ص: 76، وبحر العلوم 2/ 103، والكشف والبيان 5/ 118، وزاد المسير 2/ 316، والموسوعة القرآنية 10/ 47.

(3) ينظر: إعراب القرآن للدعاس 2/ 15، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 202.

(4) ينظر: التبيان 2/ 664، والمجتبى 2/ 423، وإعراب القرآن للدعاس 2/ 15، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 202-

203، والتحرير والتنوير 11/ 87.

الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ متعلقان بخبر محذوف.

جملة: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ معطوفة على جملة ﴿ذَلِكَ لَكُمْ اللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب وهي للتقريع، لا محل لها من الإعراب.⁽¹⁾

3. القراءات:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ "قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (تَذَكَّرُونَ) بالتخفيف، وقرأ الباقر بالتشديد، لأن أصله تتذكرون فأدغم إحدى التاءين في الذال وأقيم التشديد مقامه".⁽²⁾

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

يخبر الله ﷻ أنه رب العالمين، وأن له عبادة كل شيء، ولا تنبغي العبادة إلا له، هو الذي خلق السموات السبع والأرضين السبع في ستة أيام، وانفرد بخلقها بغير شريك ولا ظهير، ثم استوى على عرشه استواء يليق بعظمته وجلاله مدبراً للأمور، وقاضياً في خلقه ما أحب، لا يضاده في قضائه أحد، ولا يتعقب تدبيره مُتَعَقَّبٌ، ولا يدخل أموره خلل، ولا يشفع عنده شافع يوم القيامة من الملائكة ولا من المرسلين في أحد، إلا من بعد أن يأذن في الشفاعة لهم، وهذا دليل على العزة والكبرياء، قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ هذا من صفته، سيّدكم ومولاكم، لا من لا يسمع ولا يبصر ولا يدبر ولا يقضي من الآلهة والأوثان، فاعبدوا ربه الذي هذه صفاته، فدل أولاً على وحدانيته وتدبيره، ثم أمرهم بالتوحيد والطاعة، وإخلاص العبادة له، والإفراد له بالألوهية والربوبية، وبالذلة منهم له، دون أوثانهم وسائر ما يشركون معه في العبادة، أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الآيات والحجج، فتنتهيون إلى الإذعان بتوحيد ربه وإفراده بالعبادة، وتخلعون الأنداد وتبرؤون منها؟، وتتفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدون، هذا الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع، لأن من له أدنى تذكر وأقل اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه.⁽³⁾

(1) ينظر: المجتبى 2/ 423، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 202-203، والتحرير والتنوير 11/ 89.

(2) بحر العلوم 2/ 104.

(3) ينظر: جامع البيان 15/ 18-19، والكشاف 2/ 328، وتفسير ابن كثير 4/ 246-247، وفتح القدير 2/ 481-

482، وبحر العلوم 2/ 103-104، وتفسير البغوي 2/ 410، وتفسير العز بن عبد السلام 2/ 62، وأنوار التنزيل

3/ 104-105.

رابعاً: أهداف ومقاصد النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ تعليم العباد التأني وعدم الاستعجال:

ذُكر بأنَّ الحكمة في خَلْقِ اللَّهِ ﷻ هذه الأشياء في مُدَّةٍ محدودةٍ ممتدَّة، وهي سنةٌ أيام، وفي الفُترة أن يقول لها: كُنْ فَتَكُونِ، وهو القادر على خلق جميع العالم في أقل من لمح البصر، إنما هي لِيُعَلِّمَ عباده التَّؤدَّةَ والتَّمهَّلَ في الأمور. (1)

الإنسان بطبعه عجول يستبطن الثمرة، يريد قطفها بسرعة، وربما أدَّى به هذا إلى ترك العمل ظاناً أنه لا ثمرة منه، ودليل ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء:37]، والمسلم يحرص على التأني والتمهّل في أمره كلها، فهو لا يُهمل في عمله، وإنما يؤدي ما عليه بتأنٍّ وإخلاص وإتقان، وذلك كله حتى يخرج به على أكمل وجه، وقد قال الإمام علي رضي الله عنه: لا تطلب سرعة العمل، واطلب تجويده، فإن الناس لا يسألون في كم فرغ، وإنما ينظرون إلى إتقانه وجودته.

إنَّ التأني لا يقتصر على العمل فقط فالمسلم يخشع في عبادته، ويؤدبها بتمهّل وتأنٍّ وإتقان؛ فإن كان مصلياً صلى في خضوع وخشوع، وإن كان يدعو ربه دعاه في تضرع وتذلل، وعلى طالب العلم التأني في مذاكرته، وطلبه للعلم، وفي فهم دروسه، وتكاليفه التي يكلف بها، وذلك لكي يخرجها بأفضل وأحسن صورة، وقد قال بعض الحكماء: من تأنَّى نال ما تمنى.

كذلك الأمر في الدعوة إلى الله ﷻ، يدعو إنساناً فلا يستجيب له في البداية، فييأس منه ويتركه، وهذا ما لا يجب فعله فالداعية يجب أن يكون متأنياً متمهلاً؛ لأن الاستعجال يقود في النهاية إلى الندم.

التأني يشمل القضاء في المحاكم فيجب عليه عدم التسرع في إصدار الأحكام والقرارات، وذلك بأن يستمع لطرفي النزاع فيسمع من الثاني كما سمع من الأول فإنه أحرى أن يتبين له الحكم، وهذا للأسف ما يقع به الكثير من القضاة في عصرنا الحالي بأنهم لا يستمعوا للطرفين ولا يعطوا كل ذي حق حقه، وقد يصدر عن أحكام متسرعة تؤدي إلى هلاك الأشخاص، أو تدمير حياتهم.

إنَّ المتأنِّي المترفِّق المتلطف المتهمِّل في التعامل مع قضايا الحياة، أكثر انتصاراً في معاركها، وأقلّ بل أندر إخفاقاً في مباراتها، مهما كانت صعوبة التنافس، وبالتمهّل والتأني يكمن الانتصار وكسب كل معركة في الحياة.

(1) ينظر: التفسير المنير 11/ 105، والجواهر الحسان 3/، والمحرر الوجيز 3/ 104.

﴿التفكر في مخلوقات الله ﷻ والاستدلال بها على عظمته أعلى مراتب التفكير وأكملها﴾: (1)

إنَّ من العبادات التي هجرها الكثيرون في هذا الزمان عبادة التفكير في آيات الله ﷻ، والتأمل في نشأة خلق الكائنات على اختلاف طبائعها ووظائفها وتصنيفها وبيئتها وأشكالها سواء كانت كائنات لا ترى بالعين أو ظاهرة لنا، وكل ذلك من مخلوقات الله ﷻ الدالة على عظمته. إن هذا الهجر لمثل هذه العبادة سبب خلاً في الوعي الإسلامي، إذ أصبحت الناس تهتم بأمور هي دون عبادة التفكير في الاعتبار الشرعي والفائدة المرجوة منها.

المطلب الرابع وعد الله حق

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 4].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعدما ذكر الله ﷻ حكمه القدري وهو التدبير العام فهو خالق السماوات والأرض ومن فيهن، وبين حكمه الديني وهو شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، وأنه لم يخلقهم عبثاً، بل إنه خلقهم ليعمروا الأرض ويقوموا فيها بالأعمال، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ: فيها قولان، هما:

أ. أنه ينشئه ثم يفنيه، أي أنه يبدأ الخلق لا على مثال سبق، ثم يعيده في النشأة الأخرى على ما كان عليه.

ب. يحييه ثم يميته ثم يبيده ثم يحييه.⁽²⁾

الراجح: ما ترتضيه نفس الباحثة وتميل إليه هو الرأي الأول لما يبينه من أن بدء الشيء على غير مثال أشد من إعادته على مثال كان موجود عليه سابقاً.

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ منصوب على الحال، أي لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقاءه والمرجع الرجوع أو مكان الرجوع.⁽³⁾

قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ منصوب على المصدر بفعل دل عليه الكلام، وهو قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ لأن هذا وعد منه سبحانه بالبعث.

(1) ينظر: زهرة التفاسير 7 / 3513، وتيسير الكريم الرحمن ص: 357.

(2) ينظر: النكت والعيون 2 / 423، وتفسير القرطبي 8 / 309، والتفسير الوسيط 4 / 51.

(3) ينظر: المجتبي 2 / 423، مدارك التنزيل 7 / 7.

﴿حَقًّا﴾: مصدر آخر، تقديره حق ذلك حقاً، وكل من (وعد) و (حقاً) مصدر مؤكد. (1)

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل فيها وجهين:

أ. "أن يكون مرفوعاً بالابتداء وجملة (لهم شراب من حميم وعذاب أليم) خبره .

ب. أن يكون منصوباً عطفاً على الموصول قبله وتكون الجملة بعده مبينة لجزائهم". (2)

"جملة: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾ خبر". (3)

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: في موضع رفع صفة أخرى لعذاب ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف". (4)

3. القراءات:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، (إِنَّهُ) فيها قراءتان:

أولاً: قرأت الأمصار (إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ) ، بكسر الألف من (إنه)،

التوجيه: من قرأ بكسر الألف قرأها على الاستئناف والابتداء.

ثانياً: قرأ أبو جعفر (أَنَّه) بفتح الألف من (أنه).

التوجيه: كأنه أراد: حقاً أنه يبدأ الخلق ثم يعيده، ف "أَنَّ" حينئذ تكون رفعاً. (5)

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

أخبر الله ﷻ أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة والذي صفته ما وصفَ جل ثناؤه في الآية السابقة، ومعادكم أيها الناس، يوم القيامة جميعاً، فسيعود إليه البر والفاجر والمطيع والعاصي والمفسد والمصلح، وبعدكم الله ﷻ أن يحييكم بعد مماتكم وعداً حقاً، إن ربكم يبدأ إنشاء الخلق وإحداثه وإيجاده، ثم يعيده فيوجد حياً كهينته يوم ابتدأه، بعد فنائه وبلائه، ثم يعيده من بعد مماته كهينته قبل مماته عند بعثه من قبره، والحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم وليثيب من صدق الله ورسوله وعملوا ما أمرهم الله به من الأعمال، واجتنبوا ما نهاهم عنه، على أعمالهم الحسنة التي عملوها في الدنيا الحسن من الثواب، والصالح من الجزاء في الآخرة، أما

(1) ينظر: التبيان 2/ 665، وإعراب القرآن العظيم ص: 315، والمجتبى 2/ 423، ومعاني القرآن وإعرابه 3/ 7.

(2) فتح البيان 6/ 15.

(3) المجتبى 2/ 423.

(4) التبيان 2/ 665.

(5) ينظر: جامع البيان 15/ 21، وتفسير البغوي 4/ 121، ومعاني القرآن وإعرابه 3/ 7.

الذين كفروا فأعدَّ الله ﷻ لهم من العذاب، وذلك ليجزي كلَّ فريق بما عمل، المحسنَ منهم بالإحسان، والمسيءَ بالإساءة، حيث أنَّ للكافرين شرابٌ قد أُغلي واشتدَّ حره، ولهم مع ذلك عذابٌ موجع، سوى الشراب من الحميم، بما كانوا يكفرون بالله ﷻ ورسوله ﷺ. (1)

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

توضيح أنَّ الحكمة من البعث هي المحاسبة والمجازاة:

إذا لم يكن هناك بعث ومجازاة على الأعمال لكانت الحياة الدنيا هي نهاية المطاف، ولأمن الظالم والباغي من العقاب فعاث في الأرض فساداً، ولبلاء الفقير والمحروم المضطهد في هذه الحياة بالخسران، حيث تتحول هذه الدنيا إلى غابة موحشة يأكل فيها القوي الضعيف، دون خوف أو مبالاة إلا القليل فقد يكون بسبب القضاء، وكثيرة الطرق التي يمكن بها الاحتيال والهروب من سلطته، خاصة من كان لهم نفوذ وسلطة، والمؤمن الحق يترك ظلم الآخرين ويصبر على متاعب الحياة ومشاقها، ويتحمل ما جاءه من البلاء في طريقه وحياته وطاعته واستقامته، وكل ذلك ابتغاءً لرضوان الله ﷻ، والفوز بجنته، وهذا لا يكون إلا بعدما يبعث الله ﷻ الخلق، ويجازي الله ﷻ المؤمن على أعماله، وإذا كان هذا حال المؤمنين فإن الكفار لا يتوقعون لقاء الله ﷻ، ونتيجة لهذا يقفون عند الحياة الدنيا بما فيها من نقص وهبوط، ويرضونها ويستغرقون فيها، فهم ينكرون النقص فيها، ولا يدركون أنها لا تصلح أن تكون نهاية للبشر، وأن الدنيا ليست النهاية؛ لأن البشرية لم تبلغ فيها كمالها المنشود، فهؤلاء جزاؤهم النار، وفي حديث وقول خير البشرية محمد ﷺ عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ". (2)

(1) ينظر: جامع البيان 20/15-21، وتفسير ابن كثير 4/248، وتفسير البغوي 4/121، ومدارك التنزيل 7/2،

وتيسير الكريم الرحمن ص: 357، وزهرة التفاسير 7/3514-3516.

(2) صحيح مسلم 4/2162، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، حديث رقم:

2807.

المطلب الخامس

إثبات القدرة الإلهية في السنن الكونية

قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِزَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ ﴿٦﴾ [يونس: 5-6].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن ذكر الله ﷻ الآيات الدالة على وجوده، وقرر ربوبيته وإلهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته وهو خلق السموات والأرض على ذلك النظام المحكم ذكر في هذه الآيات الكريمة أنواعاً من آياته الكونية الدالة على ذلك وعلى أنه خلقها على غاية من الإحكام والإتقان، وهو تفصيل لما تقدم وبيان له على وجه بديع وأسلوب عجيب.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

ذكر في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي آخِزَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ ﴿٥﴾﴾ أن أهل مكة قالوا للنبي ﷺ: ائتنا بعلامة وآية كما أنت بها الأنبياء قومهم، فردهم إلى تأمل مصنوعاته والنظر فيها فنزلت الآية الكريمة.⁽²⁾

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

وَقَدَرَهُ: (الهاء) فيها قولان:

أ. القَمَرَ خاصة، لأنه المقَدَّرُ لِعِلْمِ السِّنِّينَ والحساب.

ب. يجوز أن يكون المعنى وقَدَرَهُما منازل فحذف أحدهما عن الآخر اختصاراً وإيجازاً⁽³⁾،

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: 62].

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 17 / 207، وتفسير المراغي 11 / 67، وتيسير الكريم الرحمن ص: 358.

(2) ينظر: تفسير القرطبي 8 / 311، وبحر العلوم 2 / 105.

(3) ينظر: جامع البيان 15 / 23، ومعاني القرآن 3 / 7، والكشف 5 / 120، ومفاتيح الغيب 17 / 208، وزاد

المسير 2 / 317، والجواهر الحسان 3 / 236، والتفسير المنير 11 / 109، وتفسير البغوي 2 / 410.

الشَّمْسُ ضِيَاءٌ وَالْقَمَرُ نُورًا : (الضوء والنور): بمعنى واحد لغة، والضوء أقوى من النور استعمالاً، وقيل الضوء لما كان من ذاته كالشمس والنار، وهو ينبعث من جسم مشع له، بفعل الحرارة التّأريّة المتوقّدة في هذا الجسد، والنور وهو الشعاع لما كان مكتسباً من غيره.⁽¹⁾

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾: مفعولان؛ ويجوز أن يكون (ضياء) حالاً.⁽²⁾

قوله تعالى: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾: حذف حرف الجر، أي وقدر له. وقيل التقدير: قدره ذا منازل، و(قدر) فيها عدة وجوه:

أ. متعدية إلى مفعولين؛ لأن معناه جعل وصير.

ب. يجوز أن يكون قدر متعدياً إلى مفعول واحد بمعنى خلق، وهو الهاء ومنازل حال أي متقللاً.⁽³⁾

جملة: ﴿يَفْصَلُ الْآيَاتِ﴾ في محلّ نصب حال من لفظ الجلالة.

جملة: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في محلّ جرّ صفة لقوم.

جملة: ﴿يَتَّقُونَ﴾ في محلّ جرّ صفة لقوم.⁽⁴⁾

3. الجوانب البلاغية:

يقول ابن عاشور في تفسيره: "أن المنازل: جمع منزل وهو مكان النزول. والمراد بها هنا المواقع التي يظهر القمر في جهتها كل ليلة من الشهر. وهي ثمان وعشرون منزلة على عدد ليالي الشهر القمري، وإطلاق اسم المنازل عليها مجاز بالمشابهة وإنما هي سموت يلوح للناس القمر كل ليلة في سمت منها، كأنه ينزل بها، وقد رصدها البشر فوجدوها لا تختلف".⁽⁵⁾

(1) ينظر: تفسير المراغي/11/66-67، والتفسير القرآني للقرآن/6/959، والتحرير والتنوير/11/94، والتفسير المنير/11/109.

(2) ينظر: إعراب القرآن، النحاس/2/140، والجدول/11/78، والتبيان/2/665، وإعراب القرآن، الدعاس/2/16، والتفسير المنير/11/109.

(3) ينظر: التبيان/2/666، وإعراب القرآن وبيانه/4/208.

(4) ينظر: الجدول/11/79-81، والمجتبى/2/424، وإعراب القرآن للدعاس/2/16، وإعراب القرآن وبيانه/4/209.

(5) التحرير والتنوير/11/95.

4. القراءات:

أ. قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾، كلمة ﴿ضِيَاءً﴾ فيها قراءات، هي كالتالي:

أولاً: قرأ الأكثرون: ضياءً بهمزة واحدة.

ثانياً: قرأ ابن كثير: ضياءً بهمزتين بينهما ألف على القلب، ولا وجه له لأن ياءه كانت واواً مفتوحة، وهي عين الفعل أصله ضواء فسكنت وجعلت ياء كما جعلت في الصيام والقيام⁽¹⁾.

ب. قوله تعالى: ﴿يَفْصِلُ﴾ فيها قراءتان على النحو الآتي:

أولاً: قرأت بالياء، وهي قراءة ابن كثير، أبي عمرو، حفص، ويعقوب.

ثانياً: قرأت بالنون، وهي قراءة باقي السبعة.

التوجيه: من قرأ بالياء قرأها جرياً على لفظه، ومن قرأ بالنون قرأها على سبيل الالتفات⁽²⁾.

5. الاشارات العلمية:

كشفت هذه الآية الكريمة عن حقائق لم تكن معروفة للناس قبل نزولها، وهي أن الشمس نجم تتبعث منه حرارة وضوء كما هو شأن سائر النجوم التي هي أجرام ملتهبة ومضيئة في آن واحد، وأن القمر كوكب أي جسم بارد مظلم يستمد ضوءه وحرارته من الشمس، وأن القمر يتحرك في مداره مرة في كل شهر بتوقيت دقيق يعرف منه عدد الايام وحسابها في الشهور والأعوام فلولا هذه الحركة المنتظمة ما عرف الانسان وقته ولا كيف يحسب الشهور والأعوام⁽³⁾.

رابعاً: المعنى الإجمالي:

إن ربكم الله ﷻ الذي خلق السموات والأرض هو الذي أضاء الشمس وأثار القمر وقضاه فسواه منازل، لا يجاوزها ولا يقصر دونها، على حالٍ واحدةٍ أبداً، وقدره منازل، فوحدّه، وقد ذكر الشمس، والقمر، وقدر ذلك منازل لتعلموا أنتم أيها الناس دخول ما يدخل منها، أو انقضاء ما يستقبل منها، وحساب أوقات السنين، وعدد شهورها، وحساب ساعات أيامها، ولياليها، وهذا كله رفقا بكم ورفعا للالتباس في معاشكم وتجاراتكم وإيجاراتكم، وغير ذلك مما يضطر فيه إلى معرفة التواريخ، وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي للفائدة لا للعب والإهمال، وخلقها وحده، بغير عون ولا شريك، ويبين الحجج والأدلة لقوم يعلمون إذا تدبروها، ويعرفون حقيقة وحدانية الله

(1) ينظر: الكشف 2/ 329، وفتح القدير 2/ 483، وزاد المسير 2/ 317، والكشف 5/ 119-120، ومفاتيح

الغيب 17/ 208، وأنوار التنزيل 3/ 105.

(2) ينظر: فتح القدير 2/ 484، والموسوعة القرآنية 5/ 302.

(3) القرآن وإعجازه العلمي ص: 79.

ﷺ، وصحة ما يدعوهم إليه محمد ﷺ، من خلع الأنداد، والبراءة من الأوثان، ونبه الله ﷻ عباده على موضع الدلالة على ربوبيته، وأنه خالق كل ما دونه، وإن في اعتقاب الليل النهار، واعتقاب النهار الليل، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، وفيما خلق الله ﷻ في السموات من الشمس والقمر والنجوم، وفي الأرض من عجائب الخلق الدالة على أن لها صانعاً ليس كمثلها شيء، لأدلة وحججاً وأعلاماً واضحة للقوم فيخافون وعيد الله ﷻ ويخشون عقابه على إخلاص العبادة لربهم، ولقوم يتقون الشرك، وخصّ المتقين لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر، ولأنهم هم الذين يبصرون ذلك حقاً، ويشاهدونه لصفاء أرواحهم وطهارة قلوبهم ونفوسهم أما أهل الشرك والمعاصي فهم في ظلمة لا يشاهدون معها شيئاً والعياذ بالله.⁽¹⁾

خامساً: مقاصد وأهداف النص

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ تعلم الحساب وعلم الفلك وما هو نافع للمسلمين:

الآيات الكريمة تؤكد على ضرورة وجود علماء متخصصين في علوم الفلك ودورته، والحساب القائم على الرياضيات، حيث أن مثل هذه العلوم لا يمكن لكل الناس إتقانها، ولا بد من وجود قوم يتعلمونها بالبحث والمتابعة، ويدرسونها لمن أراد الاستزادة منها، وقد كان العرب الأوائل من السبّاقين إلى العناية بالموافيت، وضبط الزمن من خلال ملاحظاتهم الفلكية، ذلك لما تيسر لهم من صفاء الذهن، وتوقّد خاطر، الذي صقلته لهم الطبيعة الصحراوية، التي كانوا يعيشون في أحضانها، ثم أتى بعدهم العلماء في الحضارتين الإسلامية والأوربية ليستعملوا المرصد الفلكية، وليتوسّعوا في دراسة علم الفلك، حيث تبين لهم أن نظام الكواكب يجري في دقة متناهية، وتمكّنوا من رصده بدقة شديدة، وعناية فائقة.

الواجب اليوم وفي العصر الحالي يقتضي من علماء وفقهاء المسلمين أن يتابعوا جهود أولئك العلماء، ويواصلوا أبحاثهم، ويستفيدوا من دقة توقيت الأهلة، في إصدار توقيت قمري سنوي، يجري اعتماده بشكل رسمي من قبل سائر الدول الإسلامية، ويتم من خلاله تحديد مسبق لبداية شهر رمضان وانتهائه، حتى لا يحدث لبس عند الناس، وكذلك موعد الوقوف في عرفة، وهذا كله ممكن عندما نهجر أميّننا، ونغدو متعلمين، ونواكب التقنيات الحديثة ونحسن الاستفادة منها، ولن يكون بعدها أي اختلاف في تعداد أيام شهر رمضان، أو أي اختلاف بين الدول الإسلامية في توقيت بداية صومهم ونهايته، وتحديد يوم الوقوف بعرفات، وأيام أعيادهم، مسبقاً

(1) ينظر: جامع البيان 15 / 23-24، والكشاف 2 / 329، وتفسير ابن كثير 4 / 248-249، وبحر العلوم 2 /

105، والمحرم الوجيز 3 / 106، وأنوار التنزيل 3 / 105، وأيسر التفاسير 2 / 449.

ودون مفاجآت تتعلّق بالغيوم والظواهر الطبيعية وغيرها التي يمكننا تجنبها خاصة ما نمر به من كوارث طبيعية من حين لآخر في عصرنا الحالي⁽¹⁾، وإن كان مثل ذلك من أمور يستهان بها، لكن لها أثر كبير في وحدة الأمة الإسلامية، والتحام صفوفها، وقوة كلمتها.

◀ بيان فضل العلم والتقوى:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:102]، والتقوى هو من أكرم عباد الله ﷺ على الله، وسيدنا محمد ﷺ كان أكرم الخلق على الله ﷻ، لأنه أتقاهم الله وأحشاهم له فيجب أن نتحلى بخلق نبينا ﷺ، وأن نتقي الله ﷻ في جميع أمور حياتنا في كل نظرة وكلمة، في الكلام وفي الصمت قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:2]، والتقوى هي البداية الصحيحة في طلب العلم، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282]، ويجب على طالب العلم تقوى الله ﷻ، وإن من دلائل التقوى البعد عن الذنوب ومقدماتها والحذر من أسبابها ودواعيها، لأن الذنوب أصل كل بلاء وهي مفتاح الشرور وعواقبها على النفس، وعلى العلم الذي تحمل لا تحصى، قال عبد الله بن مسعود: "إِنِّي لِأَحْسَبُ الرَّجُلَ يَنْسَى الْعِلْمَ بِالْخَطِيئَةِ يَعْمَلُهَا"⁽²⁾، فيجب تلازم التقوى في كل حياتنا، والقيام بما أوجب الله ﷻ علينا من الفرائض، ثم مجاهدة النفس على أن ترتقي إلى القيام بالنوافل، ثم الاستمرار حتى تصل إلى المراتب العالية في العبادة كالورع واليقين والرضا، وتقوى الله ﷻ.

(1) ينظر: القرآن منهاج حياة ص: 816-817.

(2) جامع بيان العلم وفضله 1/ 691.

المطلب السادس

المؤمن والكافر وعاقبة كل منهما

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾
 أُولَئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ
 بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَاخِرُ
 دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ [يونس: 7-10].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

بعدما أقام الله ﷻ الدلائل القاهرة على صحة القول بإثبات الإله الرحيم الحكيم ووجوده، وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر، وأثبت بذلك البعث والجزاء على الأعمال يوم العرض والحساب شرع بعده في شرح أحوال من يكفر بها، وأعرض عن البيئات الدالة عليه، وفي شرح أحوال من يؤمن بها وموقنين بلقاء ربهم، ثم أوضح جزاء كل من الفريقين.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾: لها معنيان، هما:

أ. لا يخافون عقاباً.

ب. لا يطمعون في ثوابنا، ولا يرغبون فيما يرجى ويطمع من الرغائب.⁽²⁾

الراجح: ما تميل إليه نفس الباحثة بأن المقصود به المعنيين لأن الذي لا يخاف لا يمكن أن يطمع بالثواب، وفيما عند الله ﷻ.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾: فيه أربعة أوجه:

أ. يجعل لهم نوراً يمشون به.

ب. يجعل عملهم هادياً بالنور لهم إلى الجنة.

ج. أنه وصفهم بالهداية على طريق المدح لهم.

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 17/ 210، وتفسير المراغي 11/ 70، والتفسير المنير 11/ 113.

(2) فتح البيان 6/ 19، وتفسير القرطبي 8/ 311، وفتح القدير 2/ 485، وتأويلات أهل السنة 6/ 12، وإعراب

القرآن وبيانه 4/ 210، والنكت والعيون 2/ 423.

د. يرحمهم، ويثيبهم ويجزيهم. (1)

وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ: فيها ثلاثة أقوال:

أ. يحيي بعضهم بعضاً بالسلام.

ب. تحية الملائكة إياهم وأضيف المصدر إلى المفعول.

ج. تحية الله ﷻ لهم. (2)

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

المصدر المؤول: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في محل جرّ بالباء متعلق بفعل محذوف دلّ عليه الكلام أي عوقبوا بما كانوا. (3)

جملة: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ في محل رفع خبر (إن).

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ يجوز أن يتعلق بتجري، وأن يكون حالاً من الأنهار، وأن يكون متعلقاً بيهدي، وأن يكون حالاً من ضمير المفعول في يهدي، وأن يكون خبر ثانٍ لـ (إن)، لذكر ما يحصل لهم من النعيم في الآخرة بسبب هدايتهم الحاصلة لهم في الدنيا. (4)

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ خبر أو حال آخر منه أو من الأنهار، أو متعلق بتجري أو بيهدي.

﴿سُبْحَانَكَ﴾: نائب مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: نسبح، وجملة: (نسبح سبحانك) خبر (دعواهم)، وجملة: ﴿اللَّهُمَّ﴾ معترضة بين المتعاطفين لا محل لها من الإعراب، وهي جملة دعائية. (5)

(1) ينظر: جامع البيان 15/ 28، والنكت والعيون 2/ 423-424، وتفسير القرطبي 8/ 312، والكشف 5/ 120-

121، وتفسير السمعاني 2/ 368، وتفسير البغوي 2/ 411، وزاد المسير 2/ 318.

(2) ينظر: الكشاف 2/ 331، ومدارك التنزيل 2/ 9، وزاد المسير 2/ 318، والبحر المحيط 6/ 17، والموسوعة القرآنية 10/ 50.

(3) ينظر: الجدول 11/ 82، وإعراب القرآن للدعاس 2/ 17.

(4) ينظر: المجتبي 2/ 425، والتبيان 2/ 666، والتحرير والتنوير 11/ 102.

(5) ينظر: المجتبي 2/ 425، والجدول 11/ 84، إعراب القرآن للدعاس 2/ 17، التفسير المنير 11/ 113.

جملة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في محلّ رفع خبر أن المخففة، المصدر المؤول من أن المخففة واسمها وخبرها في قوله تعالى: ﴿أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في محلّ رفع خبر المبتدأ (آخر).⁽¹⁾

3. الجوانب البلاغية:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، فيه التفات، مع الإضافة إلى ضمير الجلالة لتعظيم الأمر وتهويله.⁽²⁾

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

شرح الله ﷻ في شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد، والذين لا يخافون لقاء الله ﷻ يوم القيامة ولا يتوقعونه، ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم، فهم لذلك مكذبون بالثواب والعقاب، متنافسون في زين الدنيا وزخارفها، راضون بها عوضاً من الآخرة، مطمئنين إليها ساكنين والذين هم عن آيات الله ﷻ وهي أدلته على وحدانيته، وحججه على عباده، في إخلاص العبادة له معرضون عنها لاهون، لا يتأملونها تأمل ناصح لنفسه، فيعلموا بها حقيقة ما دلّتهم عليه، ويعرفوا بها بطول ما هم عليه مقيمون، هؤلاء الذين هذه صفتهم مصيرهم إلى نار جهنم في الآخرة، وذلك بما كانوا يكسبون في الدنيا من الآثام والأجرام، ويجترحون من السيئات.

ثم أنزل فيما أعدّ الله ﷻ للمؤمنين وصدّقوا بالله ورسوله، وذلك بالعمل وطاعة الله والانتهاز إلى أمره، يرشدهم ربهم بإيمانهم به إلى الجنة، ويخبر الله ﷻ بأن تجري من تحت هؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه صفتهم، أنهار الجنة في بساتين النعيم، الذي نعم الله به أهل طاعته والإيمان به، ودعاؤهم فيها: سبحانك اللهم، وتحية بعضهم بعضاً ﴿فِيهَا سَلَامٌ﴾، فهذه علامة بينهم وبين خدمهم في الجنة، فإذا قالوا هذه المقالة جاءهم الخدم بالموائد ووضعوها بين أيديهم وأوتوا بما يشتهون، أي: سلّمت وأمنت مما ابتلي به أهل النار، وآخر قولهم: ﴿أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيكون ابتداء أمرهم بالتسبيح، وانتهاء أمرهم بالحمد والشكر، وهذا فيه دلالة على أن الله ﷻ هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، والمحمود في الأول والآخر، في الحياة الدنيا والآخرة، وفي جميع الأحوال.⁽³⁾

(1) الجدول 11 / 84.

(2) ينظر: التفسير المنير 11 / 113، وصفوة التفاسير 1 / 578.

(3) ينظر: جامع البيان 15 / 25-33، والكشاف 2 / 330، وتفسير ابن كثير 4 / 250-251، وفتح القدير 2 /

485، وبحر العلوم 2 / 105-106، وتفسير السمعاني 2 / 368، والموسوعة القرآنية 10 / 49-50.

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ "تسيان الآخرة والإقبال على الدنيا والاطمئنان بها":⁽¹⁾

التحذير من اللهات وراء الدنيا ونسيان الآخرة أمرٌ يغفل عنه الكثير من الناس على مر الأزمان والعصور، وعجباً لمن يلهث خلف دنيا يجمعها من حل ومن حرام، ويضيع نصيبه من الآخرة، أما علم أنها لو حيزت له بحذافيرها فإنما هي سجن المؤمن، وما هي إلا ممر للآخرة ومصدافاً لذلك من الأحاديث النبوية الشريفة، عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبَانَ بْنِ عُمَانَ بْنِ عَفَّانَ، يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: خَرَجَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنْ عِنْدِ مَرْوَانَ بْنِصَفِ النَّهَارِ، قُلْتُ: مَا بَعَثَ إِلَيْهِ هَذِهِ السَّاعَةَ إِلَّا لِشَيْءٍ يَسْأَلُ عَنْهُ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: سَأَلْنَا عَنْ أَشْيَاءَ سَمِعْنَاها مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَفَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَرْقَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ".⁽²⁾

الدنيا بما تحتويه من فتن ومال وشهوات وتقدمات حضارية وتكنولوجية عائق من المعوقات التي تعوق المسلم عن فعل الصالحات والطاعات، فهي تشغل المسلم بما جبلت عليه عن القيام بهذه الأعمال أو الإكثار منها، فزينة المال والحرص عليه، وعلى جمعه وتحصيله يمنع الإنسان عن فعل كثير من الخيرات من إنفاق وصدقة، وكذلك زينة الولد فهي مجبنة مبخلة، والمرأة فهي من متاع الحياة الدنيا، وما في الدنيا من الأمتعة والشهوات التي لا نكاد أن نحصيها، ويكثر عدها، والدنيا تعوق عن العمل الصالح وتصده عنه، فهي رأس الفتنة، وباب كل شر، فالخير له مفاتيح والشر كذلك، والدنيا مفتاح من مفاتيح الخير، وهي مفتاح عظيم من مفاتيح الشر؛ بما جبلت عليه من الشهوات والملذات، نسأل الله السلامة والعافية.

◀ تلقين العباد تحية الإسلام:

قد شرع الله ﷻ لنا تحية تميزنا عن غيرنا، ويترتب على فعلها الثواب والأجر العظيم لكل من يلقي التحية، والأجر المضاعف لمن يرد عليها، وجعلها من حقوق المسلم على أخيه، لكنها تحولت من سنة إلى عادة من العادات لا يدرك معظم الناس مكانتها عند الله ﷻ، فلا يصح أن تبدل هذه التحية العظيمة بعبارات أخرى لا تؤدي ما تؤديه تحية الإسلام المباركة، مثل: صباح الخير، أو مساء الخير، أو مرحباً، أو غير ذلك من العبارات التي ما أنزل الله ﷻ بها من

(1) أيسر التفاسير 2/ 451.

(2) سنن ابن ماجه 2/ 1375، كتاب: الزهد، باب: الهم بالدنيا، حديث رقم: 4105، [حكم الألباني: صحيح].

سلطان، مما قد يستعمله بعض الناس جهلاً أو إغراضاً عن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وما كل ذلك إلا سياسة وغزو فكري لإبعاد الشاب المسلم عن تعاليم دينه.

إنَّ الأمر لا يقتصر على المأكل والمشرب والتحية بين العباد فقط، كذلك يستحب للداعي والمتضرع إلى الله ﷻ أن يقول في آخر دعائه أن يحمده الله ﷻ، كما قال أهل الجنة: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

المبحث الثاني

المقاصد والأهداف لسورة يونس

من الآية (11-18) سنن الله في الاستخلاف

وموقف الناس منه

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: استعجال الإنسان الخير دائماً.

المطلب الثاني: أحوال البشر في الدعاء عند مسهم الضر.

المطلب الثالث: سنة الله في إهلاك الأمم الظالمة والكافرة، واستخلاف خلائف بعدهم.

المطلب الرابع: مطالبة المشركين الرسول ﷺ بقرآن آخر أو تبديل بعض آياته.

المطلب الخامس: عبادة المشركين للأصنام وادعاء شفاعتها.

المطلب الأول

استعجال الإنسان الخير دائماً

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنذُرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: 11].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن ذكر الله ﷻ تعجب الناس من إحياء الله ﷻ إلى رجل منهم وهو محمد ﷺ بالنبوة، ذكر الله ﷻ أدلة التوحيد والبعث، وأبان في هذه الآية الكريمة الجواب عن قول كانوا يقولونه: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً في ادعاء الرسالة، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، ومضمون الجواب: أنه لا مصلحة لهم في استعجالهم الشر وإلا ماتوا وهلكوا.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

سبب نزول الآية الكريمة ما ذكر أنه حين تمنى النضر بن الحارث السهمي العذاب فقال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فيصيبنا، فأنزل الله ﷻ الآية الكريمة إذا أرادوه فأصابوه.⁽²⁾

يقول عبد الكريم يونس الخطيب: "هذه الآية غير مقيدة بأسباب نزولها، بل هي مطلقة، حيث يقع تحت حكمها الناس جميعاً، فقد كان من رحمة الله بالناس أن أمهلهم، فلم يعجل لهم".⁽³⁾

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ وفي المراد بالآية قولان:

أ. التعجيل هنا للناس عامة مسلمهم وكافرهم.

ب. تعجيل الله ﷻ للكافرين العذاب على كفرهم.⁽⁴⁾

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 17 / 218، والتفسير المنير 11 / 119، والبحر المحيط 6 / 19.

(2) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان 2 / 229، والمحزر الوجيز 3 / 108، وبحر العلوم 2 / 106، وتفسير البغوي 2 /

412، وزاد المسير 2 / 319، ولباب التأويل 2 / 430.

(3) التفسير القرآني للقرآن 6 / 966.

(4) ينظر: فتح القدير 2 / 487، والنكت والعيون 2 / 425، وزاد المسير 2 / 319.

الراجح: ما تراه الباحثة أنّ المقصود بالآية هم الناس غير مخصصة بالكافرين فقط، لأن سياق الآيات تتحدث عنهم، ولأن الاستعجال من صفات بني آدم.

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿الشَّرَّ﴾ مفعول به ليعجل.

﴿أَسْتَعْجَلَهُمْ﴾: تقديره استعجالاً مثل استعجالهم؛ فحذف المصدر وصفته المضافة، وأقام المضاف إليه مقامهما، وقال بعضهم: هو منصوب على تقدير حذف حرف الجر؛ أي كاستعجالهم، وهو بعيد.⁽¹⁾

﴿فَنَذَرُ﴾: معطوف على فعل محذوف، تقديره: ولكن نمهلهم فنذر؛ ولا يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿يُعَجِّلُ﴾، إذ لو كان كذلك لدخل في الامتناع الذي تقتضيه (لو) وليس كذلك؛ لأن التعجيل لم يقع، وتركهم في طغيانهم وقع.⁽²⁾

جملة قوله تعالى: ﴿لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وهي جواب شرط غير جازم.

جملة: ﴿يَعْمَهُوتُ﴾ في محل نصب حال من الواو في (يرجون).⁽³⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ فَذَرُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوتُ﴾ فيه تنكيت: أصله (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ) تعجيله لهم الخير، فوضع ﴿أَسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ موضع تعجيله لهم الخير اشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم.⁽⁴⁾

ب. قوله تعالى: ﴿الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أي كاستعجالهم بالخير ففيه تشبيه مؤكد مجمل، وبين (الشَّرَّ) و(الخَيْرِ) طباق.⁽⁵⁾

4. القراءات:

قال تعالى: ﴿لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ﴾، اختلف القراء في قراءتها على النحو الآتي:

- (1) ينظر: التبيان 2/ 667، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 212، التفسير المنير 11/ 119، الجدول 11/ 86.
- (2) ينظر: المجتبي 2/ 426، والجدول 11/ 86، والتبيان 2/ 667.
- (3) ينظر: الجدول 11/ 86-87، والمجتبي 2/ 426، وإعراب القرآن للدعاس 2/ 18.
- (4) ينظر: الجدول 11/ 87، والتفسير المنير 11/ 119.
- (5) التفسير المنير 11/ 119، وصفوة التفاسير 1/ 578.

أولاً: قرأ ذلك عامة قراء الحجاز والعراق: ﴿لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ﴾، على وجه ما لم يسم فاعله، بضم القاف من (قضي)، ورفع (الأجل).

التوجيه: تأتي هنا بمعنى: لفرغ من هلاكهم وماتوا جميعاً.

ثانياً: قرأ عامة أهل الشام: (لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ)، بالنصب.

التوجيه: تأتي بمعنى: لقضى الله ﷻ إليهم أجلهم.⁽¹⁾

قال أبو جعفر: "وهما قراءتان متفقتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، غير أني أقرؤه على وجه ما لم يسم فاعله، لأن عليه أكثر القراء."⁽²⁾

رابعاً: المعنى الإجمالي:

يخبر الله ﷻ عن حلمه ولطفه بعباده أنه لو يعجل للناس إجابة دعائهم في الشر، عند غيظهم وضجرهم وغضبهم لعجلنا إهلاكهم، وذلك فيما عليهم مضرة في نفس أو مال كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به لهلكوا، وعجل لهم الموت، وهو الأجل لفرغ إليهم من أجلهم، ولأهلك من دعا عليه ولأماته، وذلك بالدعاء على نفسه وولده وعلى صاحبه مثل: أذكرك الله، ولعنك الله، كما يعجل لهم الخير إذا دعوه بالرحمة والرزق والعافية، فندع الذين لا يخافون عقابنا، ولا يوقنون بالبعث ولا بالنشور في تمردهم وعتوهم وحيرتهم يترددون، وهم أهل الشرك، وكل ذلك مجازة لهم.⁽³⁾

خامساً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ بيان حكمة الله ﷻ ولطفه في استجابته لأدعية عباده:

هناك صور تتكرر في حياتنا اليومية، تكشف خفايا النفس الإنسانية، التي لم تستكمل إيمانها الخالص بالله ﷻ، فبعض الناس يريدون أن يمسكوا بزمام القضاء والقدر فيجعلوه يأتهم بأمرهم، ويغدق عليهم الخير متى أرادوا، ويتنزل بالشر على أعدائهم متى شاءوا، وكأنهم بذلك يتألهون على الله ﷻ، ويجعلون أنفسهم أصحاب القرار من دونه! ولكنهم بهذا التفكير المريض

(1) ينظر: بحر العلوم 2/ 106، وتفسير البغوي 2/ 412، والمحزر الوجيز 3/ 108، وزاد المسير 2/ 319، والموسوعة القرآنية 5/ 302.

(2) جامع البيان 15/ 36.

(3) ينظر: جامع البيان 15/ 33-34، تفسير ابن كثير 4/ 251-252، وتفسير مقاتل بن سليمان 2/ 229، ولطائف الإشارات 2/ 82-83، وتفسير المراعي 11/ 73-74.

يتخبطون في دياجير الضلال والطغيان، ممّا يجعلهم متسرّعين في اتّخاذ القرارات، فهم يستعجلون في طلب الخير، كما يستعجلون في طلب دفع الشر، وقد فُطر الإنسان على العجلة كما بيّن القرآن الكريم ذلك حين قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: 37]، وما استعجاله الخير إلا لشدة حرصه على المنافع، أمّا استعجاله الضرّ فلقلة صبره على المحن والخطوب، وكثرة الانفعالات التي تعتمل في صدره، كالغضب أو الجهل أو العناد أو غير ذلك، فقد يدعو الإنسان على نفسه أو ماله أو ولده حين الغضب أو اليأس، ولكنّ الله ﷻ قوانينه التي تغاير انفعالات البشر، فهو الحليم، المتجاوز عن السيئات، وهو الربُّ الرحيم الذي يعرف أين تكمن مصلحة عباده، ولو أنه استجاب لدعائهم لأهلكهم⁽¹⁾، وما ورد في السنة النبوية الشريفة، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ بَطْنِ بُوَاطٍ، وَهُوَ يَطْلُبُ الْمَجْدِيَّ بْنَ عَمْرٍو الْجُهَنِيِّ، وَكَانَ النَّاضِحُ يَعْتَبِيهِ مِنَّا الْخَمْسَةُ وَالسَّبْعَةُ، فَدَارَتْ عُقْبَةُ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى نَاضِحٍ لَهُ، فَأَنَاحَهُ فَرَكِبَهُ، ثُمَّ بَعَثَهُ فَنَلَدَنَ عَلَيْهِ بَعْضَ النَّلْدُنِ، فَقَالَ لَهُ: شَأْنُ لَعَنَكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ هَذَا اللَّاعِنُ بَعِيرُهُ؟ قَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: انزِلْ عَنْهُ، فَلَا تَصْحَبْنَا بِمَلْعُونٍ، "لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُؤَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ".⁽²⁾

التعجيل في طلب الشرّ من قبل الإنسان لم يقتصر على زمن الأنبياء السابقين، وزمن رسولنا محمد ﷺ، ولكن تعداه أيضاً إلى عصرنا الحالي الذي نعيش فيه فنحن نرى اليوم كيف لكل من ضاقت عليه الدنيا يدعو على نفسه، متناسياً بأنه كلما ضاقت حلقاتها فرجت بإذن الله ﷻ، فعن أنس بن مالك ﷺ، قال النبي ﷺ: "لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ مِنْ ضُرِّ أَصَابِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَأَعْلًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي".⁽³⁾

"الواجب على المسلم أن يحذر تمام الحذر ولا سيما حال غضبه وتضجره من أن يدعو على نفسه أو ماله أو ولده باللعنة أو العذاب أو النار أو نحو ذلك مما لا يسره تحقُّقه، وذلك أنّ

(1) ينظر: القرآن منهاج حياة ص: 313.

(2) صحيح مسلم 8 / 233، كتاب: الزهد والرفائق، باب: حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، حديث رقم: 3009.

(3) صحيح البخاري 7 / 121، كتاب: المرضى، باب: تمنى المريض الموت، رقم الحديث: 5671.

مقصود الدعاء جلبُ النفع ودفعُ الضرِّ، وأما الدعاءُ على النفس أو المال أو الولد فليس فيه أيُّ منفعة، بل هو ضررٌ محضٌ ووبالٌ وهلاكٌ⁽¹⁾.

◀ الحذر من الدعاء على الأبناء عند موافقة القدر:

يجب أن نحذر من الدعاء وخاصة الأمهات والآباء على أبنائهم من الدعوات في أوقات الاستجابة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ"⁽²⁾، ولكن من فضل الله صلى الله عليه وسلم، ورحمته وحلمه بعباده أن الدعاء الذي يصدر بغير قصد حال الغضب والضجر لا يستجاب، ولأنه يعلم عدم القصد وإرادة خلاف الذي يدعون به ذلك، ولكن يجب على الأبناء الحذر من إغضاب والديهم والحرص على برهما وطاعتهما في المعروف لأنه قد توافقت الدعوة ساعة استجابة فتُجاب الدعوة.

(1) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص: 32.

(2) سنن الترمذي 4 / 314، أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في دعوة الوالدين، حديث رقم: 1905، [حكم الألباني: حسن].

المطلب الثاني

أحوال البشرية في الدعاء عند مسهم الضر

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

تتناسب الآية الكريمة مع سابقتها من الآيات من عدة جوانب، كالاتي:

1. بيّن الله ﷻ في الآية السابقة أنه لو أنزل العذاب على العبد في الدنيا لهلك ولقضي عليه، فبين في هذه الآية ما يدل على غاية ضعفه ونهاية عجزه، ليكون ذلك مؤكداً لما ذكره من أنه لو أنزل عليه العذاب لمات.

2. أن الله ﷻ حكى عنهم أنهم يستعجلون في نزول العذاب، ثم بين في هذه الآية أنهم كاذبون في ذلك الطلب والاستعجال، لأنه لو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه ويؤذيه، فإنه يتضرع إلى الله تعالى في إزالته عنه وفي دفعه عنه وذلك يدل على أنه ليس صادقاً في هذا الطلب، وهذا عتاب على سوء الخلق من بعض الناس، ولأن الغرض الأهم من كليهما هو الاعتبار بزميم أحوال المشركين تفضيلاً لحالهم وتحذيراً من الوقوع في أمثالها بقرينة تنهية⁽¹⁾.

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ: فيه ثلاثة أقوال:

- أ. أعرض عن الدعاء، وموقف الابتهاج والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به.
- ب. مرّ في العافية على ما كان عليه قبل أن يُبتلى، قبل مس الضر ونسي حال الجهد، ولم يتعظ بما يناله.
- ج. مرّ طاعياً على ترك الشكر، واستمر على كفره.⁽²⁾

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 17/ 219-220، والمحرر الوجيز 3/ 109، والتحرير والتنوير 11/ 109.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب 17/ 221، وزاد المسير 2/ 319، وأنوار التنزيل 3/ 107، ومدارك التنزيل 2/ 10.

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿لِجَنِّيهِ﴾: متعلق بحال محذوفة، من فاعل دعانا، أي: مضطجعاً لجنبه، أو قاعداً أو قائماً حالان معطوفان على الحال قبلهما.⁽¹⁾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ كذلك: مفعول مطلق أي مثل ذلك التريين وزين.
جملة: ﴿مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ في محلِّ جرِّ مضاف إليه.

جملة: ﴿دَعَانَا لِجَنِّيهِ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، وهي جواب شرط غير جازم.
جملة: ﴿كُشِفْنَا عَنْهُ ضُرُّهُ﴾ في محلِّ جرِّ مضاف إليه.

جملة: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ في محلِّ نصب حال من الفاعل في (مر).⁽²⁾
جملة: ﴿لَّمْ يَدْعُنَا﴾ في محلِّ رفع خبر كأن.

جملة: ﴿مَسَّهُ﴾ في محلِّ جرِّ صفة لضر.

جملة: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في محلِّ نصب خبر كانوا.⁽³⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. التقسيم أو صحة الأقسام: وهو عبارة عن استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، بحيث لا يغادر منه شيئاً، وقوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنِّيهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾ استوفى جميع الهيئات التي يكون عليها أثناء دعاء الإنسان لخالقه.⁽⁴⁾

ب. قال تعالى: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ ذكر ابن عاشور في تفسيره "أن (المرور) هنا مجازي بمعنى استبدال حالة بغيرها، شبه الاستبدال بالانتقال من مكان إلى آخر لأن الانتقال استبدال، أي انتقل إلى حال كحال من لم يسبق له دعاؤنا، أي نسي حالة اضطراره واحتياجه إلينا فصار كأنه لم يقع في ذلك الاحتياج".⁽⁵⁾

(1) ينظر: محاسن التأويل 6/ 10، إعراب القرآن وبيانه 4/ 213، والبحر المديد / 455، والموسوعة القرآنية 10/ 50.

(2) ينظر: الجدول 11/ 88، والتبيان 2/ 668.

(3) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4/ 213، والجدول 11/ 88-89، والمجيبى 2/ 426، وإعراب القرآن للدعاس 2/ 18.

(4) ينظر: الجدول 11/ 89.

(5) التحرير والتنوير 11/ 111.

ح. قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ "الكاف في (كذلك) للتشبيه والمعنى: كما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح المنكر زين للمسرفين ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر ومتابعة الشهوات".⁽¹⁾

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

بيّن الله ﷻ أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند وجدان النعماء، فإذا أصاب الإنسان الشدة والجهد والمرض والفقر استغاث بالله ﷻ في كشف ذلك عنه ويكون إما مضطجعاً لجنبه، أو قاعداً إذا كانت العلة أهون، أو قائماً بالحال التي يكون بها عند نزول ذلك الضرر به، ولأن الإنسان لا يدعو إحدى هذه الحالات، فلما فرّجنا عنه الجهد الذي أصابه ورفعناه عنه، استمر على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضرر، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه، وترك الشكر لربه الذي فرّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء حين استعاذ به، وعاد للشرك ودعوى الآلهة والأوثان أرباباً معه، كما زُيّن لهذا الإنسان الذي وصفنا صفتَه، استمراره على كفره بعد كشف الله عنه ما كان فيه من الضرر، كذلك زُيّن للذين أسرفوا في الكذب على الله ﷻ وعلى أنبيائه، فتجاوزوا في القول فيهم إلى غير ما أذن الله ﷻ لهم به، ما كانوا يعملون من معاصي الله ﷻ والشرك وبه، وقال ابن جريج⁽²⁾: "كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون من الدعاء عند البلاء وترك الشكر عند الرخاء"، فأما من رزقه الله ﷻ الهداية والسادد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك.⁽³⁾

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ خلجات النفوس وأوضاع الناس:

الآية الكريمة تصور لنا نموذجاً بشرياً من الناس لا يختص بفترة معينة، وإنما يتكرر ويتوالى على مدار الزمان والمكان، وهو نموذج شائع، ويشكل الغالبية العظمى -إلا من رحم ربي-،

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 17 / 222.

(2) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج: الإمام، العلامة، الحافظ، شيخ الحرم، أبو خالد، وأبو الوليد القرشي، الأموي، المكي، صاحب التصانيف، وأول من دون العلم بمكة، مولى أمية بن خالد، وقيل: كان جده جريج عبداً لأم حبيب بنت جبير؛ زوجة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي، فنسب ولأژه إليه، وهو عبد رومي، وكان لابن جريج أخ اسمه محمد، لا يكاد يعرف، وابن اسمه محمد. [ينظر: سير أعلام النبلاء 6 / 325-326].

(3) ينظر: جامع البيان 15 / 36-37، والكشاف 2 / 332-333، تفسير ابن كثير 4 / 252، وتفسير مقاتل ابن سليمان 2 / 230، بحر العلوم 2 / 106، ولباب التأويل 2 / 431.

وقليل ما هم فنحن نرى إعجاز القرآن الكريم وكيف صور لنا النفس البشرية بكافة أبعادها، وجميع حالاتها، ونراه يصدق على الجنس البشري في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة، ولا عجب لأن الله ﷻ خالق الإنسان ويعلم ما هو عليه، ولا تخفى عليه خافية في الأنفس والآفاق⁽¹⁾، فالإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند حصول النعماء والرخاء، فإذا مسه الضر أقبل على الدعاء والتضرع في جميع حالاته مجتهداً في الدعاء طالباً من الله ﷻ إزالة وكشف ما نزل به من الضر والمحن والبلاء، ولكنه سرعان ما ينسى ربه، ولا يكون وفيّاً لفضل الله ﷻ عليه، فإذا كشف الله ﷻ كل ذلك عنه أعرض عن الشكر ورجع إلى ما كان عليه سابقاً من اندفاع واستهتار، ولم يشكر ولم يتعظ، وينطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر، وهذه حالة الغافل الضعيف اليقين، قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَّهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8]، أما المؤمن العاقل فإنه على خلاف ذلك، فيكون صابراً عند البلاء شاكر الله عند الرخاء والنعماء، كثير التضرع والدعاء في جميع أوقات الراحة والرفاهية.⁽²⁾

◀ **نم من الله ﷻ لمنكر نعمه:**

الآية تبين صورة مبدعة لنموذج بشري مكرر، وإن الإنسان ليظل مدفوعاً مع تيار الحياة، يخطئ ويذنب ويطغى ويسرف، والصحة موفورة، والظروف مواتية. وليس - إلا من عصم الله ورحم - من يتذكر في إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفاً وأن هناك عجزاً، وساعات الرخاء تُنسي، والإحساس بالغنى يُطغي⁽³⁾، وتتحدث الآية عن ضجر الانسان المنتشر اليوم وتبرمه وتضايقه من ابتلاءات الله ﷻ له وهي صفة لا يحبها الله ﷻ، فعن صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"⁽⁴⁾، والسفهاء من الناس تمر بهم الأحوال الحسنة والسيئة، فلا يستفيدون من اختلافها شيئاً، قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُمْرًا إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَالْيَهُ يَجْرُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِحْتُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 53-54].

(1) ينظر: الجدول 11/ 89

(2) ينظر: لباب التأويل 2/ 431، والتفسير المنير 11/ 123.

(3) أيسر التفاسير 2/ 455.

(4) صحيح مسلم 4/ 2295، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، حديث رقم: 2999.

◀ آداب الدعاء:

تجنباً للصفات التي ذمها الله ﷻ يجب أن نتحلى ببعض آداب الدعاء، منها:

1. أن يكون الداعي مستقبلاً للقبلة رافعاً يديه خافضاً لصوته متضرعاً لربه ممثلاً لأمره: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55].
 2. يفتح الدعاء بذكر الله ﷻ، ويصلى على النبي ﷺ ثم يسأل الله حاجته بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا ثم يختم بحمد الله ﷻ، والصلاة على حبيبه محمد ﷺ.
 3. أن يترصد الإنسان لدعائه الأوقات المحبوبة كيوم عرفة وأيام رمضان ويوم الجمعة ووقت السحر وليلة القدر.
 4. أن يغتنم الأحوال والأوقات التي ورد فيها أنها مواطن إجابة كزحف الصفوف في الجهاد أو في إقامة الصلاة أو بين الأذان والإقامة أو في السجود أو دُبر الصلوات.
 5. أن يثني على الله ﷻ، ويدعوه بخشوع ورغبة ورهبة، فقد اتنى الله ﷻ على من كان ذلك حاله فقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].
 6. يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويلج في الدعاء ويكرره ثلاثاً، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «كَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا»⁽¹⁾.
 7. أن يكون الداعي تائباً متطهراً متذليلاً أكثر من الطاعات والإحسان مبتعداً عن المال الحرام غير متعجل، وان يسأل بعزم ورغبة وجد واجتهاد، ففي الدعاء الفرج وفيه السعادة، والظفر وكل ماتمناه وترجوه من أمور الدنيا والآخرة.⁽²⁾
- اللهم أوزعنا نشكر نعمك التي أنعمت علينا، وذكرنا الأحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء؛ حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطيق سواه ولا نقدر على غيره، وما أغناك عنه وأحوجنا إليه، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

(1) صحيح مسلم 3/ 1418، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ، حديث رقم: 1794، (جزء من حديث طويل).

(2) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال 2/ 514-515.

المطلب الثالث

سنة الله في إهلاك الأمم الظالمة والكافرة، واستخلاف خلائف بعدهم

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 13-14].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن أبان الله ﷻ أنهم كانوا يتعجلون العذاب، وأوضح أنه لا فائدة في إجابة دعائهم، ثم ذكر أنهم كاذبون في هذا الطلب إذ لو نزل بهم ضرر، تضرعوا إلى الله ﷻ في إزالته وكشفه، بين هنا ما يجري مجرى التهديد والردع والزجر عما صنعه هؤلاء المشركون، وهو أن الله ﷻ قد ينزل بهم عذاب الاستئصال، كما أنزله في الأمم السابقة لهم، ليكون ذلك رادعاً لهم عن مطلبهم تعجيل العذاب. (1)

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

الْقُرُونَ: الأمم، وهو جمع قرن بالفتح، وأصله مدة طويلة من الزمان، وهو مائة سنة، وهم القوم المقترنون في زمن واحد (2)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِي يَلُونِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةَ أَحَدِهِمْ يَمِينُهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ". (3)

وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا : فيها أقوال:

أولاً: قَالَ ابْنُ الْأَثَرِيِّ: "مَنْعَهُمُ اللَّهُ ﷻ مِنَ الْإِيمَانِ جَزَاءً عَلَى كُفْرِهِمْ". (4)

ثانياً: قَالَ الرَّجَاجُ (5): "هَذَا فِي قَوْمِ عِلْمِ اللَّهِ ﷻ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَوْ أَبْقَاهُمْ أَبَدًا".

(1) ينظر: فتح القدير 2/ 488، والتفسير المنير 11/ 124، وتفسير المراعي 11/ 76، والتحرير 11/ 112-113.

(2) ينظر: تفسير المنار 11/ 258، وتفسير المراعي 11/ 75، والتحرير والتنوير 11/ 113، وإعراب القرآن 4/ 215.

(3) صحيح مسلم 7/ 184، كتاب: فضائل الصحابة، باب: خير القرون، حديث رقم 6560.

(4) ينظر: تفسير السمعاني 2/ 370، وزاد المسير في 2/ 320، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج 3/ 10.

(5) أبو إسحاق الزجاج: هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج النحوي؛ كان من أهل العلم بالأدب والدين المثين، وصنف كتاباً في معاني القرآن وله كتب عديدة منها: كتاب الأمالي، الاشتقاق، العروض، القوافي، شرح أبيات سيبويه، النوادر، والأنباء، وغير ذلك، أخذ الأدب عن المبرد وثلعب - رحمهما الله تعالى -، وكان يخرط الزجاج، ثم تركه واشتغل بالأدب، فنسب إليه، توفي يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة سنة عشر، وقيل: سنة إحدى عشرة، ببغداد - رحمه الله تعالى -، وقد أناف على ثمانين سنة. [ينظر: وفيات الأعيان 1/ 49-50].

2. الإعراب:

- قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: متعلق بـ(أهلكنا)، وليس بحال من القرون؛ لأنه زمان.
- ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾: يجوز أن يكون في محل نصب حال بتقدير (قد)؛ أي وقد جاءتهم، ويجوز أن يكون معطوفاً على ظلموا.⁽¹⁾
- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فيها وجهان:
- أولاً: يجوز أن يكون عطفاً على (ظلموا).
- ثانياً: ممكن أن يكون اعتراضاً واللام لتأكيد النفي، يعني: وما كانوا يؤمنون حقاً، تأكيداً لنفي إيمانهم، وأن الله ﷻ قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم، وأن الإيمان مستبعد منهم.⁽²⁾
- ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾: نعت للقوم منصوب وعلامة النصب الياء، و(القوم) مفعول به منصوب.
- جملة قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾ لا محل لها من الإعراب، وهي جواب قسم مقدر.
- جملة: ﴿ظَلَمُوا﴾ في محل جر مضاف إليه، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي: لما ظلموا أهلكناهم.
- جملة: ﴿جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً﴾ لا محل لها من الإعراب معطوفة على جملة القسم المقدرة المستأنفة في الآية السابقة.
- جملة: ﴿لِنَنْظُرَ﴾ لا محل لها من الإعراب صلة الموصول الحرفي (أن) المضمرة.⁽³⁾
- جملة: ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في محل نصب مفعول به لفعل (النظر)، وهو بمعنى العلم المعلق بالاستفهام (كيف)، وهو في محل نصب على الحال.⁽⁴⁾

3. الجوانب البلاغية:

- قال تعالى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في النظر استعارة تمثيلية، حيث شبه حال العباد مع الله ﷻ، بحال الرعية مع حاكمها، في إهمالهم للنظر في أعمالهم، وأستعير المشبه به للمشبهه للتقريب والتمثيل، لكن ليس كمثل الله ﷻ شيء، والله المثل الأعلى.⁽⁵⁾

(1) ينظر: التبيان 2/ 668، والجدول 11/ 90-91.

(2) ينظر: الكشف 2/ 333، إعراب القرآن وبيانه 4/ 218.

(3) ينظر: الجدول 11/ 90.

(4) ينظر: المجتبى 2/ 427، والجدول 11/ 91، وإعراب القرآن للدعاس 2/ 19.

(5) ينظر: التفسير المنير 11/ 124، وصفوة التفسير 1/ 578.

قوله تعالى: ﴿لِنَنْظُرَ﴾ معناه: لنبيِّن في الوجود ما عَلِمناه أزلماً، والعلم الحقيقي الذي لا يتطرق الشك إليه، لكن جرى القول على طريق الإيجاز والفصاحة والمجاز. (1)

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

هكذا الإنسان وتلك سنة الله ﷻ في الأمم، ولن تجد لسنة تبديلاً فاعتبروا يا أولى الأبصار، وفي هذه الآيات الكريمة إخبار من الله ﷻ لمعاصري الرسول ﷺ وخطاب لهم بإهلاك من سلف قبلهم من الأمم ولقد أهلكنا الأمم التي كذبت رُسل الله ﷻ من قبلكم أيها المشركون بربهم، وذلك بسبب شركهم ومخالفتهم أمر الله ﷻ ونهيه وجاءتهم رسلهم من عند الله، بالآيات والحجج والأدلة التي تُبين عن صدق من جاء بها، وخوف أهل مكة بمثل عذاب الأمم الخالية لكيلا يكذبوا محمداً ﷺ، وجاءتهم رسلهم بالآيات البينات أنها حق، ولم تكن هذه الأمم التي أهلكناها ليؤمنوا برسولهم ويصدقوهم إلى ما دعوهم إليه من توحيد الله ﷻ وإخلاص العبادة له، وكما أهلكنا هذه القرون من قبلكم، أيها المشركون، بظلمهم أنفسهم، وتكذيبهم رسلهم، وردهم نصيحتهم، كذلك أفعل بكم فأهلككم كما أهلكتهم بتكذيبكم رسولكم محمداً ﷺ، وظلمكم أنفسكم بشرككم بربكم، إن أنتم لم تُتَّيَّبوا وتتوبوا إلى الله من شرككم فإن من ثواب الكافر بي على كفره عندي، أن أهلكه بسخطي في الدنيا، وأوردته النار في الآخرة، ثم جعلناكم، أيها الناس، خلائف من بعد هؤلاء القرون الذين أهلكناهم لما ظلموا، تخلفونهم في الأرض، وتكونون فيها بعدهم، لينظر ربكم أين عملكم من عمل من هلك من قبلكم من الأمم بذنوبهم وكفرهم بربهم، تحتنون مثالهم فيه، فتستحقون من العقاب ما استحقوا، أم تخالفون سبيلهم فتؤمنون بالله ﷻ ورسوله وتقرؤون بالبعث بعد الممات، فتستحقون من ربكم الثواب الجزيل (2)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ". (3)

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

- (1) ينظر: مفاتيح الغيب 17/ 223، والجواهر الحسان 3/ 240، والبحر المحيط 6/ 22، والتحرير والتنوير 11/ 115.
- (2) ينظر: جامع البيان 15/ 37-38، وتفسير ابن كثير 4/ 252، والبحر المحيط 6/ 21، وبحر العلوم 2/ 107، والتفسير الواضح 2/ 46.
- (3) صحيح مسلم 8/ 89، كتاب: الدعوات، باب: فتنة النساء، حديث رقم 7048.

◀ هلاك الأمم بظلمها:

سنة الله ﷻ في الأمم أنها تهلك إذا ما انتشر وتفشى الظلم فيها وأضحى هو مأكلا ومشربها، وأصبح المنكر معروفا والمعروف منكرا، فعند ذلك تتحقق سنة الله في هلاكها قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: 11]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [الحج: 45]، والأمم الظالمة لها أجل محدود، وإذا انقضت المدة جاء أجلها فتهلك كما يهلك الإنسان ويموت، وعذاب الله ﷻ لا يقتصر على من تقدم من الأمم الظالمة بل إن سنته ﷻ في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحدا أن الإهلاك قاصر على الأمم السابقة بل إن من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم أن يهلك مثلهم، فلا يغتر الظالم ولا الأمم الظالمة بالإمهال وحلم رب العالمين عليهم فالله يمهل ولا يهمل، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ" قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]⁽¹⁾، ولو نظرنا في تاريخ أمتنا لوجدنا دعوات ومذاهب وأعداء قد أهلكها الله ﷻ بعد أن علت في الأرض بالفساد، ولم يتبق منها إلا بعض آثارها، وذلك لتكون عبرة لمن يعتبر ويتعظ، وما كان يتصور أي إنسان هلاكها سواء من قوة عسكرية مثل: التتار والشيوعية، أو فكرية كالبهائية والقاديانية أو تنصيرية صليبية، وما هلكت إلا لطغيانها وظلمها، فلكل ظالم نهاية.

المتأمل في واقع المسلمين اليوم يجد أنهم يذوقون صنوف العذاب وأصبحوا لقمة سائغة في أفواه الأعداء تنتهك حرمتهم ويُتعدى على أرضهم وتسلب أموالهم وتغتصب نساؤهم وتسلب إرادتهم ويتحكم فيهم القاصي والداني، والحرب اليوم أصبحت معلنة اجتمعت حيث أحزاب الكفر وتحالفت على الإسلام ويعاونهم أخوة لنا من بني جلدتنا بكل ما يملكون من سلطة ومال وإعلام، فازدادت الفتن وكثر الأعداء وليس لنا إلا الله وحده.

◀ استخلاف الله ﷻ للعباد في أرضه:

الآية بشارة لهذه الأمة بأنها ستخلفهم في الأرض إذا آمنت بالله ﷻ واتبعت النور الذي أنزل معه كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: 55]، ولقد صدق الله ﷻ وعده فملكهم ملك الأكاسرة والقيصرة والفرعنة وكثير من الأمم غيرها.⁽²⁾

(1) صحيح البخاري 6/ 74، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾، حديث رقم: 4686.

(2) ينظر: تفسير المراغي 11/ 77.

ولقد شرف وكرم الله ﷻ الإنسان باستخلافه في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وهذه الخلافة تقوم على أساس الإصلاح والأمر بالمعروف وتحقيق العدل بين الناس فيما يقع بينهم من مظالم ودفع الفساد والظلم عن الناس والنهي عن الفحشاء والمنكر، وهذا كله يُعتبر جزء من وظائف الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]، فمن يقيم بذلك يمكن الله ﷻ له في الأرض، واستخلاف الله ﷻ للإنسان يقع تحت تكليف الأمانة التي حملها الإنسان واعتذرت عن قبولها مخلوقات أعظم من خلق الإنسان وهي السموات والأرض والجبال، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]، كل الناس أفراداً وأمماً مُمهّلون مُراقبون في أعمالهم وسلوكهم ومجزيون بأعمالهم خيرا وشرها لا محالة.

المطلب الرابع

مطالبة المشركين الرسول ﷺ بقرآن آخر أو تبديل بعض آياته

قَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتِ بِشُرٍّ مِنْ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَرَادْتُ أَنْ أُبَدِّلَهُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: 15-17].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن بدأ ذكر الله ﷻ شبهتين للمشركين ، وهما ذكر الكتاب الحكيم وإنكار المشركين الوحي على رجل منهم وتخصيص محمد ﷺ بالنبوة، ثم أقام الحجة على الوحي والتوحيد والبعث بخلق العالم علويّه وسفليّه، وبطبيعة الإنسان وتاريخه وقرائنه، أعاد هنا الكلام في شأن الكتاب نفسه، وتقنيد ما اقترحه المشركون على الرسول ﷺ بشأنه، وحجته البالغة عليهم في كونه وحياً من عند الله ﷻ. (1)

ثانياً: سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتِ بِشُرٍّ مِنْ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ ﴾، اختلف في سبب نزولها إلى قولين، هما:

1. نزلت في مشركي مكة، قاله قتادة ومجاهد.
2. نزلت في خمسة أشخاص كانوا يستهزئون بالنبي ﷺ وبالقرآن، هم: عبد الله بن أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري، والعاص بن عامر بن هاشم، قالوا للنبي ﷺ: أَتَيْتِ بِشُرٍّ مِنْ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ تَكَلَّمَ بِهِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِكَ، قاله مقاتل. (2)

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 17/ 223، وتفسير المراغي 11/ 78، والتفسير المنير 11/ 128، تفسير المنار 11/ 261.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب 17/ 223-224، والكشف والبيان 5/ 123-124، والتحرير والتنوير 11/ 118.

ثالثاً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

أَوْبِدَلُهُ : في قول المشركون للرسول ﷺ ثلاثة أوجه:

أ. أنهم سألوه أن يحول الوعد وعيداً وعيداً والوعد وعداً، والحلال حرام والحرام حلال.

ب. سألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم.

ج. أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور، قاله الزجاج.⁽¹⁾

وَلَا أَدْرَبِكُمْ : فيه ثلاثة أوجه:

أ. ولا أعلمكم به، أي القرآن، قاله ابن عباس.

ب. ولا أنذركم به، قاله شهر بن حوشب.⁽²⁾

ج. ولا أشعركم به، قاله قتادة.⁽³⁾

الراجع: ما ترجمه الباحثة وترتضيه أن جميع المعاني المذكورة سابقاً جائزة، وتدل على الإعلام والإبلاغ الذي كلف به الرسول ﷺ، من رب العزة.

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾، الجملة في محل جر مضاف إليه.

﴿بَيْنَتِي﴾ حال منصوبة وعلامة النصب الكسرة.

جملة: ﴿أَنْتِ بِمَرَأَيْنِ غَيْرِ هَذَا أَوْبِدَلُهُ﴾ في محل نصب مقول القول، والمصدر المؤول: ﴿أَنْ أَوْبِدَلُهُ﴾ في محل رفع فاعل يكون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُوْبِدَلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾، الجملة في محل نصب مقول القول.

جملة: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُرْحَمُ إِلَيَّ﴾ لا محل لها من الإعراب تعليلية، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ لا محل لها من الإعراب تعليل آخر.

(1) تفسير القرطبي 8/ 319، تأويلات أهل السنة 6/ 19، والنكت والعيون 2/ 427.

(2) شهر بن حوشب: الأشعري الشامي الحمصي، ويقال للمشقي أبو سعيد، أسماء بنت يزيد من كبار التابعين توفي سنة 112هـ، قال عنه ابن حجر صدوق كثير الإرسال، روى عن مولاته أسماء، وأبو هريرة، وابن عباس وغيرهم، قيل توفي سنة 98هـ، وقيل 112هـ. [ينظر: سير أعلام النبلاء 4/ 378].

(3) ينظر: والنكت والعيون 2/ 427، إعراب القرآن، النحاس 2/ 143، لباب التأويل 2/ 433.

وجملة: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا محلّ لها من الإعراب اعتراضية، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي: فإنّي أخاف عذاب الله، و(عظيم) صفة ليوم مجرور.

وجملة: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ في محلّ نصب مقول القول.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَتْ فِيكُمْ عُمْرًا﴾ الجملة لا محلّ لها من الإعراب، وهي تعليلية.

وجملة: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، معطوفة على جملة محذوفة مستأنفة أي أغاب عنكم ذلك فلا تعقلون.⁽¹⁾

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ﴾ مفعول به الواو، حرف عطف و(كذب) عطف على افتري وآياته متعلقان بكذب، والمعنى: لا أحد أظلم ممن افتري على الله الكذب، وزيادة كذا مع أن الافتراء لا يكون إلا كذا لبيان أن هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب في نفسه فربما يكون الافتراء كذباً في الإسناد فقط.

﴿لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ الجملة تعليل لكونه لا أظلم ممن افتري على الله كذا أو كذب بآياته، والجملة تقع خبر إن.⁽²⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾، فيه النقات من الخطاب إلى الغيبة إعرافاً عنهم (آياتنا) التي في الكتاب العزيز، أي وإذا تلا التالي عليهم.⁽³⁾

ب. قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ خروج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى استفهام إنكاري وتوبيخي معناه النفي، أي لا أحد أظلم من ذلك، ونفي الأظلمية كما هو المشهور كناية عن نفي المساواة، والمراد أنه أظلم من أي ظالم.⁽⁴⁾

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

يخبر الله ﷻ عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين للحق المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله ﷻ، وحججه الواضحة الدالة على الحق، قال الذين لا يخافون

(1) ينظر: الجدول 11 / 92-95، وإعراب القرآن للدعاس 2 / 19، وإعراب القرآن، للنحاس 2 / 142.

(2) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4 / 219، وإعراب القرآن للدعاس 2 / 20.

(3) فتح البيان 6 / 28.

(4) ينظر: التفسير المنير 11 / 127، والجدول 11 / 96، وصفوة التفسير 1 / 578.

عقاب الله ﷻ، ولا يوقنون بالمعاد، ولا يصدّقون بالبعث، للرسول ﷺ آت بقرآن غير هذا أو غيره، فقل لهم يا محمد: ما يكون لي أن أبدله من عندي، وقل لهم: ما أتبع في كل ما أمركم به أيها القوم، وأنهاكم عنه، إلا ما ينزله إليّ ربي، ويأمرني به، وإني أخشى من الله ﷻ إن خالفت أمره، وغيّرت أحكام كتابه، وبدلت وحيه، فعصيته بذلك عذاب يوم عظيم.

ثم لقّن الله ﷻ الجواب وقال له: قل لهم يا محمد لو شاء الله ﷻ ما تلوّث هذا القرآن عليكم، أيها الناس، بأن كان لا ينزله عليّ فيأمرني بتلاوته عليكم، ولا أعلمكم به، فقد مكثت فيكم أربعين سنة من قبل أن أتلوّه عليكم، ومن قبل أن يوحيه إليّ ربي، ألا تعقلون أي لو كنت منتحلاً ما ليس لي من القول، كنت قد انتحلته في أيام شبابي وحداثتي، وقبل الوقت الذي تلوّته عليكم؟ فقد كان لي اليوم، لو لم يوح إليّ وأمر بتلاوته عليكم، مندوحة عن معاداتكم، ومتّسع، في الحال التي كنت بها منكم قبل أن يوحى إليّ وأمر بتلاوته عليكم.

يقول ﷻ: قل لهؤلاء المشركين الذين نسبوك فيما جنتهم به من عند ربك إلى الكذب، أي خلق أشدّ تعدياً واجراماً، ممن اختلق على الله كذباً، وافترى عليه باطلاً أو كذب بحججه ورسله وآيات كتابه؟ يقول له وليس الذي أضفتموني إليه بأعجب من كذبكم على ربكم، وافترائكم عليه، وتكذبيكم بآياته، إنه لا ينجح الذين اجترموا الكفر في الدنيا يوم القيامة، إذا لقوا ربهم، ولا ينالون الفلاح، وهذا وعيد وتأكيّد لما سبق.⁽¹⁾

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

← مفاوضات تبوء بالفشل:

نلمس في الآيات الكريمة كيف كانت تأتي الوفود للرسول ﷺ للمفاوضات لتبين مدى الفشل الذي أصاب زعماء قريش في عدم حصولها على التنازل الكلي عن الإسلام، الأمر الذي جعلها تلجأ إلى طلب الحصول على شيء من التنازل، ويلاحظ أن الذي طلبوه في المرة الأولى، أكبر مما طلبوه في المرة الثانية، وهذا يدل على تدرجهم في الطلب من الأكبر إلى الأصغر، علّهم يجدون آذاناً صاغية لدى قائد الدعوة الإسلامية، كما أنهم كانوا يغيّرون الأشخاص المتفاوضين، فالذين تفاوضوا مع الرسول ﷺ في المرة الأولى غير الذين كانوا في المرة الثانية، حتى لا تتكرر الوجوه، وفي ذات الوقت تنويع الكفاءات، والعقول المفاوضة، وقوة الحجّة والأسلوب تختلف من شخص لآخر، فربما أثر ذلك في نظرهم بعض الشيء، وفي هذا درس للدعاة إلى يوم القيامة؛

(1) ينظر: جامع البيان 15/ 40-46، وتفسير ابن كثير 4/ 253-254، وبحر العلوم 2/ 107-108، وتفسير

السمعاني 2/ 371، وزاد المسير 2/ 320-321.

بأن لا تتأزل عن الإسلام ولو كان هذا التنازل شيئاً يسيراً، فالإسلام دعوة ربانية ولا مجال فيها للمساومة إطلاقاً، مهما كانت الأسباب والدوافع، والمبررات، وعلى حملة الإسلام اليوم الحذر من مثل هذه العروض، والإغراءات المادية، التي قد لا تعرض بطريق مباشر، فقد تأخذ شكلاً غير مباشر، في شكل وظائف عليا، أو عقود عمل مجزية، أو صفقات تجارية مربحة، والبحث عن فرص عمل، وعقود مجزية في البلاد العربية الغنية، الأمر الذي يؤدي إلى بُعدهم عن النشاط الإسلامي وهذا ما تخطط له المؤسسات العالمية المشبوهة لصرف الدعاة عن دعوتهم وبخاصة القيادين منهم، وبنظرة فاحصة للعالم الإسلامي اليوم، نلاحظ أن بعض المناصب العليا أشغلت بعض الدعاة.⁽¹⁾

نرى اليوم أيضاً كيف يقوم الكيان الصهيوني بعمل هُدن وصفقات وفي كل مرة يتم التنازل فيها عن بض النقاط، وغن دل ذلك وإنما يدل على قوة المقاومة الإسلامية.

◀ ظلم الكاذب لنفسه ووقوعه في الهلاك:

لا يوجد على الأرض كلها إنساناً أشد ظلماً من هؤلاء الذين يفترون الكذب على الله، فلم يقتصر هذا الظلم على زمن الرسول وتكذيبه للآيات القرآنية، فنحن نرى اليوم الكذب على الله من أقوال بعض الأشخاص، ومن الأمثلة على ذلك: رأيت في المنام كذا وكذا، وجاء ملك وقال لي كذا وكذا، وإلى غير ذلك من الافتراءات الكاذبة، التي ليس لها صحة، وإنما هي اختلاق خرافات، ومن نسج الخيال، والافتراء على الله ﷻ بتأويل آياته تأويلاً غير صحيح، أو الافتراء على النبي ﷺ بأنه قال كذا، وهو لم يقل، أو بتوجيه الآيات والأحاديث توجيهاً مغايراً للحقيقة، هذا الذي يفتري على الله الكذب هو الأشد ظلماً.

فلا فوز ولا فلاح للمجرمين الكافرين، والإجرام مصيره الخيبة حتماً قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: 17]، فمهما طال الزمان فإن النصر والتمكين للحق دوماً، فهذا الذي يفتري على الله الكذب ظالم مجرم، وهذا الذي يكذب بالحق ظالم مجرم، ظالم بحق نفسه، مجرم بحق الآخرين، فهو يصد الناس عن سبيل الله ﷻ.

(1) ينظر: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ص: 174 - 175.

المطلب الخامس

عبادة المشركين للأصنام وادعاء شفاعتها

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: 18].
أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن وضح الله ﷻ في الآيات السابقة أن المشركين طلبوا من الرسول ﷺ أحد أمرين: إما الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله لأن فيه نبذاً لآلهتهم وطعناً فيها وتسفيهاً لآرائهم في عبادتها، أنكر الله ﷻ عليهم هنا عبادة الأصنام وبين لهم حقارة شأنها إذ لا تستطيع نفعاً ولا ضرراً، فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها من دون الله ﷻ، ويجعل لها الشفاعة عنده وليس لديهم برهان على ما يدعون لله ﷻ وعبادته يشركون.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

شَفَعْتُونَا عِنْدَ اللَّهِ: فيها قولان:

- أ. شفاعونا في الآخرة، قاله أبو صالح عن ابن عباس، ومقاتل، وهذا القول غاية الجهالة من المشركين حيث ينتظرون الشفاعة في المال ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرر في الحال.
- ب. شفاعونا في إصلاح معاشنا في الدنيا، لأنهم لا يُقَرُّون بالبعث، قاله الحسن.⁽²⁾

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ الجملة مستأنفة لحكاية جنائية أخرى من جناباتهم.

قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال من فاعل يعبدون، أي متجاوزين الله ﷻ.

جملة: ﴿لَا يَضُرُّهُمْ﴾ صلة الموصول (ما) لا محل لها من الإعراب.

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 17/ 226-227، تفسير المراغي 11/ 81، والتحرير والتنوير 11/ 124، والتفسير القرآني للقرآن 6/ 975.

(2) ينظر: فتح البيان 6/ 33، وتفسير القرطبي 8/ 322، وزاد المسير 2/ 322، ومدارك التنزيل 2/ 12، ولباب التأويل 2/ 434.

جملة: ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ لا محلّ لها من الإعراب معطوفة على جملة الصلة.

قوله تعالى: ﴿شَفَعْتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ خبر و(نا) مضاف إليه والجملة مقول القول، و﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال.⁽¹⁾

جملة: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُونَا﴾ في محلّ نصب مقول القول.

جملة: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وهي استئناف بياني، وجملة قوله تعالى: ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: (نسب) ﴿سُبْحٰنَهُ﴾ لا محلّ لها من الإعراب اعتراضية دعائية.

وجملة: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ لا محلّ لها من الإعراب صلة الموصول الحرفي (ما).⁽²⁾

3. الجوانب البلاغية:

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ اختيار صيغة المضارع في يعبدون ويقولون لاستحضار الحالة العجيبة من استمرارهم على عبادتها، وملازمتهم لها، أي عبدوا الأصنام ويعبدونها تعجباً من تصميمهم على ضلالهم.⁽³⁾

4. القراءات:

قوله تعالى: ﴿سُبْحٰنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيها قراءتان:

أولاً: قرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء.

ثانياً: قرأ يحيى بن ثابت والأعمش وأبو حمزة والكسائي وخلف (تُشْرِكُونَ) بالتاء.

التوجيه: من قرأها بالياء قرأها على معنى المغايبة، ومن قرأها بالتاء على وجه المخاطبة، وأن ذلك أتى عقيب المخاطبة فأجرى الكلام على لفظ ما تقدمه.⁽⁴⁾

(1) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4/ 220-221، والجدول 11/ 96، إعراب القرآن، للدعاس 2/ 20.

(2) ينظر: الجدول 11/ 97، وإعراب القرآن للدعاس 2/ 20-21.

(3) ينظر: التحرير والتنوير 11/ 125.

(4) ينظر: ينظر: حجة القراءات ص: 329، الكشف 2/ 336، والكشف والبيان 5/ 125، وبحر العلوم 2/ 108،

تفسير البغوي 2/ 414.

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

يُنكر الله ﷻ على المشركين الذين عبدوا مع الله ﷻ غيره، وهم الذين وصفتهم للرسول ﷺ، حيث أنهم يعبدون من لا يضرهم شيئاً ولا ينفعهم، في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك يتمثل في الآلهة والأصنام التي كانوا يعبدونها، وقد كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند الله فوجه الله لنبيه محمد ﷺ الخطاب: وقل لهم: أتخبرون الله أن ما لا يشفع في السموات ولا في الأرض يشفع لكم فيهما؟ وذلك باطلٌ ولا تعلم حقيقته وصحته، بل يعلم الله ﷻ أن ذلك خلاف ما تقولون، وأنها لا تشفع لأحد، ولا تنفع ولا تضر، تنزيهاً لله وعلواً عما يفعله هؤلاء المشركون، وبهذا ثبت بطلان الشرك في الألوهية وهو عبادة غير الله مهما يكن المعبود، وبطلان الشرك في الربوبية بادعاء وساطة المعبود في الخلق والتدبير، أو الشفاعة عند الله إذ ليس لمعبود بذاته ولا بتأثير خاص له عند خالقه يحمله على نفع من شاء ولا ضر من شاء أو كشف ضر عنه كما يعتقد عباد الأولياء من البشر إلى اليوم، فكل ذلك للرب وحده ولا يعلم إلا بوحيه، فادعاء ذلك لغيره كذب لا مستند له، وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه، فإنه باطل عقلاً وشرعاً وفطرة، والله ﷻ أعلى وأجلّ من أن يوصف له شريك. (1)

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ بيان أن الله ﷻ القادر النافع:

كل ما في السموات والأرض خاضع لله عزَّ وجلَّ مقهور بأمره، مسلم له، عبد له كما قال ﷻ في كتابه العزيز: ﴿وَلَهُ اسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: 83]، فكل من في السموات والأرض أسلم لله ﷻ، والمطلوب من الإنسان أن ينسجم مع الكون كله في التسليم لله ﷻ فكيف له أن يعبد مخلوق مثله؟؟ فالله الخالق القادر النافع الضار هو أولى وأحق بأن يُعبد فهو الذي خلق البشر وهو أعلم بما يصلح لهم، وما يسعدهم وما ينجيهم، وما ينفعهم وما يضرهم فأكرمهم به.

لم يقتصر ذلك على زمن الجاهلية فنشاهد جلياً كيف أن بعض الشباب يطلقون على أنفسهم عبدة الشياطين ويفخرون بذلك ولا نراهم قد انتفعوا بشيء بل على العكس تماماً نجد كيف لحق بهم الضرر الجسدي والنفسي وكل هذا بسبب تغييرهم لخلق الله ﷻ الذي خلقهم بأحسن صورة، وهذا لم يزدتهم إلا خسارة في الدارين.

(1) ينظر: جامع البيان 15/ 46-47، وتفسير ابن كثير 4/ 356-257، وبحر العلوم 2/ 108، وتفسير

المراغي 82/11، وتيسير الكريم الرحمن ص: 360.

وهذه الفئة من الناس لا يمكن أن تمر علينا من غير أخذ العبر والعظة بما حدث فيهم من ابتعادهم عن دين الله ﷻ، فلا دين بعد الدين الإسلامي ولا شرع بعد ما شرعه الله لنا كما قال ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

← طلب الشفاعة من غير صاحب الشفاعة:

قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36]، عندما يقوم الإنسان بطلب الحاجة من الموتى وسؤالهم الشفاعة، وطلب الإعانة منهم، والاستعانة والاستغاثة بهم، وسؤالهم غفران الذنوب، وتفريج الكرب كل ذلك يدخل في دعاء غير الله، وكله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ﷻ إلا بالتوبة، فنرى اليوم كيف تتوجه الجموع إلى بعض قبور الأولياء والصالحين في بقاع الأرض والطلب والتوسل منهم بأن يكونوا شفعاؤهم عند رب العزة، ولنا بسيرة الرسول خير شاهد ودليل ذلك قول عائشة ؓ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، لَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ - أَوْ خَشِيَ - أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا⁽¹⁾، فهذا هو الرسول ﷺ وهو على فراش الموت نرى مدى حرصه على أمته، ونهيه عن اتخاذ المقابر مساجد؛ لئلا يُتَّخَذَ ذريعة إلى الشرك بالله ﷻ، والفعل إذا كان يُفضي إلى مفسدة، وليس فيه مصلحة راجحة يُنهي عنه، وقد وقع وفعله خلق كثير في عصرنا الذي نعيشه، واعتقدوه من القربات، وهو من أعظم السيئات، فيجب علينا أن نتقي الله ﷻ في أفعالنا وحركاتنا وأقوالنا، خوفاً بأن نقع في الشرك من حيث لا نحسب.

(1) صحيح البخاري 2/ 102، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في قبر النبي ﷺ، حديث رقم: 1390.

المبحث الثالث

المقاصد والأهداف لسورة يونس من الآية (19-25)

حال المكذبين مع عدل رب العالمين

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: فطرة الله الناس على الدين الحق.

المطلب الثاني: مطالبة المشركين نزول آية كونية من رب العالمين.

المطلب الثالث: إنكار الفضل، وزوال الأجر.

المطلب الرابع: عادة الكفار المكر واللجاج، وعدم الإنصاف عند الإفراج.

المطلب الخامس: المثل البليغ للحياة الدنيا.

المطلب السادس: دعوة الله إلى دار السلامة، والهداية إلى طريق الاستقامة.

المطلب الأول

فطرة الله الناس على الدين الحق

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 19].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن أقام الله ﷻ الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة الأصنام، بين السبب في كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد، والمقالة الباطلة، ذكر هنا بيان ما كان عليه الناس من الوحدة في الدين، وما صاروا إليه من الاختلاف والفرقة فيه.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ : فيها عدة أقوال، كالتالي:

- أ. قال مجاهد: "عهد آدم، فاختلّفوا حين قتل أحد ابني آدم أخاه، فتفرّقوا مؤمناً وكافراً".
- ب. قال الضحاك: "المراد أصحاب سفينة نوح، اتفقوا على الحنيفية ودين الإسلام".
- ج. قال الكلبي: "وما كان الناس إلا أمة واحدة كافرة على عهد إبراهيم فتفرّقوا مؤمناً وكافراً".
- د. قال الزجاج: "وما كان الناس يعني: العرب كانوا على الشرك قبل مجيء محمد ﷺ، فتفرّقوا واختلّفوا بعده، فأمن بعضهم وكفر بعضهم".
- هـ. قال الزجاج أيضاً: "ولدوا على الفطرة واختلّفوا بعد الفطرة".⁽²⁾

الراجح: ما تميل إليه الباحثة هو القول الخامس أن الله ﷻ خلق الناس على فطرة الإسلام، واختلّفوا بعد ذلك إلى مؤمن وكافر، ودليل ذلك قول الكريم المنان في كتابه العزيز: ﴿فَأَقْرَهُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30].

وكذلك قول خير الأنام، عن أبي هريرة ﷺ كَانَ يُحَدِّثُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجَّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةِ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ".⁽³⁾

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 17 / 228، وتفسير المراغي 11 / 83، والتفسير المنير 11 / 135.

(2) الكشف 2 / 336، والبحر المحيط 6 / 28، والجواهر الحسان 3 / 241، وبحر العلوم 2 / 109، وتأويلات أهل السنة 6 / 25، والنكت والعيون 2 / 428.

(3) صحيح البخاري 2 / 94، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلّى عليه، حيث رقم: 1358.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ : فيه ثلاثة أقوال:

- أ. ولولا كلمة سبقت بتأخير هذه الأمة أنه لا يهلكهم بالعذاب كما أهلك الذين من قبلهم لفضي بينهم بنزول العذاب، فكان ذلك فصلاً بينهم فيما فيه يختلفون من الدين.
- ب. أن لكل أمة أجلاً، وللدنيا مدة لا يتقدم ذلك على وقته.
- ج. أنه لا يأخذ أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه، ولا يعاجل العصاة بالعقوبة إنعاماً عليهم.⁽¹⁾

2. الإعراب:

جملة: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ ﴾ لا محلّ لها من الإعراب استئنافية، وهي مسوقة لبيان أن الفطرة والتشريع تتطلب وحدة البشر ولكنهم إعراضاً منهم وميلهم لأهواء النفس ومتطلباتها اختلفوا، أو معطوفة على جملة (يعبدون).

قوله تعالى: ﴿ فَأَخْتَلَفُوا ﴾ الجملة لا محلّ لها من الإعراب، وهي معطوفة على الاستئنافية.

جملة: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وهي معطوفة على الاستئنافية، وجملة: (سبقت) في محلّ لها من الإعراب، رفع صفة لكلمة.

جملة: ﴿ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، (قضي بينهم): لا محلّ لها من الإعراب، لأنها جواب شرط غير جازم، وجملة: (يختلفون) صلة الموصول لا محلّ لها من الإعراب.⁽²⁾

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

لم تكن الناس إلا أهل دين واحد وملة واحدة، وهي فطرة الإسلام والتوحيد التي فطر عليها كل أحد، فاختلّفوا في دينهم، باتباع الهوى وعبادة الأصنام، فافتقرت بهم السبل في ذلك، وأنّ الشرك وفروعه جهالات ابتدعتها الغواية الضالون، ولولا أنه سبق من الله أنه لا يهلك قوماً إلا بعد انقضاء آجالهم، لقضي بينهم بأن يهلك أهل الباطل منهم، وينزل العذاب وتعجيل العقوبة للمكذّبين، وينجي أهل الحق.⁽³⁾

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 17/ 229-230، زاد المسير 2/ 322، والتفسير المنير 11/ 135، وتأويلات أهل السنة 6/ 25، والنكت والعيون 2/ 429.

(2) ينظر: الجدول 11/ 98، وإعراب القرآن للدعاس 2/ 21، إعراب القرآن للنحاس 2/ 143، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 221-222.

(3) ينظر: جامع البيان 15/ 47، وتفسير البغوي 2/ 414-415، وأنوار التنزيل 3/ 108، ومحاسن التأويل 6/

15، والموسوعة القرآنية 10/ 54، وتسبيح الله ذاته العلية ص: 30.

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

﴿ جُبِلَ الْخَلْقَ عَلَى فِطْرَةِ اللَّهِ ﴾:

الأصل في الإنسان أنه خلق على دين الفطرة والتوحيد، وهذا دليل على عدل الخالق ورحمته ﷺ بعباده، فإنه خلق كل إنسان موحداً، وحكم ببقائه على التوحيد إلى البلوغ، ثم تركه للعقل والتفكير في الوحي الإلهي، فكل مخلوق أخذ عليه هذا الميثاق، وقد نجد في وقتنا الحاضر من يقول: نحن الآن لا نذكره، فنجيب عليه يكفي أن يخبرنا الوحي بوقوعه، فنؤمن به كسائر أخبار الغيب التي أخبرنا الله ﷻ عنها، فنصدقها وإن نسيناه، ثم إنك تشعر في نفسك بهذا الميثاق وهذه الفطرة، فأنت تشعر أن قضية وجود الله ﷻ لا تحتاج إلى دليل بالنسبة للمؤمن السليم الفطرة، ولا يوجد عنده جدلاً في هذه القضية، ولكن ينتج ذلك عند تلوث الفكر بالشبهات والوساوس الشيطانية، وحب النفس والمال، وممن استمع لأهل الإلحاد والانحراف وأشباههم.

إن أقوى دليل عند الإنسان على وجود الله ﷻ هو الفطرة، وهذه مسألة غير قابلة للنقاش عنده؛ لأنها مغروسة في الأعماق، فهذا أقوى برهان على أن الله ﷻ خلقنا عليها، فنحن في كل حين نحس بالانجذاب إلى التوحيد، والإقرار بألوهيته تبارك وتعالى، وهذه الفطرة هي فطرة الإسلام، والسلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول بالعقائد الصحيحة السليمة من الشوائب والتشوّهات، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: 172].

﴿ الإيمان بالله ﷻ يوحد الأمة: ﴾

يجهل كثير من الناس في يومنا الذي نعيش مدى ضرورة الإيمان بالله ﷻ، وفيما أنزل على نبيه محمد ﷺ، حيث بينت هذه الآية لأولي الألباب والأفئدة أن تحقق الجماعة المسلمة لا يمكن أن يكون أو ينهض إلا على التوحيد لله رب العالمين، وفيه تحذير من الإخلال بهذا التوحيد أو الإتيان بما يؤثر فيه أو ينقصه أو يذهب من شركيات وبدع لأن ذلك سيؤدي إلى الفرقة المذمومة المحذر منها، ويعمل على اختلاف المذاهب وكثرة الفرق في الأسرة المسلمة، ولما كانت الجماعة لا تتحقق إلا بالاجتماع على التوحيد الخالص لله ﷻ كانت هذه وصية الله لأنبيائه ورسوله، قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: 213]، الشرك هو أساس الخلاف والتفرق في وحدة الأمة.

الإشارات القرآنية المتعلقة بالتطور، وما نتج عنه من تنوع واختلاف تحمل توجيهاً مؤكداً ليقوم الإنسان للاقتداء بالمجتمعات الإنسانية والوقوف على تفاصيل تطورها وآثاره الإيجابية والسلبية،

ويجب علينا العمل على عودة المسيرة الإنسانية إلى سابق وحدثها، ويكون ذلك بذل الجهد - بما فيه جهد المال والنفس - قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: 52]، وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: 33]، والأمة المسلمة لا تفرزها المصادر الدموية، أو العرقية وإنما هي تجميع وتركيب وإخراج مستمر لـ"أمة" لا يقتصر تكوينها على جنس من الأجناس، أو عرق من الأعراق وإنما هي أمة مفتوحة لجميع العناصر الصالحة من الإنسانية كلها، والتي ترغب المشاركة في وظيفة الأمة المسلمة، وتسهم في تكاليفها ومتطلبات البذل في سبيلها.⁽¹⁾

◀ القضاء الحق بين الخلق:

سبق القضاء والقدر وتم حكم الله ﷻ بأنه لا يقضي بين العباد فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب قبل يوم القيامة، ولولا ذلك الحكم السابق والتأجيل المتقدم، لقضى الله ﷻ بين الناس في الدنيا وجازاهم على ما قدموه، فأدخل المؤمنين الجنة بحسن عملهم واتباع أوامره والابتعاد عن نواهيه، والكافرين النار بكفرهم وجهودهم، وموعدهم يوم القيامة الذي جعله الله ﷻ لحكمة بالغة، وهي إعطاء الفرصة الكافية للإنسان في تصحيح عقيدته، وتعديل وضعه، والتوبة من عصيانه وكفره وضلاله، حتى لا يؤخذ على حين غرة⁽²⁾، فواجب على عباد الله، أن يتقوا الله ﷻ، ويعلموا أنهم ملاقوه، ولا يغفلوا عن الحساب والمجازاة على الأعمال وقضاء الله ﷻ بين عباده.

(1) ينظر: أهداف التربية الإسلامية ص: 507-509.

(2) ينظر: التفسير المنير 11/ 137.

المطلب الثاني

مطالبة المشركين نزول آية كونية من رب العالمين

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [يونس: 20].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن حكى الله ﷻ عن المشركين إنكارهم للوحى إلى بشر مثلهم ورد عليهم مقاتلتهم بالحجج التي تثبت بطلان شركهم وإنكارهم للبعث، ثم حكى عنهم مطالبة الرسول ﷺ بالإتيان بقرآن غير هذا الذي يدل في نظمه وأسلوبه وعلومه وهداياته على أنه وحى من كلام الله ﷻ، ذكر في هذه الآية النوع الرابع من شبهات القوم والاحتجاج على إنكار نبوته بعدم إنزال آية كونية غير القرآن مع ما فيه من الآيات العلمية والعقلية الدالة على النبوة والرسالة ثم رد على ذلك.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

فَانْتَظِرُوا : فيها قولان:

أ. انتظروا نزول الآية التي طلبتموها واقترحتموها.

ب. قضاء الله ﷻ بيننا بإظهار المحقّ على المبطل.⁽²⁾

2. الإعراب:

جملة: ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وهي معطوفة على جملة يعبدون.

وجملة: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ﴾ في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: ﴿ فَقُلْ ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وهي واقعة في جواب الشرط غير جازم مقدّر أي إن يقولوا هذا القول فقل.

جملة: ﴿ الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ في محلّ نصب مقول القول.

قوله تعالى: ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ الجملة لا محلّ لها من الإعراب، في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن لم تؤمنوا فانظروا.

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 17/ 230، وتفسير المراغي 11/ 84، وفتح القدير 2/ 493.

(2) ينظر: تفسير القرطبي 8/ 323، وفتح القدير 2/ 493، وفتح البيان 6/ 35، وزاد المسير 2/ 322.

الجار والمجرور: ﴿مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ متعلق بمحذوف خبر إن، وعلامة الجرّ الياء.

وجملة: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لا محلّ لها من الإعراب في حكم التعليل.⁽¹⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ﴿مَعَكُمْ﴾ المعية مجازية مستعملة في الإشراك في مطلق الانتظار.⁽²⁾

ب. التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يفيد تكرار ذلك القول، ولاستحضار صورة ما قالوه، وهو الموقف السلبي لمن يريد جعل الوقت في صالحه فالمحاورة مستمرة وطلب الدليل بعد الدليل يحسبون أنهم بذلك قد فازوا بالوقت.⁽³⁾

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

يقول المشركون من أهل مكة هلا أنزل على محمد آية من ربه تكون علماً ودليلاً نعلم به أن محمداً محق فيما يقول؟ وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرد وانهماكهم في الغي، فوجه الله ﷻ الخطاب للرسول ﷺ فقل لهم يا محمد لا أعلم أحد يفعل ذلك إلا هو الله ﷻ، والسر والخفي من الأمور لا يعلمها إلا الله ﷻ، فانتظروا أيها القوم، قضاء الله بيننا، بتعجيل عقوبته للمبطل منا، وإظهاره المحق عليه، إني معكم ممن ينتظر ذلك. فحقق الله ﷻ وعده لرسوله محمد ﷺ، وقضى بينه وبين المشركين بأن قتلهم يوم بدرٍ بالسيف، فبذلك أنجز الله ﷻ وعده، ونصر عبده.⁽⁴⁾

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

﴿الله ﷻ وحده عالم الغيب:﴾

كما تبين لنا بأن في الآية القرآنية أمر من الله ﷻ لنبيه ﷺ أن يعلن حقيقة أنه لا يعلم الغيب، وأن الغيب كله لله وحده، فلا أحد يعلم الغيب إلا هو، ومما استأثر الله ﷻ به، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: 65]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا

(1) ينظر: الجدول 11 / 99، والمجتبى 2 / 429، وإعراب القرآن للدعاس 2 / 21.

(2) التحرير والتنوير 11 / 132.

(3) ينظر: فتح البيان 6 / 35، وزهرة التفاسير 7 / 3540-3541.

(4) ينظر: جامع البيان 15 / 48، والكشاف 2 / 337، والكشف والبيان 5 / 126، وتفسير البغوي 2 / 415،

وأنوار التنزيل 3 / 109، و مدارك التنزيل 2 / 13.

يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿[الأنعام: 59]﴾، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الدالة على أن الله ﷻ استأنثر بعلم الغيب، لكن يُطلع الله ﷻ بعض عباده كالرسل والملائكة على بعض المغيبات، فيعلمون منها بقدر ما أعلمهم الله ﷻ فقط، قال تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦٠﴾ إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿[الجن: 26-27]﴾، وما أتت به الرسول فهي من إخبار الله ﷻ لهم، يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿[الأعراف: 188]﴾، فإن علم الله ﷻ صفة ذاتية له، قائمة به، لا تتفك عنه، وعلمه ﷻ كامل ولا يلحقه نقص بوجه من الوجوه، فهو يعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ولا ريب في هذه الأخبار الصادقة عن الرسل جميعاً، ولا نشك فيها ولا نحرفها ولا نؤولها.

◀ الرد على المدعين علمهم بغيب رب العالمين:

برزت ظاهرة سيئة في هذا الوقت وهي الإخبار عن الحوادث المستقبلية، وذلك استناداً إما للظنون الكاذبة والتخامين الوهمية، الغير مستندة إلى دليل قاطع، وبرهان ساطع، ومن هؤلاء الذين يدعون علم الغيب الكهان والعرافون والسحرة، وما يتلقون علمه يكون من شياطين الجن، وهم يصدّقون ويكذبون، ونحن نعلم أن الجن لهم قدرة على الاطلاع على كثير من أحوال الناس الظاهرة والخفية، لأنهم يرون بني آدم من حيث لا يراهم، مصداقاً لذلك ما ذكر في الكتاب العزيز قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرِينَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴿[الأعراف: 27]﴾، ولهم قدرة على سرعة الانتقال، كما في قصة العفريت مع سيدنا سليمان ﷺ، وبين شياطين الجن والإنس تعاون، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿[الأنعام: 112]﴾، وإن ما يخبر به الكاهن من أخبار سماوية ومستقبلية فالغالب عليه فيها الكذب، وما يصدّق منها يكون مما يتلقاه عن مسترق السمع، فيكذب معه مئة كذبة، كما جاء عن أبي هريرة ؓ، يقول: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرَقُّ السَّمْعِ، وَمُسْتَرَقُّ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ سُنْفِيَانٌ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرَ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهَ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةً

كُذِّبَتْ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ⁽¹⁾، وأما ادعاء البعض بأنه يقرأ الأفكار ليعلم ما في نفوس الناس، فهو من التكلف ومن قفو ما ليس له به علم، وادعاء لمعرفة الغيب.

أما الفراسة الإيمانية فهي من نور الإيمان، وهي من نوع الإلهام الإلهي، يرزقه الله ﷻ لعباده وأوليائه الصالحين، ولا يكون الإنسان بها عالماً بكل أحوال الناس، إنما يكشف الله لصاحب هذه الفراسة بعض أحوال الناس، ممن يراهم، أو بعض الأمور المتوقعة، وهي من الخوارق الكشفية التي تعين على نصره الحق، ودحض الباطل، وذلك مخالف تماماً للفراسة الشيطانية فهي ما تلقيه الشياطين في قلوب أوليائها، مما فيه إعانة لهم على الباطل، وإضلال للناس بهم.

(1) صحيح البخاري 6 / 122، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ حديث رقم: 4800.

المطلب الثالث

إنكار الفضل، وزوال الأجر

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: 21].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعدما بيّن الله ﷻ في الآية السابقة أن القوم لما طلبوا من رسول الله ﷺ آية أخرى سوى القرآن، وذلك زيادة عناد ومكر ولجاج، وأجاب عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْعَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ [يونس: 20]، ذكر جواباً آخر وهو أن أولئك المشركين لا يفتنون بالآيات إذا رأوها بأعينهم، بل يكابرون حسّهم ولا يؤمنون.⁽¹⁾

ثانياً: سبب النزول:

سبب نزول الآية الكريمة: أنّ النبي ﷺ لما دعا على أهل مكة بالجذب ففقطوا سبع سنين أتاه أبو سفيان فقال: "ادع لنا بالخصب، فإن أخصبنا صدّقناك"، فدعا لهم، فسقوا ولم يؤمنوا. هذه الآية وإن كانت قد نزلت في كفار مكة، فهي تتناول من العاصين من لا يؤدي شكر الله ﷻ عند زوال المكروه عنه، ولا يرتدع بذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثير.⁽²⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

رَحْمَةً: في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ﴾، فيه أربعة أوجه:

- أ. رخاء بعد شدة.
- ب. عافية بعد سقم.
- ج. خصباً ومطراً بعد جذب وقحط.
- د. إسلاماً بعد كفر وهو المنافق، قاله الحسن.⁽³⁾

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 230/17، وغرائب القرآن 571/3، وتفسير المراغي 87/11، والتفسير المنير 142/11-143.

(2) ينظر: زاد المسير 2/322-323، ومدارك التنزيل 13/2، والبحر المحيط 6/30.

(3) النكت والعيون 2/429، وبحر العلوم 2/109، والمحزر الوجيز 3/112.

الراجح: ما تراه الباحثة بأن جميع المعاني السابقة تحتملها الآية وتدل على رحمة الله ﷻ، ومدى لطفه وحسن تدبيره لعباده.

إِذَا لَهُمْ مَكْرُفٌ آيَاتِنَا : فيها عدة معاني، وهي كالآتي:

أ. تكذيباً بالقرآن.

ب. تكذيباً بنعمة الله ﷻ واستهزاء، ويقولون: سقينا بنوء كذا ولا يقولون: هذا من رزق الله ﷻ.

ج. قال القنبي⁽¹⁾: إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا يعني: قولهم بالطعن والحيلة ليجعلوا لتلك الرحمة سبباً.⁽²⁾

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿أَذَقْنَا﴾ في محلّ جرّ مضاف إليه.

جملة: ﴿مَسْتَهْمٌ﴾ في محلّ جرّ صفة لضرّاء.

جملة: ﴿لَهُمْ مَكْرُفٌ آيَاتِنَا﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وهي جواب شرط غير جازم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، (قل) لا محلّ لها من الإعراب، والجملة استئنافية، وجملة: ﴿اللَّهُ أَسْرَعُ﴾ في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: ﴿إِنَّ رَسُولَنَا يَكْتُبُونَ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، تعليلية، لسرعة مكر الله ﷻ وتعجيله العقوبة.

جملة: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ في محلّ رفع خبر إنّ.

جملة: ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، صلة الموصول (ما)، والعائد محذوف.⁽³⁾

(1) القنبي: هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الكاتب اللغوي الفاضل في علوم كثيرة، سكن بغداد، وله مصنفات كثيرة جداً، وتزيد مصنفاته عن ستين مصنفاً في أنواع العلوم، من كتبه: غريب القرآن، ومشكل القرآن، وغريب الحديث، ومختلف الحديث، وأدب الكاتب، والمعارف، وعيون الأخبار. [ينظر: تهذيب الأسماء واللغات 2/ 280].

(2) ينظر: بحر العلوم 2/ 110، والكشف والبيان 5/ 126، وتفسير البغوي 2/ 415.

(3) ينظر: الجدول 11/ 100-101، وإعراب القرآن للدعاس 2/ 21، والمجتبى 2/ 429، وإعراب القرآن وبيانه 4/

3. الجوانب البلاغية:

أ. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ﴾ الذوق يأتي بمعنى إدراك الطعم بالفم، واستعمل في هذه الآية الكريمة مجازاً في إدراك غيره. (1)

ب. قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ المكر: إخفاء الكيد، وهو من الله ﷻ إما الاستدراج أو الجزاء على المكر، وتسمية عقوبة الله ﷻ مكرًا من باب (المشاكلة). (2)

4. القراءات:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَسُولَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ اختلف القراء في (يَكْتُبُونَ وَتَمْكُرُونَ) على النحو الآتي:

أ. قرأ العامة بالتاء (تَمْكُرُونَ).

التوجيه: من قرأ بذلك قرأها على المخاطبة، ومبالغة لهم في الإعلام بحال مكرهم، والتفاتاً لقوله: (قل الله) أي: قل لهم، فناسب الخطاب.

ب. قراءة الحسن ومجاهد وقتادة ويعقوب: بالياء (يَمْكُرُونَ).

التوجيه: من قرأها على هذا النحو قرأها على الغيبة، جرياً على ما سبق. (3)

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

يخبر الله ﷻ في الآية الكريمة بأنه إذا رزق المشركين فرجاً بعد كرب، ورخاء بعد شدة أصابته، وراحة بعد بلاء عمّ بهم، يستهزؤون ويكذبون بآياته، فيخبر الله ﷻ سيدنا محمد ﷺ بأن يقول لهؤلاء المشركين المستهزئين من حججنا وأدلتنا، بأن الله ﷻ أسرع مَحَالاً بهم، وأشدّ أخذاً وأقدر على الجزاء، واستدراجاً لهم وعقوبةً منهم، وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غُرة منه، وإن حفظنا الذين نرسلهم إليكم، أيها الناس، يكتبون عليكم ما تمكرون من التكذيب في آياتنا، وهذا إعلام بأن ما تظنون خافياً لا يخفى على الله ﷻ وهو منتقم منكم. (4)

(1) ينظر: التفسير الواضح 2/ 51.

(2) ينظر: فتح البيان 37/6، التفسير المنير 11/141-142، تفسير الشعراوي 10/5839، وصفوة التفسير 584/1.

(3) ينظر: الهادي 2/ 295، وغيث النفع ص: 285، والكشاف 2/ 337، والمحزر الوجيز 3/ 112، والبحر المحيط 6/ 31، والموسوعة القرآنية 5/ 303.

(4) ينظر: جامع البيان 15/49-50، وتفسير ابن كثير 4/258، ومدارك التنزيل 2/14، ومحاسن التأويل 6/16.

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ معرفة الناس ربهم عند مسهم الضر:

الإنسان بطبيعته البشرية التي خلق عليها ضعيف وفقير إلى الله ﷻ، وحاجته الماسة إليه ﷻ، في حفظ حياته وبقائه، والإنسان بغرائزه وطبائعه التي لا تتغير تبعاً للزمان والمكان، عندما يلم به ألم أو كرب وشدة يلجأ إلى الله ﷻ، ويدعوه أن يفكه عنه وأن يحقق له مبتغاه، وأنه فرصة للتقرب إلى الله ﷻ، وأن التقرب منه سبحانه سبب كل فرج ونعمة، ولكن سرعان ما إذا انقضت الحاجات وزالت غمته تعود المياه إلى مجاريها، ويبدأ بالابتعاد عن الله ﷻ، والعودة إلى طغيانه وحاله التي كان عليها، والمتأمل في سنة الله ﷻ يجد أن كثير ممن ابتلاهم وكشف عنهم الابتلاء يعودوا إلى الشر فربما كان الابتلاء بعد ذلك قاصماً والفتنة بعده مهلكة، فينبغي ألا يطمع الإنسان في عفو الله طمعاً يجرئه على معصيته، يقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا يَكُم مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿ النحل: 53-54﴾، نرى اليوم كثير من شباب الأمة الإسلامية ما إن حلَّ به مصيبة أو مرض يلجأ إلى الله وإن عافاه ورفع الله عنه فيعود إلى ما كان عليه من ضلال، وكذلك الناس في حالة الحروب نراهم كيف يكون حالهم من صلاة وصيام وقيام وتضرع إلى الله ﷻ، وبعدما يكشف الله عنهم، ويبعد عنهم عدوهم يعودوا لحياتهم التي كانوا عليها من ضلال، متناسين ما كانوا عليه وكيف فرج الله عنهم ورفع كربهم.

◀ الله ﷻ خير الماكرين:

المكر السيئ صفة أعداء الله ﷻ في كل مكان وزمان، وطريقتهم الثابتة في التعامل مع الإسلام وأهله؛ وقد بين ﷻ الله لنا في كتابه العظيم المبين، أن أعداءه قد قابلوا رُسُلَه بالمكر، واتخذوا المكر وسيلة لمحاربة الحق الذي نزل به كتب الله ﷻ، وأرسلت به رسله، وأعداء الدين الإسلامي يمكرون به سراً وجهاراً، ليلاً ونهاراً، ومكرهم بالمسلمين قد يكون في صورة تخفي عليهم، أو بإظهار فعل الإضرار بصورة النفع، أو إظهار الطيب وإبطان الخبيث، وقد مكر الكافرون بخير البرية ومعلم البشرية رسولنا محمد ﷺ، في جميع أشكاله وكل صورته، فكان في مكة يتعرض لمكر الكفار في كل حين، وكذلك في المدينة، وصوّر الله ﷻ لنا بشاعة المكر برسولنا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْمِرُوكَ أَوْ يُقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿ الأنفال: 30﴾، ولكن الله ﷻ ربط على قلبه، وتكفل بحفظه، ووعدته

بنصره، وعدم إيصال الأذى والمكر إليه، قال تعالى: ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴾ [آل عمران: 54].

اليوم نشاهد في زماننا الذي نعيشه مكر اليهود ونقضهم للهدن والعهد فهم معروفون بنقض الوعود، فبعدما يقومون بتوثيق الهدن مع أبناء شعبنا الشرفاء نجدهم يغدرون كلما سنحت لهم الفرصة في ذلك، فهم يجتهدون في إيقاع الضر بكل ما يستطيعون؛ ولا يستطيعون - في الغالب - إيصال الضرر للمسلمين إلا بالمكر، كذلك ما يقومون به من تفريق المسلمين ونشر الخلافات بينهم وإضعاف قوة الصف، وتفريق الكلمة، وإيجاد الفجوة بين الحكام والشعوب، أو إفساد الحكام ثم استغلال ذلك كله لضرب المسلمين بعضهم ببعض، وإهلاك أنفسهم بأيديهم، والعدو هو وحده المستفيد الأول والأخير.

من صور مكرهم نشر الفتنة والبدع من خلال إنشاء البدع والمذاهب المنحرفة، والأفكار الهدامة، قال الله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُؤُكُم هُوَ يُبَوِّرُ ﴾ [فاطر: 10].
يجب أن نحذر من أعداء الله ﷻ لأنهم يمكرون مكرًا عظيمًا لا يمكن أن نتخيله ولا ندرك منه إلا القليل، قال الله ﷻ في وصف مكر أعداء الدين لأهل الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: 46].
فنسأل الله ﷻ أن يجتث مكرهم من أصله، ويقتلعه من أساسه ويبطله، ويسقط بنيان خططهم الخبيثة.

◀ الإنسان محاسب على أقواله وأفعاله:

يا نفس احذري فعليك رقيب وعتيد يدونان كل ما تقولين وتفعلين، قال تعالى: ﴿ مَا يَأْفُطُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: 18]، فنحن نتعجب كثيراً عندما نسمع عن أشخاص فقدوا احترامهم لأنفسهم من خلال الشبكة العنكبوتية - الانترنت - ونتعجب أكثر عندما نجدهم بين البشر مرموقين ومحترمين، وهنا يكون التساؤل، لماذا نسوا الرقيب الذي لا يغفل ولا ينام؟ وكيف يغفلون عقاب الله ﷻ لهم؟؟

يجب علينا أن نربي أنفسنا على مراقبة الله ﷻ لنا في جميع أعمالنا وأقوالنا ظاهرة وباطنة، وعلى تعظيمه وتوقيره والخوف منه على الدوام، وعندما نتيقن أن الله ﷻ يرانا دائماً، ويسمعنا ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور سنتجنب بذلك السقوط في وحل الرذيلة والمعصية، قال

تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَكْتُبُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: 10-12]

المطلب الرابع

عادة الكفار المكر واللجاج، وعدم الإنصاف عند الإنفراج

قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿﴾ [يونس: 22-23].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

لما ذكر الله ﷻ في الآية السابقة طبيعة النفس البشرية في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ [يونس: 21]، كان هذا الذكر والكلام أمراً كلياً، وقاعدة عامة لا ينكشف معناه تمام الانكشاف إلا بذكر مثال كامل، فذكر الله ﷻ لنقل الإنسان من الضر الشديد إلى الرحمة مثلاً، ولمكر الإنسان مثلاً، حتى تكون هذه الآية كالمفسرة والشارحة للآية التي قبلها، وذلك لأن المعنى الكلي لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثال جلي واضح يكشف المراد انكشافاً تاماً عن حقيقة ذلك المعنى الكلي، والنزلة التي لا يكشفها إلا الله ﷻ.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي

1. معاني الكلمات:

أُحِيطَ بِهِمْ: فيها قولان:

أ. دَنَوْا مِنَ الْهَلَاكِ، وَالْبِلَاءِ، وَأَصْلُهُ مِنْ إِحَاطَةِ الْعَدُوِّ بِقَوْمٍ أَوْ بِيْلَدٍ.⁽²⁾

ب. "أَحَاطَتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ".⁽³⁾

الراجح: ما تراه الباحثة من خلال المعنى العام للآيات أن القول الأول هو الأنسب والصواب، لأنهم كانوا في موضع اختبار وامتحان من الله ﷻ.

2. الإعراب:

جملة: ﴿كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ في محلِّ جرِّ مضاف إليه.

قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا﴾ (الهاء) تعود على الفلك، ويجوز أن تعود على (الريح الطيبة ريح عاصِفٌ).

(1) ينظر: مفاتيح الغيب 232/17، وفتح القدير 494/2، والبحر المحيط 31-32/6، وتيسير الكريم الرحمن ص: 361.

(2) ينظر: فتح القدير 2/494، وزاد المسير 2/324، والموسوعة القرآنية 10/55، وأيسر التفاسير 2/460.

(3) زاد المسير 2/324، ومعاني القرآن وإعرابه 3/14.

وفرحوا بها عطف على و(جرين)، ويجوز أن تكون جملة حالية من الضمير (بهم)، و(قد) مضمرة.

جملة: ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ في محلّ رفع خبر أنّ.

قوله تعالى: ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ جملة ﴿دَعُوا اللَّهَ﴾ بدل من ظنوا بدل اشتمال لما بينهما من الملازمة والتلازم ذلك لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به، أو استئنافية مبنية على سؤال يخطر للذهن وهو فماذا صنعوا فقبل دعوا الله.

جملة: ﴿لَئِن أَسْأَلْتَنَا﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وهي تفسير لمعنى الفعل دعوا.

جملة: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، جواب القسم، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

جملة: ﴿يَبْعُثُونَ﴾ في محلّ رفع خبر المبتدأ هم.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وهي استئنافية.

وجملة: ﴿إِنَّا مَرْجِعُكُمْ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، معطوفة على الاستئنافية الأخيرة.

جملة: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في محلّ نصب خبر كنتم.⁽¹⁾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بِغْيِكُمْ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، ويجوز أن يكون خبره ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ وتضمّر مبتدأ أي ذلك متاع الحياة الدنيا، أو هو متاع الحياة الدنيا، وبين المعنيين فرق لطيف إذا رفعت متاعاً على أنه خبر بغْيِكُمْ فالمعنى إنما بغْيِكُمْ على بعضكم على بعض، وإذا كان الخبر على أنفسكم فالمعنى إنما فسادكم راجع عليكم.⁽²⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِّرْكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ﴾ ابتداء الكلام بالخطاب ومن ثم الالتفات إلى الغيبة ثم العودة إلى الغيبة، للإيدان بما لهم من سوء الحال، الموجب للإعراض عنهم كأنه يذكر لغيرهم مساوئ أحوالهم.⁽³⁾

(1) ينظر: الجدول 103/11 - 105، وإعراب القرآن، للدعاس 22/2-23، وإعراب القرآن وبيانه 224/4 - 226.

(2) ينظر: إعراب القرآن، للنحاس 2/144، والتبيان 2/670.

(3) ينظر: المثل السائر 2/143، تفسير القرطبي 8/324، وإعراب القرآن وبيانه 4/226، والجدول 11/104،

وزهرة التفاسير 7/3544، ومعاني القرآن وإعرابه 3/13.

ب. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِرِيحٍ﴾ كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾: "جاءت كناية للإشارة إلى خوفهم ركوب الفلك، أي حتى إذا أقدمتم مع خوفكم وركبتم الفلك، والفلك تكون جمعاً أو مفرداً وهي هنا جمع بدليل (جَرِينٌ) فإن الضمير يعود على جمع ما لا يعقل مثل بهن فلول من قراع الكتائب".⁽¹⁾

ج. "المشاكلة: أفرد لفظ الريح للمشاكلة لوجهين لأنه في مقابلة قوله ﷻ: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، ولأن الرحمة تقتضي هنا وحدة الريح فإن السفينة إنما تسير بريح واحدة ولو اختلفت عليها الرياح هلكت ولذا أكد بوصف الطيبة".⁽²⁾

د. الاستعارة التبعية: في قوله تعالى: ﴿وَوَلَّوْا أَنفُسَهُمْ لِيَبْغُوا﴾ أي غلب على ظنونهم أنهم أهلكوا، ففي الكلام استعارة تبعية، وقيل: إن الإحاطة استعارة لسد مسالك الخلاص، تشبيهاً له بإحاطة العدو بإنسان، ثم كنى بتلك الاستعارة عن الهلاك، لكونها من روادفها ولوازمها.⁽³⁾

هـ. المجاز المرسل: في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا بِغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ لأن البغي لا يقع على الأنفس وإنما هو الوبال ولما كان البغي هو سببه، ذكره على طريق المجاز المرسل والعلاقة السببية.⁽⁴⁾

4. القراءات:

أ. قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ اختلف القراء في ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ كالاتي:
أولاً: قرأ كل من: ابن عامر، وأبو جعفر، (يُنْشُرُكُمْ) بياء مفتوحة، وبعدها نون ساكنة، وبعده النون شين معجمة مضمومة.

التوجيه: هو الذي يبيتكم ويفرقكم في البر والبحر، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10].

ثانياً: قرأ الباقون (يُسَيِّرُكُمْ) بياء مضمومة، وبعدها سين مهملة مفتوحة، وبعدها ياء مكسورة مشددة، من (التسيير).

التوجيه: أي يحملكم على السير، ويمكنكم منه، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: 69].⁽⁵⁾

(1) زهرة التفاسير 7 / 3544.

(2) إعراب القرآن وبيانه 4 / 227.

(3) ينظر: فتح البيان 6 / 39، والجدول 11 / 104.

(4) ينظر: زهرة التفاسير 7 / 3545، وإعراب القرآن وبيانه 4 / 227، والجدول 11 / 104-106.

(5) ينظر: النشر 2/282، والهادي 2/295، وغيث النفع ص: 285-286، والقراءات وأثرها في علوم العربية

ب. قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾⁽¹⁾ اختلف القراء في (متاع) على النحو الآتي:

أولاً: قرأ حفص (متاع) بنصب العين.

التوجيه: قرأها على هذا الوجه اعتباراً أنه مصدر مؤكد لعامله، أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا.

ثانياً: قرأ الباقون (متاع) برفع العين.

التوجيه: من قرأ بذلك قرأها على أنه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: ذلك هو متاع الحياة الدنيا،

وإما أن تكون (متاع) خبر لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾⁽¹⁾.

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

يخبر الله ﷻ في هاتين الآيتين، عن مظهر من مظاهر مكر الماكرين بآيته ﷻ، وكفرهم بنعمه السابغة عليهم، فالله ﷻ هو الذي يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن، وهو الذي يحفظكم إذا سافرتم في بر أو بحر، وجرت الفلك بالناس بريح طيبة، لينة الهبوب لا عاصفة ولا ضعيفة، وفرح ركبان الفلك بالريح الطيبة التي يسرون بها، وبعد ذلك جاءت الفلك ريحاً شديدة، وجاء ركبان السفينة الموج وأحاطهم من كل مكان، وظنوا أن الهلاك قد دنا منهم وأحاط بهم، كان مفرعهم إلى الله ﷻ وأخلصوا الدعاء له في تلك الحين، دون أوثانهم وآلهتهم التي يعبدونها، قال: هؤلاء المشركون يدعون مع الله ﷻ ما يدعون، ويقولون لئن أنجيتنا من هذه الشدة التي نحن فيها، لنكونن من الشاكرين لك على نعمك، وتخليصك إيانا مما نحن فيه، بإخلاصنا العبادة لك، وإفراد الطاعة دون الآلهة والأنداد، فلما أنجى الله ﷻ هؤلاء القوم، وجاءت رحمة الله ﷻ في إبانها، فتهدأ العاصفة، ويخفت صوت الريح، ويذهب عنه الجهد الذي كانوا فيه، أخلفوا الله ﷻ ما وعدوه، وبغوا في الأرض وعاثوا فيها الفساد، ويتجاوزوا إلى غير ما أذن الله ﷻ لهم فيه، من الكفر به، والعمل بمعاصيه على ظهرها.

يوجه الله ﷻ الخطاب لهم قائلاً: يا أيها الناس، إنما اعتداؤكم الذي تعتدون على أنفسكم، وإياها تظلمون، وهذا الذي أنتم فيه من متاع الحياة الدنيا كل ذلك بلاغ تبلغون به في عاجل دنياكم، ثم إلى الله ﷻ بعد ذلك معادكم ومصيركم، وذلك بعد الممات، فنخبركم يوم القيامة بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصي، ونجازيكم على أعمالكم التي سلفت منكم في الدنيا، ولا يكون إثم معصيتكم إلا عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله ﷻ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.⁽²⁾

(1) ينظر: الهادي 2/ 296، وشرح طيبة النشر 2/ 369، ومانار الهدى 1/ 327، والنشر 2/ 283.

(2) ينظر: جامع البيان 15/ 50-54، وتفسير ابن كثير 4/ 259، وبحر العلوم 2/ 110-111، والتفسير

القرآني للقرآن 6/ 982، وتفسير البغوي 2/ 415-416.

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ كشف الله ﷻ سفه المشركين:

نشاهد في هذه الآيات البيان الإلهي لسفه عقول المشركين، حيث إنهم يلتجئون إلى الله الواحد عند كل كرب في البحر والبر لتيقنهم أن أصنامهم لا تملك دفع المكروه عنهم وأن الله ﷻ وحده هو الكاشف للبلاء، ثم يصرفون على عبادتها وإشراكها مع الله في الألوهية.

عجيب هذا المخلوق الإنساني لا يذكر الله ﷻ إلا في ساعة العسرة، ولا يتوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا في ساعة الكربة، فهذه عقول المشركين، حيث إنهم يلتجئون إلى الله الواحد عند كل كرب في البحر والبر لتيقنهم أن أصنامهم لا تملك دفع المكروه عنهم وأن الله وحده هو الكاشف للبلاء، ثم يصرفون على عبادتها وإشراكها مع الله ﷻ في الألوهية، فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان، ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة في كل آن، مجلوة دائماً بجلاء الإيمان، عندئذ فقط، وفي وسط هذا الهول المتلاطم، تتعري فطرتهم مما ألم بها من أوشاب، وتنفض قلوبهم ما ران عليها من تصورات، وتتبض الفطرة الأصيلة السليمة بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه، والعقل السليم لا يرضى بالتجاء صاحبه إلى إله في الشدة وإله آخر في الرخاء؛ لأن الإله المنجي من الكربات جدير أن يكون إلهاً معبوداً وحده في الرخاء، بعد أن تهدأ العاصفة ويطمئن الموج، وتهدأ الأنفاس اللاهثة، وتسكن القلوب الطائرة، وتصل الفلك آمنة إلى الشاطئ، ويوقن الناس بالحياة، وأرجلهم مستقرة على اليابسة.⁽¹⁾

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67]، ولا يمكن لسفينة الحياة أن تمضي في مسيرتها ما لم تعترضها الرياح الهادرة، وتحيط بها الأمواج العاصفة، ومهما كانت مهارة الرِّبَّان وقدراته الفنية، فإن أعاصير القدر أشدُّ هولاً من أن يجتنبها بإمكاناته الفردية، لذا كان لا بدَّ له من المساعدة الإلهية التي تمدُّه بالعون، وتتقدّمه من الخوف والذعر، وإن كريم الصفات، وجميل الأخلاق، لا ينسى فضل الله حين يأتيه، بل يحمده ويشكره، أمّا لنائم النفس خبيث الصفات، فإنه سرعان ما ينسى فضل الله عليه ومدده في وقت حاجته، فيتابع مسيرة الحياة، بالظلم والبغي والاعتداء على حقوق الناس، وهذا العنت والتسلُّط سيرتدُّ عليه بالويل والثُّبور، إن عاجلاً أو في يوم تنشر فيه صحائف الأعمال، ويلقى

(1) ينظر: في ظلال القرآن 3/ 1773-1774.

المرء كتاباً لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، ويفزع المجرم من سوء عمله، ويتمنى لو أنه كان تراباً.

والله نسأل أن يحفنا بالطف والرحمة، ليثبت أقدامنا على صراطه المستقيم، وينور قلوبنا بشرعه القويم، حتى نبقى عابدين مخلصين له الدين، ولحلاوة محبته ذائقين، ولساعات أعمارنا بطاعته مالمئين، ولفرص السعادة الحقيقية مغتتمين آمين يا رب العالمين.⁽¹⁾

◀ بيان تكبر الإنسان وعناده:

هذه هي المشكلة الآن عندنا، مشكلة الناس الذين نجوا ومع ذلك فهم مصررون على الباطل، والمعاصي، والفواحش، والخمور، والربا، وترك الصلوات، فهم لا يتعظون من أول عبرة، وهذه شبه قاعدة عندهم، فلا بد أن تأتي ضربة أولى وثانية وثالثة ورابعة حتى يتعظوا، حيث إنه مع كل ضربة ومحنة يستيقظ بعض من الناس، ومع كل شدة يستيقظ آخرون وهكذا حيث أن الشعوب وكما متعارف عليها لا تستيقظ من أول محنة والإنسان لا يتعلم من أول خطأ، وهذا ليس من صفة المؤمن التي ذكرت في السنة النبوية، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: "لَا يُدْعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ"⁽²⁾ وهنا يتبين لنا كيف كان حرص رسولنا الكريم ودعوتنا إلى الانتباه وتوخي الحذر كي لا نقع مرتين في نفس الحفرة والاتعاض من زلات الغير.

نجد الناس - إلا من رحم ربي - يدخلون في المحنة وتقع عليهم شدة ومع ذلك يخرجون كأن شيئاً لم يقع، فما زالوا منغمسين في المعاصي والأحوال، نقلوا فسادهم من مكان إلى آخر، ومن عجائب البحر التي تدل على إدراكه وعبوديته لله صلى الله عليه وسلم: أنه يعظم عليه أن يرى ابن آدم يعصي الله صلى الله عليه وسلم مع حلم الله صلى الله عليه وسلم عليه، ويتمنى هلاك عصاة بني آدم، وإغراقهم، ويستطيع لكنه مأمور، ومنا من لا تحرك فيه المعصية ساكناً، تُنْهَكُ حُرْمَاتِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَتُتَجَاوَزُ حُدُودَهُ، وَتُضَيِّعُ فُرَائِضَهُ، ويعادي أوليائه، فشهدنا جميعاً في الآونة الأخيرة ما حدث من فيضانات مثل: تسونامي، وغيرها، وما كل ذلك إلا ليكونوا آية لغيرهم، وكلم الله صلى الله عليه وسلم من آية، فتأملوا يا أولي الألباب!.

(1) ينظر: القرآن منهاج حياة ص: 291-292.

(2) صحيح البخاري 31 / 8، كتاب: الأدب، باب: لَا يُدْعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ، حديث رقم: 6133.

المطلب الخامس

المثل البليغ للحياة الدنيا

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ [يونس: 24].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

بعدما ذكر الله ﷻ ما تقدم من متاع الدنيا ومن البغي في الأرض وإفساد العمران، والإفراط في حب التمتع بما في الدنيا من الزينة واللذات، جاء بكلام مستأنف يكشف ويبين حالها وسرعة زوالها وانقضائها، وأنها تعود بعد أن تملأ الأعين برونقها، وتجتلب النفوس ببهجتها، وأنها بحال ما تعز وتسر، تضمحل ويؤول أمرها إلى الفناء.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

بِالْأَمْسِ: أراد بالأمس مطلق الزمان الماضي البعيد لا خصوص اليوم الذي قبل يومك، ولذلك أعرب وأدخل عليه (أل) ولو قال أمس للزم البناء على الكسر والتجرد من أل، وكان بلا ألف ولام ولا إضافة، نكرة.⁽²⁾

2. الإعراب:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان حال الدنيا وسرعة تقضيها وأنها بعد أن تستهوي الأعين برونقها تحمل أهلها على أن يسفك بعضهم دم بعض ويمتشقوا الحسام فيما بينهم لتعكير صفو السلم الذي يجب أن يسود بينهم.⁽³⁾

قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، الباء للسبب؛ أي اختلط النبات بسبب اتصال الماء به، وقيل: المعنى خالطه نبات الأرض؛ أي اتصل به فرباه، وهي في محل جر معطوفة على جملة أنزلناه.⁽⁴⁾

(1) ينظر: فتح القدير 2/ 497، البحر المحيط 6/ 36، وتفسير المنار 11/ 284، وتفسير المراغي 11/ 92.

(2) ينظر: التبيان 2/ 672، والجدول 11/ 109، وإعراب القرآن وبيانه 4/ 230.

(3) إعراب القرآن وبيانه 4/ 229.

(4) ينظر: التبيان 2/ 671، الجدول 11/ 108.

جملة: ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ في محلّ جرّ مضاف إليه.

جملة: ﴿أَتْنَهَا أَمْرُنَا﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وهي جواب شرط غير جازم.

جملة: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ لا محلّ لها من الإعراب، معطوفة على جملة جواب الشرط.

قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ﴾ في محلّ نصب حال من مفعول جعلناها، وجملة: ﴿لَمْ تَغْنَبْ﴾ في محلّ رفع خبر كأن.

جملة: ﴿نَفَّصِلُ الْآيَاتِ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، استئنافية.

جملة: ﴿يَنْفَكِرُونَ﴾ في محلّ جرّ صفة لقوم.⁽¹⁾

3. الجوانب البلاغية:

أ. في هذه الآية الكريمة تشبيه تمثلي ومركب، حيث إنه تشبيه حالة مركبة بحالة مركبة وهو هنا يحتمل شيئين:

- أنه شبه الحياة الدنيا بالماء فيما يكون به من الانتفاع ثم الانقطاع.

- أنه شبهها بالنبات في جفافه وذهابه حطاما في أدنى مدة ووقت، بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرتة ورفيفه.

التمثيل القرآني له إشارات بيانية نعيًا عن بلوغها، وأطياف نورانية يعيا المصور عن تصويرها.

ب. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَنْتَ﴾ استعارة مكنية حيث شبه الأرض في زينتها بما عليها من أصناف النبات كالعروس التي تتزين بالحليّ والثياب، وأخذت الثياب الفاخرة من كل لون، واستعير لتلك البهجة والنضارة لفظ الزخرف.⁽²⁾

ج. قوله تعالى: ﴿أَتْنَهَا أَمْرُنَا﴾ الأمر هنا كناية عن العذاب والدمار الذي يقع بهم من الله ﷻ، وذلك بسبب إعراضهم واعتزازهم بالحياة الدنيا.⁽³⁾

(1) ينظر: الجدول 11 / 108 - 109، وإعراب القرآن وبيانه 4 / 229-230، وإعراب القرآن، للنحاس 2/144، وإعراب القرآن، للدعاس 2 / 23.

(2) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4/231، والكشاف 2/340، زهرة التفاسير 7 / 3549، والبحر المحيط 6/38، والتحرير والتنوير 11/141-143.

(3) ينظر: التفسير المنير 11 / 147، وصفوة التفاسير 1/584.

د. قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ استعارة مصرحة، والأصل جعلنا نباتها هالكاً، حيث إنه شبه الهالك بالحصيد، وأقيم اسم المشبه به مقامه، ولا ينافيه تقدير المضاف، كما توهم، لأنه لم يشبه الزرع بالحصيد بل الهالك به هو الذي شبه به⁽¹⁾، وذهب السكاكي⁽²⁾ إلى أنّ "في الكلام استعارة بالكناية حيث شبهت الأرض المزخرفة والمزينة بالنبات الناضر المونق الذي ورد عليه ما يزيده ويغنيه وجعل الحصيد تخيلاً"⁽³⁾.

4. القراءات:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ اختلف القراء في قراءة ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ على النحو الآتي:

أ. قرأ عامة قراء الحجاز والعراق: (وَازَّيَّنَتْ)، بالتشديد.

التوجيه: تأتي بمعنى وتزينت، ولكنهم أدغموا التاء في الزاي لتقارب مخرجيهما، وأدخلوا ألفا ليوصل إلى قراءته، إذ كانت التاء قد سكنت، والساكن لا يُبَدَأُ به.

ب. قرأ الحسن، وأبو العالية، وأبي رجاء، والأعرج، وجماعة آخر غيرهم، أنهم قراؤها: (وَازَّيَّنَتْ)، بفتح الهمزة وقطعها ساكنة الزاي.

التوجيه: على معنى حضرت زينتها كما تقول أحصد الزرع، ومن قرأوا بذلك على مثال "أفعلت"⁽⁴⁾.

قال أبو جعفر: "والصواب من القراءة في ذلك: (وَازَّيَّنَتْ) لإجماع الحجة من القراء عليها"⁽⁵⁾.

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

يضرب الله ﷻ للعباد مثل للحياة الدنيا فيقول الله ﷻ إنما مثل ما تباهون في الدنيا وتفخرون به من زينتها وأموالها، مع ما قد وُكِّلَ بذلك من التكدير والتنغيص وزواله بالفناء والموت، كمطر أرسلناه من السماء إلى الأرض، فنبت بذلك المطر أنواعاً من النبات، فاتصل كل واحد

(1) ينظر: الجدول 11 / 110.

(2) يوسف بن أبي بكر بن محمد أبو يعقوب السكاكي: من أهل خوارزم، علامة وإمام في العربية والمعاني والبيان والأدب والعروض والشعر، متكلم فقيه متفنن في علوم شتى، وهو أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الركبان، ولد سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وصنف (مفتاح العلوم) في اثني عشر علماً أحسن فيه كل الإحسان، وله غير ذلك. [معجم الأدباء 6 / 2846].

(3) الجدول 11 / 110.

(4) ينظر: جامع البيان 15 / 58، المحرر الوجيز 3 / 114، زاد المسير 2 / 325، البحر المحيط 6 / 38.

(5) جامع البيان 15 / 59.

بالآخر فاختلط، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ مِنَ الزَّرْعِ وَالْأَشْجَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وسائر العشب المرعي، وحسب أهل الزرع أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى غَلَاتِهَا وَعَلَى مَا انبَتَتْ وَأَنَّهَا سَتَمُّ لَهَا الْآنَ، وبأنهم سيقطفونها ويحصدونها، جاء الأرض قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات إما ليلاً وإما نهاراً، فجعلنا ما عليها مقطوعة مقلوعة من أصولها، كأن لم تكن تلك الزروع والنبات على ظهر الأرض نابتة قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس، فكَذَلِكَ يَأْتِي الْفَنَاءُ عَلَى مَا تَتَبَاهُونَ بِهِ مِنْ دُنْيَاكُمْ وَزَخَارِفِهَا، فيفنيها ويهلكها كما أهلك أمرنا وقضاؤنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها، حتى صارت كأن لم تغن بالأمس، كأن لم تكن قبل ذلك نباتاً على ظهرها، وبيئاً لكم أيها الناس، مثل الدنيا وعرفناكم حكمها وأمرها، كذلك نُبَيِّنُ حُجُبَنَا وَأَدَلَّتْنَا لِمَنْ تَفَكَّرَ وَاعْتَبَرَ وَنَظَرَ، ونبين علامات غرور الدنيا وزوالها، ونذكر واحدة منها بعد الأخرى، على الترتيب ليكون تواليها وكثرتها سببا لقوة اليقين، وموجبا لزوال الشك والشبهة، وخصَّ به أهل الفكر، لأنهم أهل التمييز بين الأمور، والفحص عن حقائق ما يعرض من الشبه في الصدور، وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان.⁽¹⁾

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقاصد التالية:

◀ زوال الدنيا وزخارفها:

الدنيا زائلة لا محال فهي عرضة للآفات، ولقد نهى الله ﷻ في هذه الآيات وأمثالها، عن الإغترار بالدنيا وحطامها، والانخداع بها، وبزخارفها البراقة، وعن الاطمئنان إليها، فهي دار زائلة فانية هذا واقعها، وهذه هي حقيقتها، فهل يأمنها أو يركن إليها مؤمن؟؟، هل يطمئن إليها أو يعادي أو يوالي من أجلها؟؟، فيجب علينا الحذر من الاطمئنان إليها، ويجب أن نتقي الله ﷻ، وأن نكون من أبناء الآخرة ولا نكون من أبناء هذه الدنيا الفانية، وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ."⁽²⁾

(1) ينظر: جامع البيان 55/15-57، وبحر العلوم 2/111، وتفسير البغوي 2/416، وتيسير الكريم الرحمن ص:361.

(2) صحيح مسلم 4/2162، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: صَبَغُ أَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي النَّارِ وَصَبْغُ أَشَدِّهِمْ بُؤْسًا فِي الْجَنَّةِ، حديث رقم: 2807.

يجب أن ندلل دنيانا لآخرتنا، ونطوعها ونستخدمها فيما ينفع عند الله ﷻ، فلن يصاحبنا منها إلا العمل الصالح، يقول حبيبنا المصطفى في الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ"⁽¹⁾، ونبهنا الرسول ﷺ لعدم الإغترار به، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: "إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَتَنَطَّرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَطَّرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ"⁽²⁾، لذلك علينا ان لا ننخدع بهذه الدنيا الدنية، ونكشف القناع عنها، ونرفع الارتباب فيها، ونحن نرى حال الناس في هذه الأيام، وكيفية اغترارها بشهوات الحياة الفانية، فقال تعالى: ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَنْطَلِقِ الْمَقْتَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَعَابِ ﴾ [آل عمران: 14]، فصاحب الدنيا المبتلى بحبها المغرور بما فيها من المتاع تخدعه، حتى تزل قدمه، ثم يجازى بعمله، فما أسرع تقلب أحوالها وتبدل حياتها بالموت، وعمارها بالخراب وتفرق الأحباب، ومن أعمل فكره وتفكر في هذه الحياة الدنيا وجدها محفوفة بالأنكاد والأكدار، والأضرار، وبالهموم والأحزان، فصروفها وحوادثها تشبه الغافلين، وثوقظ النائمين، وقد ضرب الله مثلاً لها في قوله تعالى: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ [الكهف: 45]، هكذا الدنيا لأهلها ولمن يطلبها ويسعى للفوز بها؛ فما فوق التراب تراب، فاللهم حبيب إلينا الإيمان وأهل الإيمان من الغائبين والحاضرين يا ذا الجلال والإكرام، اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، اللهم اجمع كلمة المسلمين على الحق.

﴿ بيان فضيلة التفكير وأهله:

العبرة لمسلمي عصرنا في هذه الآية الكريمة وبضرب المثل فيها وغيرها من آيات القرآن الكريم، التي اهتدى بها العرب فخرج من شركه وخرافات وأميته وبدأوته إلى نور التوحيد والعلم والحكمة والحضارة، ثم اهتدى بدعوته إليها الملايين من شعوب العجم، فشاركته في هذه السعادة والنعم، ونجد أنه لم يتبق في يومنا هذا أثر لهذه الآيات إلا ترتيلها في بعض المواسم والمآتم، ولا يخطر ببالهم أنه يجب عليهم التفكير للاهتداء بها، ولو تفكروا لاهتدوا، وإذا تعلموا أن كل ما يشكو منه البشر من الشقاء بالأمراض الاجتماعية والروحية، والرزائل النفسية، والعداوات القومية،

(1) سنن الترمذي 3/ 53، أبواب: الأحكام، باب: في الوقف، حديث رقم 1376. [حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ].

(2) صحيح البخاري 8/ 89، كتاب: الزمان، باب: قول النبي ﷺ: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ"، حديث رقم:

والحروب الدولية، إنما سببه التنافس في متاع هذه الحياة الدنيا، وأن من تفكر في هذا وكان على بصيرة منه، فهو جدير بأن يلتزم القصد والاعتدال في حياته الدنيوية المادية، ويصرف جل ماله وهمته في إعلاء كلمة الله ﷻ وعزة أهل ملته، وقوة دولته، والاستعداد لآخريته، فيكون من أهل سعادة الدارين، وما صرف الناس عن هذا الاهتداء بكتاب الله، وهو أعلى وأكمل ما أنزله الله، إلا علماء السوء المقلدون الجامدون، وزعمهم الباطل أنه لم يبق في البشر أحد أهلا للاهتداء به بعد الرسول ﷺ. (1)

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [يونس: 108]، فيجب عليهم التفكير والاهتداء دائما بآيات القرآن الكريم وما يضره الله ﷻ من امثال لعباده المؤمنين، فنسأل الله ﷻ أن نهتدي بهديه ويرشدنا الصواب في القول والعمل.

(1) ينظر: تفسير المنار 11/ 285.

المطلب السادس

دعوة الله إلى دار السلامة، والهداية إلى طريق الاستقامة

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

لما ذكر الله ﷻ غرور المشركين الجاهلين بمتاع الدنيا وبين سرعة زوالها، ونفراً عباده عن الميل إليها، رغب ووضح ما يدعو إليه من سعادة الآخرة في الجنة.⁽¹⁾

ثانياً: التفسير التحليلي:

1. معاني الكلمات:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾: فيها عدة معانٍ:

- قال قتادة: "السلام من أسماء الله ﷻ، وأضيفت دار النعيم وهي الجنة إليه تعظيماً لشأنها".
- السلام بمعنى السلامة، سميت الجنة دار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات، ومن جميع الشوائب والمصائب، والنقائص والأكدار، والعداوة، والخصام، ولأ إزعاج فيها ولا عذاب.
- المراد بالسلام التحية سميت الجنة دار السلام، لأن أهلها يحيي بعضهم بعضاً بالسلام والملائكة تسلم عليهم، قال الله ﷻ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٣٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 23 - 24].⁽²⁾

2. الإعراب:

- قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا﴾ الجملة لا محلّ لها من الإعراب، استئنافية.
- قال تعالى: ﴿يَدْعُوا﴾، الجملة في محلّ رفع خبر المبتدأ (الله).
- جملة: ﴿وَيَهْدِي﴾ في محلّ رفع معطوفة على جملة يدعو.
- جملة: ﴿يَشَاءُ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وهي صلة الموصول (من)، و(مستقيم) صفة لصراط مجرور.⁽³⁾

(1) ينظر: تفسير ابن كثير 4 / 261، وتفسير المنار 11 / 286، وفتح البيان 6 / 47.

(2) ينظر: فتح البيان 6 / 47، وتفسير المنار 11 / 286، وتفسير البغوي 4 / 129، وزهرة التفاسير 7 / 3552، ومعاني القرآن وإعرابه 3 / 15.

(3) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 4 / 230، والجدول 11 / 110 - 111.

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

بحث الله ﷻ عباده بأن لا يطلبوا الدنيا وزينتها، فإن مصيرها إلى فناء وزوالٍ، كما مصير النبات الذي ضربه الله ﷻ لهم مثلاً إلى هلاكٍ وبوارٍ، ولكن اطلبوا الآخرة الباقية، ولها فاعملوا، وما عند الله ﷻ فالتمسوا بطاعته، فإن الله ﷻ يدعوكم إلى داره، وهي جناته التي أعدّها لأوليائه وأضافها إلى اسمه تعظيماً لها، تسلموا من الهموم والأحزان فيها، وتأمّنوا من فناء ما فيها من النعيم والكرامة التي أعدّها لمن دخلها، وهو يهدي من يشاء من خلقه فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام الذي جعله الله ﷻ سبباً للوصول إلى رضاه، وطريقاً لمن ركبه وسلك فيه إلى جناته وكرامته، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسول، فالدعوة عامة على لسان رسول الله ﷺ بالدلالة والهداية. (1)

رابعاً: مقاصد وأهداف النص:

هدفت الآيات إلى تحقيق المقصد التالي:

◀ الأمن والسلام في دار المقام:

مكانة السلام في الإسلام ظاهرة جلية في كثير من آيات القرآن الكريم، وسميت الآخرة دار السلام لحث المسلم على السعي نحو السلام والتنعّم بظلاله ونعيمه، قال ﷺ: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 127]، وفي كل مرة بين الله ﷻ فضله على عباده ورحمته بهم وهو الذي يدعو إلى سبل السلام بإتباع منهج الإسلام كما قال ﷻ: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: 16]، كذلك يدعوهم ويحثهم على العمل الصالح وترك المعاصي والبعد عن الضلال ليدخلهم جنته، يجب أن يكون قلب العبد سليماً من الشهوات والشبهات سليماً من أمراض الكبر والبغض والحسد والحقد، قلب يديم فيه العبد الإنابة إلى الله ﷻ ليسلم على الدوام في الدنيا والآخرة، وأيضاً أن يكف المسلم نفسه عن إيقاع الضرر بإخوانه، فيسلموا أذيتهم، وأن يفشي السلام بين العباد ويلتزم في تحيته بتحية الإسلام، وكل ذلك يؤدي به إلى دار السلام، التي وصفها لنا نبينا محمد ﷺ، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتَفَلَّحُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ» قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «جُشَاءً وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمَسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفْسَ» (2)، والأحاديث النبوية الصحيحة في وصف الجنة كثيرة، وكل

(1) ينظر: جامع البيان 59/ 15، ومدارك التنزيل 17/ 2، وتيسير الكريم الرحمن ص: 362.

(2) صحيح مسلم 4/ 2180، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفات الجنة وأهلها وتسيبهم، حديث رقم:

ذلك نعمة من الله ﷻ لعباده المؤمنون الذين تركوا الحياة الدنيا ابتغاء مرضاة الله ﷻ، وليكرمهم الله ﷻ وينعم عليهم بدخول جنته، فهي باقية بنعيمها وأهلها في أمان ما دامت السماوات والأرض، والأمر المهم هنا، بيان ذلك الفرق الشاسع بين دار الدنيا الفانية، ودار السلام الباقية، بين دار المرور والغرور، ودار القرار والحبور، بين دار تتلاشى في لحظة، وتزول على حين غفلة، فإذا هي حصيد، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً، وبين دار مستقرة لا زوال لها ولا فناء، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ﴾ [هود:108]، فشتان ما بينهما، وشتان بين من كانت وجهته الدار الأولى الفانية، ومن كانت وجهته الدار الآخرة الباقية، وعلى أصحاب القلوب اليقظة والعقول النيرة أن يتعظوا.

اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك السلام، أحيينا يا ربنا بالسلام،

وأدخلنا يا ربنا الجنة دار السلام.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين،

وبعد:

أحمد الله ﷻ الذي بنعمه تتم الصالحات، أحمده أولاً وأخيراً أن أعانني ووفقتني ويسر لي إتمام هذه الرسالة، والوصول إلى خاتمتها، بعد دراسة ممتعة لآيات الحزب الحادي والعشرين من القرآن الكريم، واستخلاص وبيان ما فيه من المقاصد والأهداف، واستنباط أهم الهدايات منه، ومن خلال هذه الدراسة للآيات الكريمة توصلت الباحثة لمجموعة من النتائج والتوصيات، من أهمها:

أولاً: النتائج:

1. أن علم مقاصد السور يُعين على فهم كتاب الله ﷻ فهماً صحيحاً، ويُعين على استخراج دقائق معانيها وتدبرها، ويوصل إلى معرفة الحق في تفسير كلام الله ﷻ، ومقصد السورة هو أصل معانيها التي ترجع إليه، ومن خلاله يظهر بيان إعجاز القرآن وبلاغته.
2. اشتمال القرآن الكريم على كثير من القضايا العقدية، والأحكام، والأخلاق، والقصص، وغيرها من مقاصد القرآن، التي جعلها الله ﷻ هداية لنا، وتدور جميعها على الدعوة إلى الله ﷻ، ويبث هذا من خلال المقاصد، والأهداف والأغراض الموزعة على كافة الآيات والسور.
3. أن غزوة تبوك من أعظم المغازي التي كان لها أثر كبير في التربية بالأحداث، وتنقية الصف المسلم، وانكشاف المنافقين على حقيقتهم.
4. أظهرت السورة القدرات العالية التي كان يتمتع بها النبي ﷺ من سمات القيادة الرشيدة والحكيمة، في الجوانب السياسية والعسكرية والأمنية، التي ينبغي أن يستفيد منها القادة.
5. الولاء للمؤمنين، والبراء من المشركين حصاده النصر والتمكين، وفي ذلك مفازة في الدارين.
6. الأمر بدعاء الله ﷻ وحده وإخلاص الدين له وتخصيصه بالعبادة، فيجب اتباع ما أنزله ولا يجوز اتباع الأولياء من دونه في العقائد والعبادات.
7. وجوب اتباع أوامر الدين، وبيان سنة الله بالابتلاء للأمم بالبأساء والضراء، وتارة بالرخاء والنعماء، وبيان أن الإيمان والتقوى والعمل الصالح سبب في نزول البركات والخيرات.
8. إن الإسلام العظيم جاء لإصلاح البشرية، فكما أصلح المجتمع الجاهلي، فهو الأجدر على قيادة العالم اتباعه، وإصلاح وتغيير الفساد الذي اعترى الفرد والجماعة والأمة، فحري بالعلماء والدعاة والمصلحين اتباعها وتوضيحها للناس.

9. إنَّ مقاصد وأهداف القرآن الكريم لا تتحصر في جانبٍ واحدٍ، بل تأخذ جوانب متنوعةً، ونواحي متعددةً، لتشمل جميع نواحي الحياة، ومتطلباتها.
10. اشتمال سورة التوبة في مجملها على ترسيخ العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، وكذلك الرد على ضلالات المنافقين، بتصحيح تصوراتهم، ومحاربتهم وكشف مكائدهم.
11. سعة رحمة الله لتشمل جميع خلقه بما فيهم العصاة، وقبول التوبة من عباده، وإنَّ أهل العبودية لهم خصوصيةً عند الله ﷻ بمنحهم الرحمات والكرامات.
12. الصراع بين الحق والباطل ماضٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
13. بيان الكثير من السنن الربانية التي قدرها الله ﷻ على خلقه، ومنها: وسنة الإستخلاف، والابتلاء، وغيرها.

ثانياً: أهم التوصيات:

- في ضوء الدراسة التي قمتُ بها، والنتائج التي توصلتُ إليها، خرجت بالتوصيات التالية:
1. القرآن الكريم معيّن لا ينضب على مر العصور والأزمنة، فحبذا الكشف عن كنوزه وأسراره من خلال أهدافه ومقاصده.
 2. عودة الأمة بقوة إلى القرآن في جميع مناحي الحياة، لتُعيد تشكيلها من جديد، وتغيير ما بأنفسها، ليُحقّق الله ﷻ وعده الذي لا يُخلف، بتغيير واقع الأمة للأفضل.
 3. الاهتمام بدراسة النواحي القيادية والإدارية، التي كان يتمتع بها النبي ﷺ، في كافة مؤسساتنا، وتأسيس ذلك تأسيساً شرعياً وتربوياً، فإنه ﷻ القدوة الكاملة.
 4. ضرورة إصلاح الفرد قبل المجتمع، فلا بد أن يبدأ كل واحدٍ بنفسه قبل غيره.
 5. أن يهتم العلماء والدعاة بنشر هذه التعليمات والهدايات بين الناس، وأن يتمثلوا بهدي النبي ﷺ، وكذلك ممارسة أساليب جديدةٍ تواكب التقدم العلمي الذي وصل إليه الناس.
 6. تعليم النشء أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله ﷻ وتقرير الوحي والرسالة، لتتشتت منهم نشأة قوية صحيحة.
 7. ننصح أخواتنا وأخواننا الباحثين وطلبة العلوم الشرعية، بذل المزيد من الجهود لاستخراج الكنوز الثمينة من بطون كتب العلماء، خاصة ما يتعلق بمواضيع القرآن الكريم، دستور الأمة الخالد، وعنوان عزّتها ورفعتها، وربطها بواقع الأمة، للخروج بحلول عملية لأزماتها الحالية، لتبرز معالم الطريق المستقيم، على خطى الأنبياء والمرسلين.

8. نوصي أساتذة الجامعات والقائمين عليها، بمزيد من العناية لمثل هذه الأبحاث، وتوجيه طلبة العلم في الدراسات العليا لها، حتى يتم ربط هذه الأمة بدينها وتراثها، والانتقال نحو الغد المشرق للإسلام والمسلمين، بإذن الله ﷻ.
9. أوصي نفسي وأخواتي والقراء بتقوى الله ﷻ، والعمل على مرضاته، والثبات على طريق الحق، واتباع هدي النبي ﷺ، حتى نلقاه ﷻ.

ختاماً ...

ما هذه الرسالة إلا جهدٌ متواضعٌ بذلت فيه ما بوسعي؛ وما هي إلا مجهود بشري، للخروج بما يخدم الإسلام والمسلمين، وأسأل الله ﷻ أن أكون قد ساهمتُ في خدمة كتابه العزيز، وسهّلت الاستفادة منه، للقارئ والدارس، كما أسأله ﷻ أن ينفعنا بما علّمنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يلهمنا السداد والصواب، فما كان من توفيقٍ فمن الله وحده، وما كان من خطأٍ أو سهوٍ ونسيانٍ فمن نفسي والشيطان، قال العماد الأصفهاني: "إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يوم، إلا قال في غده: لو غُيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".⁽¹⁾

وأخيراً أسأل الله ﷻ أن تكون هذه الرسالة فاتحة خيرٍ لي ولأمة، وأرجو من المولى ﷻ أن يتقبل منا هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، فإنه خير مأمول، وأكرم مسئول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(1) روضة الناظر وجنة المناظر 42/1.

الفهارس العامة

أولاً: فهرس الآيات القرآنية

ثانياً: فهرس أطراف الأحاديث النبوية
الشريفة

ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم

رابعاً: فهرس المصادر والمراجع

خامساً: فهرس المحتويات

أولاً: فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	رقمها	الآية
البقرة		
242	30	﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّيْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيفَةً ﴾
19	183	﴿ يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ ... ﴾
255	213	﴿ كَانَ النَّاسُ اُمَّةً وَّاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيَّٓنَ مُبَشِّرِيْنَ وَمُنذِرِيْنَ وَاَنْزَلَ ... ﴾
147	256	﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوْتِ وَيُؤْمِرْ بِاللّٰهِ فَقَدْ اَسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقٰى ... ﴾
171	261	﴿ مَثَلُ الَّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ اَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيْلِ اللّٰهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ اَنْبَتَتْ سَبْعَ ... ﴾
97	276	﴿ يَمْحُوْا اللّٰهُ الرِّبُوْا وَيُرِيْ الصِّدْقٰتِ ﴾
25	281	﴿ وَاَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُوْنَ فِىْهِ اِلَى اللّٰهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ... ﴾
221	282	﴿ وَاَتَّقُوا اللّٰهَ وَيَعْلَمِكُمْ اللّٰهُ وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴾
آل عمران		
276	14	﴿ زِيْنٌ لِّلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوٰتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِيْنَ وَالْقَنٰطِيْرِ الْمُنْفَرَقِ ... ﴾
148	28	﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُوْنَ الْكٰفِرِيْنَ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ... ﴾
265	54	﴿ وَمَكْرُوْا وَمَكَّرَ اللّٰهُ وَاللّٰهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ ﴾
250	83	﴿ وَلَهُ اَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ طَوْعًا وَّكَرْهًا وَاِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ ﴾
221	102	﴿ يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاٰتِهٖٓ وَلَا تَمُوْنُوْا اِلَّا وَاَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ ﴾
142	110	﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ اُمَّةٍ اُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ... ﴾
182	144	﴿ وَسَيَجْزِي اللّٰهُ الشَّاكِرِيْنَ ﴾
النساء		
251	36	﴿ وَاَعْبُدُوْا اللّٰهَ وَلَا تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئًا ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
193	61	﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ ... ﴾
176	71	﴿ فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾
147	89	﴿ وَذُؤَالُوا تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۗ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ ... ﴾
14	105	﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ ﴾
56	108	﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾
148	144	﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾
84 ، 57	145	﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾
19	165	﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ... ﴾
25	176	﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلِمَةِ ﴾
المائدة		
251	3	﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾
279	16	﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾
57	38	﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ﴾
148	81	﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَالنَّيِّبِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾
50	90	﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصْبَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾
الأنعام		
45	62	﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾
259	112	﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ ... ﴾
279	127	﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَيْلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
الأعراف		
259	27	﴿ إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾
237	55	﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾
68	156	﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾
255	172	﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ... ﴾
259	188	﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ... ﴾
الأنفال		
264	30	﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُنِيبُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ ... ﴾
184 ، 24	57	﴿ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ ﴾
التوبة		
25	1	﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾
182	5	﴿ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾
256	33	﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ ... ﴾
176	41	﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾
50	42	﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾
217	62	﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾
94	84	﴿ وَلَا تَصِلْ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾
39	87	﴿ وَطَبِيعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾
36	91	﴿ مَا عَلَىٰ الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
36	93	﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ ... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
42	94	﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ ...﴾
48 ، 48	95	﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَابْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ...﴾
53	96	﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ﴾
59	97	﴿الْأَعْرَابِ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ...﴾
71	98	﴿وَيَرَىٰ نَصْرَ يَوْمِئِذٍ عَلَيْنَهُمْ دَائِرَةٌ السُّوءِ﴾
66	99	﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا ...﴾
75	100	﴿وَالسَّيْفِيُّونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ ...﴾
107 ، 81	101	﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ ...﴾
107 ، 86	102	﴿وَمِنْ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾
91 ، 70	103	﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ ...﴾
98	104	﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ ...﴾
أ	105	﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ﴾
105	106	﴿وَمِنْ آخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
113	107	﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ...﴾
120	108	﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ ...﴾
126	109	﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ ...﴾
126	110	﴿لَا يَزَالُ بُيُوتُهُمُ الَّتِي بَنَوُا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾
135	111	﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...﴾
135	112	﴿التَّائِبِينَ الْعَمِيدُونَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالسَّائِحُونَ الرَّكَعُونَ﴾
143	113	﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ ...﴾

الصفحة	رقمها	الآية
143	114	﴿ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتِيَاءَهُ فُلْمًا بَيْنَ ﴾
149	115	﴿ وَمَا كَانَتْ أَللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَسْتَوِيَتْ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ... ﴾
149	116	﴿ إِنَّ أَللَّهُ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ أَللَّهِ مِن ﴾
159، 154	117	﴿ لَقَدْ تَابَ أَللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ... ﴾
158، 108	118	﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ ... ﴾
159	119	﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا أَللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾
166	120	﴿ مَا كَانُوا لِأَهْلِ المَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ أَللَّهِ ... ﴾
166	121	﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾
174، 168	122	﴿ وَمَا كَانَتْ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ ... ﴾
180	123	﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَاقْبَلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَليَجِدُوا فِيكُمْ ... ﴾
186	124	﴿ وَإِذَا مَا أَنزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ... ﴾
190	125	﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا ... ﴾
83	126	﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا ... ﴾
190	127	﴿ وَإِذَا مَا أَنزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ﴾
195	128	﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ... ﴾
195	129	﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ أَللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ ﴾
يونس		
205	1	﴿ الرَّبِّ تِلْكَ ءَايَاتُ الكِتَابِ ﴾
205	2	﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَن أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَن أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ... ﴾
210	3	﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ أَللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ ... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
214	4	﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ... ﴾
217	5	﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ... ﴾
217	6	﴿ إِنَّ فِي أُخْتِافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ ﴾
222	7	﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ ... ﴾
222	8	﴿ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾
222	9	﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ ﴾
222	10	﴿ دَعْوَتِهِمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾
228	11	﴿ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ... ﴾
233	12	﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ... ﴾
238	13	﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ... ﴾
238	14	﴿ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾
31	15	﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ ... ﴾
243	16	﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ ﴾
247	17	﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾
248	18	﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ ... ﴾
253	19	﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ ... ﴾
257 ، 31	20	﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا ... ﴾
266	21	﴿ وَإِذَا أَدْعَا النَّاسُ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلْ اللَّهُ ... ﴾
266	22	﴿ هُوَ الَّذِي يُسَبِّحُكُمْ فِي النَّبْرِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ يَبْسُجُ ... ﴾
266	23	﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ ... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
272	24	﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ... ﴾
278	25	﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
97	26	﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾
30	94	﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ... ﴾
277	108	﴿ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾
هود		
241	102	﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾
280	108	﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا ... ﴾
الرعد		
278	24 - 23	﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾
132	31	﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ ... ﴾
إبراهيم		
237	7	﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾
265	46	﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ ﴾
النحل		
15	9	﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ ﴾
55	38	﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾
236	53	﴿ وَمَا يَكُفُّ عَنْكُمْ مِنْ نِقْمَتِهِ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَالْيَتِيهِ يَجْشَرُونَ ... ﴾
242	90	﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ ... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
الإسراء		
175	44	﴿لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾
62	67	﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا بَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ...﴾
الكهف		
276	45	﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتٌ﴾
132	59	﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾
الأنبياء		
241	11	﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾
212	37	﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾
237	90	﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، وَيَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ ...﴾
الحج		
78	30	﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾
241	45	﴿فَكَأَيُّ يَمِّنٍ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾
المؤمنون		
256	52	﴿وَإِنَّ هَدْيِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَجِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾
النور		
241	55	﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ...﴾
الفرقان		
60	65	﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾
النمل		
41	56	﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
268	69	﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾
العنكبوت		
19	45	﴿ إِنِ الْصَّلَاةُ تَنهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾
الروم		
253	30	﴿ فَأَقْرَعْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾
السجدة		
132	21	﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلْوَنِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾
الأحزاب		
242	72	﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ ... ﴾
فاطر		
265	10	﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾
178	28	﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾
ص		
17	29	﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾
الزمر		
236	8	﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا ... ﴾
178	9	﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
194	45	﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ... ﴾
90	53	﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ ... ﴾
الأحقاف		
ت	15	﴿ قَالَ رَبِّ آوِزْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
محمد		
1	24	﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاتِ أَمْرًا عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهَا ﴾ (٢٤)
85	29	﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْفَانَهُمْ ... ﴾
الفتح		
188	4	﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾
172	29	﴿ يَعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾
ق		
265	18	﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾
الذاريات		
189	21-20	﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَكِّفِينَ ﴾ (٢٠) ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾
19	56	﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾
الواقعة		
80	11-10	﴿ وَالسَّادِقُونَ السَّادِقُونَ ﴾ (١٠) ﴿ أُولَئِكَ الْمَقَرَّبُونَ ﴾
المجادلة		
178	11	﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾
55	14	﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾
الحشر		
160	8	﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ ... ﴾
157	9	﴿ وَيُؤْتُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾
57	13	﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
الجمعة		
268	10	﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾
الطلاق		
221	2	﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾
الملك		
83	4	﴿ ثُمَّ أَوَّجَعُ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾
القلم		
55	17	﴿ إِذْ أَسْمُوا لِبَصْرِئِنَا مُصِيبِينَ ﴾
الجن		
259	27-26	﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ... ﴾
الانفطار		
265	12 - 10	﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

ثانياً: فهرس أطراف الأحاديث النبوية الشريفة

الصفحة	حكمه	مكان وروده	طرف الحديث
25		صحيح البخاري	آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ...
65		صحيح البخاري	أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَجْبِرُوا الْوَفْدَ ...
276		صحيح البخاري	إِذَا أُمْسِيَتْ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا ...
259		صحيح البخاري	إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ ...
276	حديث حسن صحيح	سنن الترمذي	إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: ...
52		صحيح البخاري	أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ ...
14	حكم الألباني: حديث مشهور صحيح	مسند الإمام أحمد بن حنبل	ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه
143		صحيح البخاري ومسلم	أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُكِرْهُ
240		صحيح مسلم	إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوةٌ خَصِيْرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ ...
163		صحيح البخاري	إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ.....
241		صحيح البخاري	إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ.....
279		صحيح مسلم	إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتَقَلَّبُونَ وَلَا ...
110		صحيح مسلم	أَنَّ رَجُلًا قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَجَعَلَ يَسْأَلُ هَلْ لَهُ مِنْ ...
136	حكم الألباني: حسن	سنن أبي داود	"إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى"
147	حديث حسن بشواهد	مسند أحمد	أي عرى الإسلام أوثق؟"، قالوا: الصلاة، قال: "حسنة، وما ...
52		صحيح مسلم	إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلْفِ فِي الْبَيْعِ، فَإِنَّهُ يُنْفِقُ، ثُمَّ يَمَحَقُ
189		صحيح مسلم	الْإِيمَانَ بِضَعِّ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ
125	حكم الألباني: صحيح	سنن النسائي	الْبُصَاقُ فِي الْمَسْجِدِ حَاطِيَةٌ وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا"
170		صحيح مسلم	تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا ...
232	حكم الألباني: حسن	سنن الترمذي	ثَلَاثٌ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ....

الصفحة	حكمه	مكان وروده	طرف الحديث
238		صحيح مسلم	خَيْرُ أُمَّتِي الْقُرْنُ الَّذِينَ يُلُونِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ...
123	حكم الألباني: صحيح	سنن ابن ماجه	صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ كَعُمْرَةٍ
236		صحيح مسلم	عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ...
178	حكم الألباني: صحيح	سنن الترمذي	فضل العالم على العابد كفضلي على أديناكم
159		صحيح البخاري	قَوْلَ اللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ أَحْسَنَ مِمَّا ...
237		صحيح مسلم	كَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا ...
183		صحيح البخاري	كُلُّ مِمَّا يَلِيكَ
197		صحيح البخاري	كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْأَمِيرُ رَاعٍ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ ...
76	إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين	مسند أحمد	لَا بَلَّ يُبَايِعُ عَلَى الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ، لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ...
20		صحيح مسلم	لَا تَجْعَلُوا بَيْوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي ...
57	حكم الألباني: صحيح	سنن ابن ماجه	لَا تَخْلِفُوا بِأَبَائِكُمْ، مَنْ خَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصُدِّقْ، وَمَنْ خَلَفَ لَهُ ...
231		صحيح مسلم	لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ ...
198	حكم الألباني: حسن	سنن الترمذي	لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ ...
132		صحيح البخاري	لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ...
231		صحيح البخاري	لَا يَتَمَتَّيْنِ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ مِنْ ضُرِّ أَصَابِهِ ...
189		صحيح البخاري	لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ ...
194		صحيح مسلم	لَا يَفْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، ...
271		صحيح البخاري	لَا يُلْدَعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ
66		صحيح مسلم	لَأَسْلَمُ، وَغَفَارٌ، وَشَيْءٌ مِنْ مُزِينَةٍ، وَجُهَيْنَةٍ، أَوْ شَيْءٍ ...
251		صحيح البخاري	لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ...
169		صحيح البخاري	لَعْدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

الصفحة	حكمه	مكان وروده	طرف الحديث
171		صحيح مسلم	لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مَائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ
103		صحيح مسلم	لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ ...
70		صحيح البخاري	اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ، فَقَالَ: "...
110		صحيح مسلم	لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ ...
170	حكم الألباني: حسن صحيح	سنن ابن ماجه	مَا مِنْ مَجْرُوحٍ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجْرَحُ ...
171		صحيح البخاري	مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ، ...
253		صحيح البخاري	مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ...
157		صحيح البخاري	مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ...."
41		صحيح مسلم	مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ ...
58	حكم الألباني: صحيح	سنن الترمذي	مَنِ التَّمَسَّ رِضَاءَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ ...
225	حكم الألباني: صحيح	سنن ابن ماجه	مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَزَقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ ...
171		صحيح مسلم	مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهٖ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ ...
178		صحيح البخاري	مَنْ بُرِدَ اللَّهُ بِهٖ خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ ...
ت	حكم الألباني : صحيح لغيره	سنن الترمذي	"مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ"
120	حكم الألباني: صحيح	سنن الترمذي	" نزلت هذه الآية في أهل قباء وفيه رجال يحبون أن ... "
170		صحيح البخاري	هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعُ دَمِيَّتٍ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ "
158		صحيح البخاري	يَا أُمَّ سَلَمَةَ تَيْبَ عَلَى كَعْبٍ " قَالَتْ: أَفَلَا أُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأُبَشِّرُهُ؟...."
58		صحيح مسلم	يُخْرَجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَيَّ ...
-216 275		صحيح مسلم	يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ...

ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم

الصفحة	اسم العلم
238	أبو إسحاق الزجاج
151	الأنباري
147	البراء بن عازب
176	الزُّرقاني
16	الشاطبي
244	شهر بن حوشب الأشعري
76	السيدي
66	الضَّحَّاك بن مَرْحَم الهلالي الخراساني
46	الطُّرُطُوشِيُّ
71	عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري
235	عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج
15	عثمان بن جني الموصلني
16	علال الفارسي
60	قَتَادَةَ بن دِعَامَةَ بن قَتَادَةَ
262	القُتَيْبِيُّ
76	مجاهع بن مسعود
16	محمد الطاهر بن عاشور
37	معروف الكرخي
30	مُفَاتِلُ بن حَيَّانَ
274	يوسف بن أبي بكر بن محمد أبو يعقوب السكاكي

رابعاً: فهرس المصادر والمراجع

1. الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان: بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد (المتوفى: 1429هـ)، الناشر: دار العاصمة، الطبعة: الأولى، 1417هـ.
2. إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشرط الساعة: حمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرحمن التويجري (المتوفى: 1413هـ)، الناشر: دار الصمعي للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية - الطبعة: الثانية، 1414هـ.
3. إتقان البرهان في علوم القرآن: فضل حسن عباس، مطبعة: دار الفرقان - الطبعة الأولى 1997م.
4. إتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974م.
5. أحكام القرآن: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: 370هـ)، المحقق: محمد صادق القمحاوي - عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف - الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - تاريخ الطبع: 1405هـ.
6. أحكام القرآن: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: 543هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، 1424هـ - 2003م.
7. أحكام القرآن: علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (المتوفى: 504هـ)، المحقق: موسى محمد علي وعزة عبد عطية، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت - الطبعة: الثانية، 1405هـ.
8. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
9. الأساس في التفسير: سعيد حوى، الناشر: دار السلام، الطبعة: الأولى 1405هـ - 1985م.
10. أسباب النزول، للإمام السيوطي، دراسة وتحقيق حامد أحمد الطاهر، الناشر: دار الفجر للتراث - القاهرة -، الطبعة: الأولى 1423هـ - 2002م.

11. أسد الغابة في معرفة الصحابة: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: 630هـ)، المحقق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، سنة النشر: 1415هـ - 1994م
12. الإصابة في تمييز الصحابة: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت -، الطبعة: الأولى 1415هـ.
13. أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع: عبد الرحمن النحلوي، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الخامسة والعشرون 1428هـ-2007م.
14. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: 1393هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان - عام النشر: 1415هـ - 1995م.
15. إغاثة المستفيد بشرح كتاب التوحيد: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة 1423هـ - 2002م.
16. إعراب القرآن العظيم: زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنكي (المتوفى: 926هـ)، حققه وعلق عليه: د. موسى على موسى مسعود (رسالة ماجستير)، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2001م.
17. إعراب القرآن الكريم: أحمد عبيد الدعاس، أحمد محمد حميدان، إسماعيل محمود القاسم، الناشر: دار المنير ودار الفارابي - دمشق -، الطبعة: الأولى، 1425هـ.
18. إعراب القرآن وبيانه: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى: 1403هـ)، الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، الطبعة: الرابعة، 1415هـ.
19. إعراب القرآن: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: 338هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1421هـ.
20. الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي دمشقي (المتوفى: 1396هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار/ مايو 2002م.

21. إغاثة اللفهان في حكم طلاق الغضبان: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، المحقق: محمد عفيفي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان - مكتبة فرقد الخاني - الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1408هـ - 1988م.
22. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة: الأولى، 1418هـ.
23. الأنوار الكاشفة لما في كتاب "أضواء على السنة" من الزلل والتضليل والمجازفة: عبد الرحمن بن يحيى بن علي المعلمي اليماني (المتوفى: 1386هـ)، الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها عالم الكتب - بيروت -، سنة النشر: 1406هـ - 1986م.
24. أهداف التربية الإسلامية: د. ماجد عرسان الكيلاني الأردني، الناشر: دار القلم، الطبعة: الأولى.
25. إيجاز البيان عن معاني القرآن: محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، نجم الدين (المتوفى: نحو 550هـ)، المحقق: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت - الطبعة: الأولى، 1415هـ.
26. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، 1424هـ - 2003م.
27. بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: 373هـ).
28. البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ) - المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت - الطبعة: 1420هـ.
29. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجيري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ)، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة -، الطبعة: 1419هـ.
30. البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى 1408هـ - 1988م.

31. البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، 1376هـ - 1957م.
32. تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: 1205هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
33. تاريخ إربل: المؤلف: المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإربلي، المعروف بابن المستوفي (المتوفى: 637هـ)، المحقق: سامي بن سيد خماس الصقار، الناشر: وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر-العراق-، عام النشر: 1980م.
34. تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: 463هـ)، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002م.
35. التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى: 616هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه.
36. التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس -، سنة النشر: 1984هـ.
37. تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ)، المحقق: سمير المجذوب، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 1403هـ - 1983م.
38. تسيح الله ذاته العلية في آيات كتابه السنية: عماد بن زهير حافظ، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: 1423هـ - 2003م.
39. التسهيل لعلوم التنزيل: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبى الغرناطي (المتوفى: 741هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت -، الطبعة: الأولى - 1416هـ.
40. تفسير ابن عرفة: محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى: 803هـ)، المحقق: جلال الأسيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان -، الطبعة: الأولى، 2008م.

41. تفسير الإمام الشافعي: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: 204هـ)، جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرّان (رسالة دكتوراه)، الناشر: دار التدمرية - المملكة العربية السعودية -، الطبعة: الأولى، 1427هـ - 2006م.
42. تفسير التستري: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التستري (المتوفى: 283هـ)، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1423هـ.
43. التفسير الحديث [مرتب حسب ترتيب النزول]: دروزة محمد عزت، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، الطبعة: 1383هـ.
44. تفسير الشعراوي - الخواطر -: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، نشر عام: 1997م.
45. تفسير الفاتحة والبقرة: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: 1421هـ)، الناشر: دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية -، الطبعة: الأولى، 1423هـ.
46. تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)، المؤلف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، الناشر: دار ابن حزم - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1416هـ - 1996م.
47. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: 1354هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: 1990م.
48. تفسير القرآن العزيز: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَين المالكي (المتوفى: 399هـ)، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الناشر: الفاروق الحديثة - مصر - القاهرة، الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2002م.
49. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: 327هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية -، الطبعة: الثالثة - 1419هـ.

50. تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 1420هـ - 1999م.
51. تفسير القرآن الكريم: عبد الله شحاته، دار الغريب القاهرة - مصر - ، الطبعة الثانية 2000م.
52. تفسير القرآن: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: 489هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية - ، الطبعة: الأولى، 1418هـ - 1997م.
53. التفسير القرآني للقرآن - المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد 1390هـ) - الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة.
54. تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة): محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: 333هـ)، المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1426هـ - 2005م.
55. تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: 1371هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر - ، الطبعة: الأولى، 1365هـ - 1946م.
56. التفسير المظهري: المظهري، محمد ثناء الله، المحقق: غلام نبي التونسي، الناشر: مكتبة الرشدية - باكستان - ، الطبعة: 1412هـ.
57. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر - دمشق - ، الطبعة: الثانية، 1418هـ.
58. التفسير الميسر: نخبة من أساتذة التفسير، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية - ، الطبعة: الثانية، 1430هـ - 2009م.
59. التفسير الواضح: الحجازي، محمد محمود، الناشر: دار الجيل الجديد - بيروت - ، الطبعة: العاشرة، 1413هـ.
60. التفسير الوسيط للقرآن الكريم: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة: الأولى، (1393 هـ = 1973 م) - (1414 هـ = 1993 م).

61. التفسير الوسيط للقرآن الكريم: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة -، الطبعة: الأولى، يناير: 1997م.
62. التفسير الوسيط: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر - دمشق -، الطبعة: الأولى، 1422هـ.
63. تفسير آيات الأحكام: محمد علي السائس الأستاذ بالأزهر الشريف، المحقق: ناجي سويدان، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، تاريخ النشر: 2002/10/01م.
64. تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: 150هـ)، المحقق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت -، الطبعة: الأولى - 1423 هـ.
65. تهذيب اقتضاء الصراط المستقيم: شيخ الإسلام ابن تيمية، هُدبهُ وخرَّجَ أحاديثه: شحاتة محمد صقر - الناشر: مكتبة دار العلوم، البحيرة (مصر)، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: أحمد الريسوني، ط2، 1412هـ - 1992م، الناشر: الدار العالمية للكتاب الإسلامي.
66. تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان -.
67. تهذيب التهذيب: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية - الهند -، الطبعة: الأولى، 1326هـ.
68. توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم: أحمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى (المتوفى: 1327هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت -، الطبعة: الثالثة، 1406هـ.
69. توفيق الرحمن في دروس القرآن: فيصل بن عبد العزيز بن فيصل ابن حمد المبارك الحرمللي النجدي (المتوفى: 1376هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل محمد، الناشر: دار العاصمة، المملكة العربية السعودية - الرياض -، دار العليان للنشر والتوزيع، القصيم - بريدة -، الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1996 م.
70. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، المؤلف: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (المتوفى: 1233هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة: الأولى، 1423هـ/2002م.

71. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420هـ - 2000م.

72. تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان رضي الله عنه - شخصيته وعصره -: علي محمد محمد الصلابي، الناشر: دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة - مصر -، الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2002م.

73. التيسير في أحاديث التفسير: محمد المكي الناصري (المتوفى: 1414هـ) - الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان -، الطبعة: الأولى، 1405هـ - 1985م.

74. الثقات: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (1973م)، طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، الناشر: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة: الأولى.

75. جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420هـ - 2000م.

76. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

77. جامع بيان العلم وفضله: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية -، الطبعة: الأولى، 1414هـ - 1994م.

78. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة -، الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964م.

79. الجدول في إعراب القرآن الكريم: محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: 1376هـ)، الناشر: دار الرشيد - دمشق -، مؤسسة الإيمان - بيروت -، الطبعة: الرابعة، 1418هـ.

80. الجديد في شرح كتاب التوحيد: محمد بن عبد العزيز السليمان القرعاوي، دراسة وتحقيق: محمد بن أحمد سيد أحمد، الناشر: مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية -، الطبعة: الخامسة، 1424هـ/2003م.
81. جمال القراء وكمال الإقراء: علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي، أبو الحسن، علم الدين السخاوي (المتوفى: 643هـ)، تحقيق: د. مروان العطيّة، ود. محسن خرابة، الناشر: دار المأمون للتراث دمشق - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1418هـ - 1997م.
82. الجواهر الحسان في تفسير القرآن: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: 875هـ)، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1418هـ.
83. الجواهر المضوية: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: 1206هـ)، الناشر: دار العاصمة، الرياض - المملكة العربية السعودية -، الطبعة: الأولى بمصر، 1349هـ، النشرة الثالثة، 1412هـ.
84. حجة القراءات: عبد الرحمن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة (المتوفى: حوالي 403هـ)، محقق الكتاب ومعلق حواشيه: سعيد الأفغاني، الناشر: دار الرسالة.
85. حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام: عامر بن حسن صبري، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
86. الحد الفاصل بين الإيمان والكفر: عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف، الناشر: الدار السلفية - الكويت -، الطبعة: الخامسة، 1408هـ - 1988م.
87. خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: 1394هـ)، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة -، عام النشر: 1425هـ.
88. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى): عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (المتوفى: 1429هـ)، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، 1413هـ - 1992م.
89. الدر المنثور: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت -.
90. دراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل (المتوفى: 1426هـ)، الناشر: دار المنار، الطبعة: الثانية، 1419هـ - 1999م.

91. دَرْجُ الدَّرْرِ فِي تَفْسِيرِ الآيِ وَالسُّورِ: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: 471هـ)، دراسة وتحقيق: (الفاحة والبقرة) وليد بن أحمد بن صالح الحُسَيْن، (وشاركة في بقية الأجزاء): إياد عبد اللطيف القيسي، الناشر: مجلة الحكمة، بريطانيا، الطبعة: الأولى، 1429هـ - 2008م.

92. الرحيق المختوم: صفي الرحمن المباركفوري (المتوفى: 1427هـ)، الناشر: دار الهلال - بيروت، الطبعة: الأولى.

93. روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي): زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: 795هـ)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الناشر: دار العاصمة - المملكة العربية السعودية -، الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2001م.

94. روح البيان: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (المتوفى: 1127هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت.

95. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الأوسلي (المتوفى: 1270هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1415هـ.

96. روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: 620هـ)، الناشر: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 1423هـ - 2002م.

97. زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

98. زهرة التفاسير: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: 1394هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي.

99. سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهي (وهو شرح منظومة حرز الأمانى ووجه التهاني للشاطبي): أبو القاسم (أو أبو البقاء) علي بن عثمان بن محمد بن أحمد بن الحسن المعروف بابن القاصح العذري البغدادي ثم المصري الشافعي المقرئ (المتوفى: 801هـ)، راجعه شيخ

المقارئ المصرية: علي الضباع، الناشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر -، الطبعة: الثالثة، 1373هـ - 1954م.

100. سراج الملوك: أبو بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي (المتوفى: 520هـ) - الناشر: من أوائل المطبوعات العربية - مصر-، تاريخ النشر: 1289هـ - 1872م.

101. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشرييني الشافعي (المتوفى: 977هـ)، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة -، عام النشر: 1285هـ.

102. سنن ابن ماجه: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: 273هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي -.

103. سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (المتوفى: 275هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت -.

104. سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ) - تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج 1، 2)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج 3)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج 4، 5)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر-، الطبعة: الثانية، 1395هـ - 1975م.

105. سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: 748هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة - الطبعة: الثالثة، 1405هـ / 1985م.

106. السيرة النبوية - عرضٌ وقائعٌ وتحليلٌ أحداث - : علي محمد محمد الصلّابي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان -، الطبعة: السابعة، 1429هـ - 2008م.

107. السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني: أحمد أحمد غلوش، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى 1424هـ - 2004م.

108. شرح طيبة النشر في القراءات العشر: محمد بن محمد بن محمد، أبو القاسم، محب الدين النُّوَيْرِي (المتوفى: 857هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتور مجدي محمد سرور سعد باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2003م.
109. شرح طيبة النشر في القراءات: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: 833هـ)، ضبطه وعلق عليه: الشيخ أنس مهرة، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت ض- الطبعة: الثانية، 1420هـ - 2000م.
110. شعب الإيمان: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريره أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند -، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند - الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2003م.
111. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ) - تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت -، الطبعة: الرابعة 1407هـ - 1987م.
112. الصحيح المسند من أسباب النزول: مُقْبَلُ بْنُ هَادِي بْنِ مُقْبَلِ بْنِ قَائِدَةَ الْهَمْدَانِي الْوَادِعِيِّ (المتوفى: 1422هـ)، الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة -، الطبعة: الرابعة مزينة ومنقحة، 1408هـ - 1987م.
113. صدق الله العظيم وكذبت النبوءات: علي بن نايف الشحود، الطبعة: الثانية، 1433هـ - 2012م.
114. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم - بيروت -، الطبعة: الرابعة 1402هـ - 1981م.
115. صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال: حسين بن محمد المهدي - عضو المحكمة العليا للجمهورية اليمنية -، راجعه: الأستاذ العلامة عبد الحميد محمد المهدي - مكتبة المحامي: أحمد بن محمد المهدي، الناشر: سُجْلُ هَذَا الْكِتَابِ بِبُورْزَاةِ الْتَقَاةِ، بَدَار الْكِتَابِ بِرَقْمِ إِيدَاعِ (449) لِسَنَةِ 2009م.
116. طبقات الحفاظ: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (1403هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى.

117. عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة - المفهوم، والفضائل، والمعنى، والمقتضى، والأركان، والشروط، والنواقص، والنواقض - د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الناشر: مطبعة سفير - الرياض -، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان - الرياض -.
118. علم مقاصد السور: محمد عبد الله ربيعة، جامعة القصيم، الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2003م.
119. العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.
120. غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: 850هـ)، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1416هـ.
121. غيث النفع في القراءات السبع: علي بن محمد بن سالم، أبو الحسن النوري الصفاقسي المقرئ المالكي (المتوفى: 1118هـ)، المحقق: أحمد محمود عبد السميع الشافعي الحفيان، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1425هـ - 2004م.
122. فتح البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: 1307هـ)، عني بطبعه وقدم له وراجعته: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت - ، عام النشر: 1412هـ - 1992م.
123. فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1414هـ.
124. فريدة الدهر في تأصيل وجمع القراءات: محمد إبراهيم محمد سالم (المتوفى: 1430هـ)، الناشر: دار البيان العربي - القاهرة -، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2003م.
125. فريدة الدهر في تأصيل وجمع القراءات: محمد إبراهيم محمد سالم (المتوفى: 1430هـ)، الناشر: دار البيان العربي - القاهرة -، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2003م.
126. الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية: نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (المتوفى: 920هـ)، الناشر: دار ركابي للنشر، الغورية - مصر -، الطبعة: الأولى، 1419هـ - 1999م.

127. في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك، مصر - القاهرة - المكتب المصري الحديث، الطبعة: الأولى.
128. في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385هـ)، الناشر: دار الشروق، بيروت - القاهرة -، الطبعة: السابعة عشر، 1412هـ.
129. القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً: الدكتور سعدي أبو حبيب، الناشر: دار الفكر، دمشق - سورية - الطبعة: الثانية، 1408هـ - 1988م، تصوير: 1993م.
130. القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: 817هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان -، الطبعة: الثامنة، 1426هـ - 2005م.
131. القراءات وأثرها في علوم العربية: محمد محمد محمد سالم محيسن (المتوفى: 1422هـ)، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة -، الطبعة: الأولى، 1404هـ - 1984م.
132. القرآن منهاج حياة: غازي صبحي آق بيق، قام بتنسيقه وفهرسته الباحث في القرآن والسنة: علي بن نايف الشحود، في 26 رجب 1429هـ، الموافق 2008/7/29م.
133. القرآن وإعجازه العلمي: محمد إسماعيل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي، دار الثقافة العربية للطباعة.
134. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت -، الطبعة: الثالثة، 1407هـ.
135. الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: 427هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان -، الطبعة: الأولى 1422هـ - 2002م.
136. كيف نتعامل مع القرآن: محمد الغزالي، الناشر: دار نهضة - مصر -، الطبعة: الأولى.
137. لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيشي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: 741هـ)، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1415هـ.
138. اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد

- معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان -، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.
139. لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: 711 هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت -، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.
140. لسان الميزان: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (2002 م)، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الأولى.
141. لطائف الإشارات: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465 هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر -، الطبعة: الثالثة.
142. مباحث في علم القراءات مع بيان أصول رواية حفص: محمد عباس الباز، الناشر: دار الكلمة - القاهرة -، الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م.
143. مباحث في علوم القرآن: مناع بن خليل القطان (المتوفى: 1420 هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثالثة 1421 هـ - 2000 م.
144. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: 637 هـ)، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة -.
145. المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303 هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب -، الطبعة: الثانية، 1406 هـ - 1986 م.
146. المجتبى من مشكل إعراب القرآن: أ. د. أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة - عام النشر: 1426 هـ.
147. مجلة البيان (238 عددا)، المؤلف: تصدر عن المنتدى الإسلامي.
148. محاسن التأويل: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: 1332 هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1418 هـ.

149. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1422هـ.
150. المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية: خالد بن سليمان المزيني، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام - المملكة العربية السعودية -، الطبعة: الأولى، 1427هـ - 2006م.
151. مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الانصاري الرويفعي الإفريقي (1407هـ)، المحقق: روحية النحاس، وآخرون، دار النشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر - دمشق -، الطبعة: الأولى.
152. مخطوطة الجمل - معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن -: حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر -، الطبعة: الأولى، 2003م - 2008م.
153. مدارك التنزيل وحقائق التأويل: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: 710هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت -، الطبعة: الأولى، 1419هـ - 1998م.
154. مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد - المؤلف: محمد بن عمر نووي الجاوي البنتي إقليما، التناري بلدا (المتوفى: 1316هـ)، المحقق: محمد أمين الصناوي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1417هـ.
155. مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2001م.
156. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت -.
157. مَصَاعِدُ النَّظَرِ لِلإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّورِ، وَيُسَمَّى: "المَقْصِدُ الأَسْمَى فِي مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلْمُسَمَّى": إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ)، دار النشر: مكتبة المعارف - الرياض -، الطبعة: الأولى، 1408هـ - 1987م.

158. معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : 510هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت -، الطبعة : الأولى، 1420هـ.
159. معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: 311هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب - بيروت -، الطبعة: الأولى 1408هـ - 1988م.
160. المعجزة الكبرى القرآن: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: 1394هـ)، الناشر: دار الفكر العربي.
161. معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: 626هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1414هـ - 1993م.
162. معجم اللغة العربية المعاصرة: د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429هـ - 2008م.
163. معجم المؤلفين: عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي (المتوفى: 1408هـ)، الناشر: مكتبة المثنى - بيروت -، دار إحياء التراث العربي.
164. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.
165. معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ: محمد محمد محمد سالم محيسن (المتوفى: 1422هـ)، الناشر: دار الحيل - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1412هـ - 1992م.
166. معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.
167. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت -، الطبعة: الثالثة - 1420هـ.
168. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها: علاء الفاسي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الخامسة، 1993م.
169. المقاصد العامة للشريعة: يوسف حامد العلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - الرياض -، الطبعة: الثانية، 1514هـ - 1994م.

170. منار الهدى في بيان الوقف والابتداء: أحمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الأشموني المصري الشافعي (المتوفى: نحو 1100هـ)، المحقق: عبد الرحيم الطرهوني، الناشر: دار الحديث، القاهرة - مصر -، عام النشر: 2008.
171. مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني (المتوفى: 1367هـ)، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الثالثة.
172. موارد الظمان لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلطان (المتوفى: 1422هـ)، الطبعة: الثالثون، 1424هـ.
173. الموافقات: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: 790هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1997م.
174. الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية: محماس بن عبد الله بن محمد الجلود، الناشر: دار اليقين للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1407هـ - 1987م.
175. موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر محمد ناصر الدين الألباني "موسوعة تحتوي على أكثر من (50) عملاً ودراسة حول العلامة الألباني وتراثه الخالد": أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ)، صنَّعهُ: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان - الناشر: مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، صنعاء - اليمن -، الطبعة: الأولى، 1431هـ - 2010م.
176. موسوعة الفقه الإسلامي: محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري - الناشر: بيت الأفكار الدولية - الطبعة: الأولى، 1430هـ - 2009م.
177. الموسوعة القرآنية: إبراهيم بن إسماعيل الأبياري (المتوفى: 1414هـ) - الناشر: مؤسسة سجل العرب - الطبعة: 1405هـ.
178. الموسوعة القرآنية، خصائص السور: جعفر شرف الدين، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجري، الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1420هـ.
179. موسوعة فقه القلوب: محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، الناشر: بيت الأفكار الدولية.

180. الناسخ والمنسوخ - وتنزيل القرآن بمكة والمدينة - : محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري (المتوفى: 124هـ)، رواية: أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي (412هـ)، المحقق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، 1418هـ - 1998م.
181. الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: 456هـ)، المحقق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان -، الطبعة: الأولى، 1406هـ - 1986م.
182. الناسخ والمنسوخ: أبو القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي المقري (المتوفى: 410هـ)، المحقق: زهير الشاويش، ومحمد كنعان، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1404هـ.
183. نزول القرآن على سبعة أحرف: مناع بن خليل القطان (المتوفى: 1420هـ)، الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة -، الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1991م.
184. النشر في القراءات العشر: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: 833هـ)، المحقق: علي محمد الضباع (المتوفى 1380هـ)، الناشر: المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية].
185. نظرات في كتاب الله: حسن أحمد عبد الرحمن محمد البنا الساعاتي (المتوفى: 1368هـ)، الناشر: دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة -، عام النشر: 1423هـ - 2002م.
186. نظرية المقاصد عند ابن عاشور: إسماعيل الحسني، ط1: 1416هـ - 1995م، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
187. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
188. النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام: أحمد محمد بن علي بن محمد الكرجي القصب (المتوفى: نحو 360هـ)، تحقيق: الجزء 4: شايح بن عبده بن شايح الأسمرى، دار النشر: دار القيم - دار ابن عفان، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2003م.
189. النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان -.
190. نيل المرام من تفسير آيات الأحكام: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: 1307هـ)، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، دار النشر: دار الكتب العلمية، تاريخ النشر: 2003/01/30.

191. الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر: محمد محمد محمد سالم محيسن (المتوفى: 1422هـ)، الناشر: دار الجيل - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1997م.

192. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه: أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: 437هـ)، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، 1429هـ - 2008م.

193. الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي (2000م)، المحقق: أحمد الأرنؤوط وتركلي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت -، الأجزاء: 29.

194. الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع: عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي (المتوفى: 1403هـ)، الناشر: مكتبة السوادى للتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1412 هـ - 1992م.

195. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار النشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق - بيروت -، الطبعة: الأولى، 1415هـ.

196. الوسيط في تفسير القرآن المجيد: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، وغيرهم، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان -، الطبعة: الأولى، 1415 هـ - 1994م.

197. وظيفة الصورة الفنية في القرآن: عبد السلام أحمد الراغب، الناشر: فصلت للدراسات والترجمة والنشر - حلب -، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001م.

198. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت -، الطبعة: الجزء الرابع، 1971م.

المواقع الإلكترونية:

199. www.nabulsi.com

خامساً: فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
أ	آية قرآنية
ب	إهداء
ت	شكر وتقدير
1	مقدمة
1	أولاً: أسباب اختيار البحث
2	ثانياً: أهمية البحث
2	ثالثاً: أهداف البحث
2	رابعاً: الدراسات السابقة
التمهيد	
المبحث الأول: التعريف بالدراسة التحليلية والمقاصد والأهداف	
12	المطلب الأول: تعريف الدراسة التحليلية، وبيان متطلباتها.
15	المطلب الثاني: تعريف المقاصد والأهداف وبيان أهميتها.
19	المطلب الثالث: طرق معرفة مقاصد السور، وأهم مصنفتها.
22	المبحث الثاني: تعريف عام بسورتي التوبة، ويونس
22	المطلب الأول: تعريف عام بسورة التوبة
29	المطلب الثاني: تعريف عام بسورة يونس
الفصل الأول	
الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة التوبة من الآية (93-110)	
المبحث الأول: المقاصد والأهداف من الآية (93 - 99)، المتخلفون عن غزوة تبوك من المنافقين والأعراب وموقف الإسلام منهم	
36	المطلب الأول: مؤاخذة المتخلفين الأغنياء عن الغزوة بغير عذر.
42	المطلب الثاني: اعتذار المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك.

الصفحة	الموضوع
48	المطلب الثالث: حلف المتخلفين عن غزوة تبوك الأيمان الكاذبة.
53	المطلب الرابع: موقف المسلمين من المنافقين المتخلفين عن الغزوة.
59	المطلب الخامس: كفر بعض الأعراب ونفاقهم.
66	المطلب السادس: حقيقة إيمان الأعراب.
المبحث الثاني: المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية (100 - 106)، الفئات الإيمانية المختلفة في المدينة	
75	المطلب الأول: الطبقات الإيمانية في المجتمع المدني.
81	المطلب الثاني: جزاء المنافقين في المدينة ومن حولها.
86	المطلب الثالث: ندم بعض من تخلف عن الغزوة.
91	المطلب الرابع: حكم أخذ الصدقة.
98	المطلب الخامس: قبول التوبة والأمر بالعمل الصالح.
105	المطلب السادس: الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.
المبحث الثالث: المقاصد والأهداف من الآية (107 - 110)، مسجد الضرار ومسجد التقوى وموقف الرسول ﷺ منهما	
113	المطلب الأول: مسجد الضرار (المنافقين).
120	المطلب الثاني: مسجد التقوى (قباة).
126	المطلب الثالث: موقف الرسول ﷺ من مسجد الضرار، ورد فعل المنافقين.
الفصل الثاني	
الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة التوبة من الآية (111 - 129)	
المبحث الأول: المقاصد والأهداف من الآية (111 - 119)، الولاء والبراء	
135	المطلب الأول: صفات المؤمنين الصادقين.
143	المطلب الثاني: الولاء للمؤمنين، والبراء من المشركين.
149	المطلب الثالث: شروط المؤاخذة (العقاب) على الذنب.
154	المطلب الرابع: التوبة العامة وشروطها.

الصفحة	الموضوع
158	المطلب الخامس: التوبة الخاصة على الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك.
المبحث الثاني: المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية (120 - 123)، الجهاد في سبيل الله	
166	المطلب الأول: فريضة الجهاد على أهل المدينة والأعراب، وجزاؤه.
174	المطلب الثاني: الجهاد فرض كفاية، وطلب العلم فريضة.
180	المطلب الثالث: السياسة الحربية في قتال الكفار.
المبحث الثالث: المقاصد والأهداف لسورة التوبة من الآية (124 - 129)، نزول القرآن على أمين الأنام	
186	المطلب الأول: تثبت قلوب المؤمنين عند نزول القرآن الكريم.
190	المطلب الثاني: موقف المنافقين من نزول السور القرآنية.
195	المطلب الثالث: صفات الرسول ﷺ ذات الصلة بأتمته.
الفصل الثالث	
الدراسة التحليلية لمقاصد الأهداف سورة يونس من الآية (1-25)	
المبحث الأول: المقاصد والأهداف لسورة يونس من الآية (1-10)، القدرة الإلهية	
201	المطلب الأول: الحروف المقطعة.
205	المطلب الثاني: إنكار العرب مهمة الرسول ﷺ.
210	المطلب الثالث: العبادة لخالق السموات والأرض.
214	المطلب الرابع: وعد الله حق.
217	المطلب الخامس: إثبات القدرة الإلهية في السنن الكونية.
222	المطلب السادس: المؤمن والكافر وعاقبة كل منهما.
المبحث الثاني: المقاصد والأهداف لسورة يونس من الآية (11-18)، سنن الله في الإستخلاف وموقف الناس منه	
228	المطلب الأول: استعجال الإنسان الخير دائماً.
233	المطلب الثاني: أحوال البشر في الدعاء عند مسهم الضر.
238	المطلب الثالث: سنة الله في إهلاك الأمم الظالمة والكافرة، وإستخلاف خلائف بعدهم.

الصفحة	الموضوع
243	المطلب الرابع: مطالبة المشركين الرسول ﷺ بقرآن آخر أو تبديل بعض آياته.
248	المطلب الخامس: عبادة المشركين للأصنام وإدعاء شفاعتها.
المبحث الثالث: المقاصد والأهداف لسورة يونس من الآية (19-25) ، حال المكذبين مع عدل رب العالمين	
253	المطلب الأول: فطرة الله الناس على الدين الحق.
257	المطلب الثاني: مطالبة المشركين نزول آية كونية من رب العالمين.
261	المطلب الثالث: إنكار الفضل، وزوال الأجر.
266	المطلب الرابع: عادة الكفار المكر واللجاج، وعدم الإنصاف عند الإنفراج.
272	المطلب الخامس: المثل البليغ للحياة الدنيا.
278	المطلب السادس: دعوة الله إلى دار السلامة، والهداية إلى طريق الاستقامة.
281	الخاتمة:
281	أولاً: النتائج
282	ثانياً: التوصيات
الفهارس العامة	
285	أولاً: فهرس الآيات القرآنية
296	ثانياً: فهرس أطراف الأحاديث النبوية الشريفة
299	ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم
300	رابعاً: فهرس المصادر والمراجع
320	خامساً: فهرس المحتويات
324	الملخص باللغة العربية
325	الملخص باللغة الإنجليزية

ملخص الرسالة

تم بحمد الله وتوفيقه إتمام هذه الرسالة، والتي بعنوان: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف القرآن الكريم الحزب الحادي والعشرين من القرآن الكريم (سورة التوبة الآيات: 93 - 129)، و(سورة يونس الآيات: 1-25) والمكونة من: مقدمة، وفصل تمهيدي، وثلاثة فصول، وخاتمة.

تحدثت الباحثة في التمهيد عن التعريف بالدراسة التحليلية لغة واصطلاحاً، وبينت طرق معرفتها وأهم المصنفات التي تناولتها، ثم تحدثت عن التعريف بسورتي التوبة ويونس، وكذلك بيان المناسبات فيها، ثم تناولت الباحثة في الفصول الثلاثة المقاصد والأهداف في الحزب الحادي والعشرين، مقسمةً هذه الفصول لعدة مباحث، بداخلها عدة مطالب، كل مطلبٍ منها يحمل هدفاً أو مقصداً من مقاصد وأهداف القرآن الكريم في السورة، وكذلك استنباط أهم الهدايات من هذه المقاصد والأهداف.

وقد سلكت الباحثة خلال بحثها المنهج التحليلي والموضوعي في التفسير، حيث تناولت في كل مطلبٍ من المطالب، وبعد ذكر الآية المراد إبراز الهدف والمقصد منها، عدة عناوينٍ أوجزت في كتابتها لتسهيل على القارئ إيجاد المعلومة بشكلٍ سهلٍ ومريحٍ، وهي على الترتيب: مناسبة المقصد

لما سبقه، وسبب النزول إن وجد، والتفسير التحليلي للمقصد من: معاني الكلمات، والإعراب، وبيان جوانب البلاغة، وأوجه القراءات، والاستنباطات الفقهية، والاشارات الغيبية إن وجد، والتفسير الإجمالي للآية، وأخيراً تحقيق الهدف والمقصد في الآيات، مستنبطةً منها أهم الهدايات والعبر.

وفي نهاية الرسالة ذكرت الباحثة أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها خلال البحث، ثم ذكرت مجموعة فهارس تسهل الوصول للمعلومة بأقل جهدٍ ممكن.

Abstract

Was the praise of Allah and to reconcile the completion of this Research, which titled: Analytical study of the purposes and objectives of the Koran Hizb twenty one (Surat Al Tuba verses : 93-129), and (Surat Yunus verses: 1-25), consisting of: introduction, introductory chapter, three chapters, and the conclusion.

The researcher mentioned at the introduction the definition of the analytical study: language, Idiomatically, and writing.

Also The definition of Surat Al Tuba and Surat Younis, also as well as the statement of occasions where, then the researcher mentioned in three chapters about the purposes and goals of Hizb twenty, divided these chapters to several objects, inside several demands, each demand which carries a goal of the purposes and objectives of the Holy Koran in The Surah where researched, as well as the deduction of the most important guidance of these purposes and goals.

The researcher followed during her research analytical method of interpretation, where I've had in all the demand of demands, and after mentioning mean of the verse to highlight the object and purpose of each, several titles outlined in writing to make it easier for the reader to find the information in an easy and comfortable way, which is on the order: suitable destination for the previous, The reason to go down if there, and analytical interpretation of the intent such: the meanings of words, the syntax, and the statement of aspects of the rhetoric, and aspects of the readings, and the deduction of jurisprudence, and signals metaphysical, if any, and the interpretation of the total of the verses, and finally achieve the goal and destination in the verses, conclude the most important guidance and lessons.

At the end of the research, the researcher mentioned the most important conclusions and recommendations reached during the search, then mentioned group indexes to facilitate access to information with minimal effort.